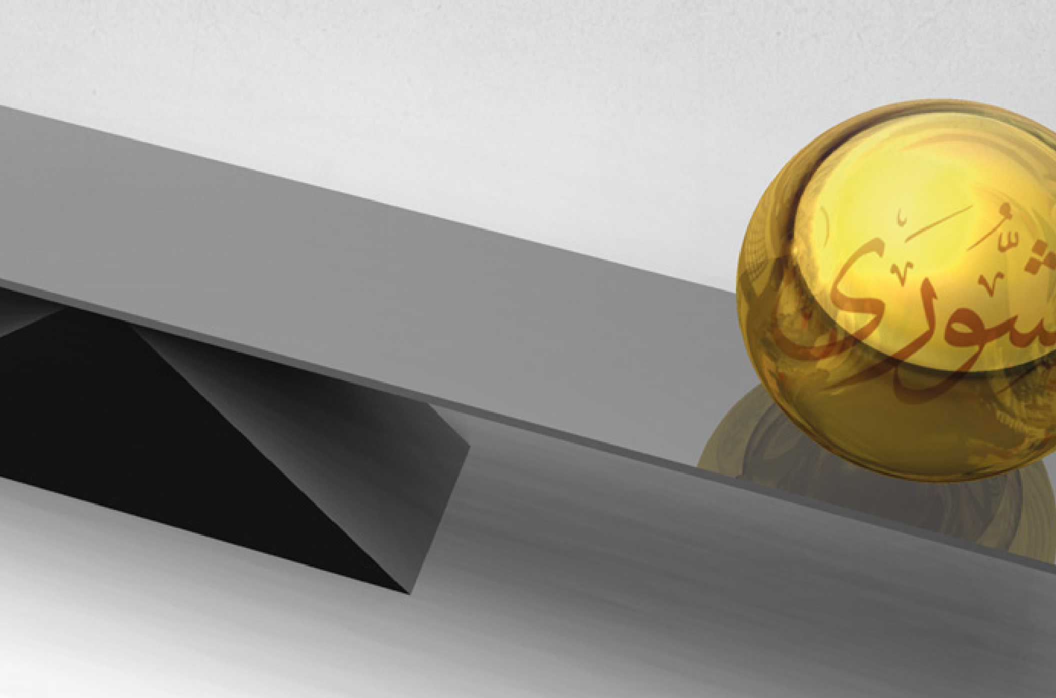
عبد السلام ياسين

الشورى والديمقراطية



الشُورى والديمُقراطية

الطبعة الرابعة: 2018/1439
ISBN: 9789953506272



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

الشورى والديمقراطية

عبد السلام ياسين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد هادي الخلق إلى صراط مستقيم.

في هذا الكتاب نتحدث عن المذهبية والمبادئ، وعن تحديد المصطلحات والكلمات والمفاهيم والدَّلالات. ذلك لنُسمِع الناس، ونحاوِر الناس، من شاء من الناس.

زيْدٌ من الناس لا يحب أن يسْمع، فإن استمع فالكلمة القرآنية والمصطلَح الإسلامي والمفهوم الفقهي في أُذنه أطياف غريبة، وذكرُ الله في الحديث عن الحكم ونظامه والسياسة ودواخلها إقحامٌ للدين في مجال غير مجاله.

أما عمْرو من الناس فالدين عنده ترسب في الذاكرة وشأْنٌ تُنوسِي فنُسِي. يغذّي عمْرو وزيد الجسم ويُرَوّضانه، ويغذيان العقل ويمرِّنانه، لكن الإيمان الضامرَ المتيبِّسَ في قلب هذا، الناشِفَ القاحِلَ من نفس ذاك، لا يُعرَفُ له غِذاءٌ، ولا يُلتَمس لَه تجديد، أو لا يُؤْبَهُ به وبخطابه بعد أن قَرَّرَ زيد وعمرو أنّ أمْر الآخرة وهمها، وما بعد الموت، شؤون خاصة من الشعوذة السياسية إثارتُها بين يدي كتاب عنوانه «الشورى والديمقراطية».

الديمقراطية كلمة مرادفة للذكاء، والحرية، والعقلانية، والحداثة، والتقدم، ولكل القيم الرائجة في العالم المتحضر. فما ذكرُ الموت والآخرةِ ولقاءِ الله في الموضوع!؟

يروغ زيد وعمرو من الناس ولا يحب أن يسمع كلمة «الآخر» رغم أن الديمقراطيةَ العقيدَةَ العتيدَة تُعلم الحوار، وضرورةَ الحوار،

وتعددية الآراء، وعلاج الاختلاف بالحجة، والكلمة، والوِفاق السلمي، والتعاقب السلمي.

تؤمن الديمقراطية بكل ذلك وتُعلِّمه وتحبذه بينَ أفكارٍ وأحزابٍ وآراءٍ تجمعها جامعة الثقافة العالمية المادية السائدة. أما أن تكون مرجعيةُ المحاوِر ومصطلَحُه وكلمتُه مِن عالَمٍ مغايرٍ لدينِ اللاييكية وكلمتِها ومصطلحِها قلبا وقالَباً ومبدأً وغاية فالحِوار جنون، أو مَلهاةٌ، أو مأساة.

هيَّأ الاقتناع الديمقراطي الأنفُسَ لتَقَبُّل عقيدة اللاييكية اللادينية، وهيأ العقُولَ قبلَ ذلك لتقَبُّلها وتبنيها، والكفر بغيرها. تعليمٌ، ونظامُ تعليم، سَقَى طفولَةَ عمرو وزيد الرحيق الزقّوميَّ للفكر الإلحادي.

اللاييكية دينٌ، اللاييكية شريعةٌ، اللاييكية ملةُ «المجتمع المدني». لا يمكن للديمقراطية أن تُستَنْبَتَ دون اجتثاث هذه النباتاتِ الضارَّة الطفيلية الظلامية التطرفية الرجعية التي تسمى إيمانا، وتسمى اللهَ، وتسمى رسولَ الله، وتسمَّى الوحي، وتُسمى الآخرةَ، وتسمى الغيبَ.

لاَ نهرُبُ مِن الواقِع المأْسَاوِيِّ لعقُولِ أبنائنا وبناتنا الذين غُرِّبوا عن دينِهم فتغَرّبوا، وجُهِّلُوهُ فجهِلوا. ولا نلعَبُ بالكلمات لنُلقِيَ جِسراً وهميا نعبر عليه ويعبرون لنلتقي على أرضية «عقلانية» مشترَكة، ولا نطرحُ بمقتضى آداب العقلانية لُغَةَ السِّجالِ لنُلاطِف حتى نُستلطَف.

إن الخروج من سراديب التعتيم «الثقافي»، ومن شعوذة السُّلطة المتمسلمة بالإسلام الرسمي، ومن جحور التعاطف والتآلف والتحالف في الظلام بين المعَتِّمين والمشعوذين، يقتضي منا الوضوح والتوضيح.

خَلُّونا من الهالة المصطَنعة حول هامة الديمقراطية المزيَّفة الرسمية، وخلّونا من أحلام الديمقراطيين المخلصين لصريح الديمقراطية، ذلك الصريحِ المليحِ في عين عُشاقه، المرغوبَ المطلوب، الممتنِع بعدُ في بلادنا.

وتعالوا نطرحْ في صفحات هذا الكتاب أسئلةَ الصدق على الشورى والديمقراطية، ونتأملْ ونحتكمْ إلى العقلِ المنصف. تعالوا نُنصفْ الديمقراطية: لا نغْمِطُها حقّها ولا نستهينُ بمزاياها. تعالوا ننظُرْ في حقيقة الشورى المطلوبة المرغوبة أيضا، الممتنِعة أيضا في بلادنا.

أيُهما أشبهُ أن يتبناها المسلمون والمسلمات في هذا البلد، وأيهما أجدر أن يتعبّأ لها وبها المسلمون والمسلمات.

متى يفهم بعضهم أن التصنيعَ، والتنمية، والحداثة، والعدل، والعلومَ، والقوة، وتماسُك المجتمع، وعزةَ المسلمين، ونجاح الأمة، ووحدةَ الأمة وفلاحَ الأمة في زمَن «عَوْلمة» السوق، وسيطرةِ الفكرِ التطبيعي مع اليهود الصهاينة، لن ينبُتَ شيء منها في بلاد المسلمين ما لم يتبَنَّ المسلمون والمسلمات هذه المطلوباتِ المرغوباتِ الممتنعةَ بوصفِها مقَوِّماتٍ تخدُم الإسلام، وبوصفِها وسائلَ لغاية الإسلام.

مطلوباتٌ للأمةِ هذا شرطُ فلاحها ونجاحها وبقائها وعزتها. مطلوباتٌ لا سبيل إليها إلا بتحولات عميقة في عقلِ المسلمين والمسلمات، وفي الذهنيات، وفي العادات، وفي الهيكلة الاجتماعية، وفي أنظمةِ الحكم والتعليم والقضاءِ، والعَمَلِ، وقسمةِ الأرزاق، وإنتاجِ الأرزاق، والمنافسة في السوق العالمية على الأرزاق، والتحرُّرِ من التبعية لدهاقنة العالم وفراعنتِه وقاروناته.

مطلوباتٌ للأمةِ تجرفُنا التحوُّلاتُ السريعةُ المتسارِعةُ بالدوَلِ بعيدا عن عمْقنا، طافِين على وجه الأحداث، إن لم نسع لتحقيقها.

مطلوباتٌ للأمة تُغْرَسُ بذورُهَا في أرضية الأمة -وهي الإسلام والإسلام وحده- وتُتَعهَّدُ وتُسقى بماءِ الثقة واليقين والصدق حتى تؤتي أُكْلَها.

مطلوبات للأمة لا سَبيلَ إليها إن لَم ترتبط في ضمير كل مسلم وعقيدتِه ونيته وعقله وعمله اليومي بصلاته وصيامه وزكاته وحجه ورغبته في جنة ربه.

مطلوبُ الشورَى -صريحِ الشورَى- ينهض من عُمْق إيمان المؤمنين وإسلام المسلمين، بَذرَةَ شجرة طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء. ثِمارها بركةٌ على الأمة لمَّا اكتنفَها في نباتها وبسوقها وإزهارها وإثمارها سياقُ ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[1].

تُسَمِّي نظامَ حكمك ما شئتَ، وتَخْرُج عن سياق القرآن والسنة وتستنبتُ نظاما «ديمقراطيا» تتناغَم بأحلامِه النخبة الحاكمة نفاقا، والنخبة المثقفة مِلاقاً وإملاقاً، فإذا بالنبتة وَهْم شجرة، وإذا بالثمرَةِ نواةً تُضَرِّسُ، وإذا بالليْث الديمقراطي هِرّاً مُقَلَّم الأظفار، أليفا يتحكك ويشخُر في حجر الحاكم.

من أسئِلة الصدق على الديمقراطية كما يتداوَل ذكر شَبَحها النخْبويون في زنزاناتهم الثقافية:

لَوْ برئَت الديمقراطية في بلادنا من دائها العُضال -التزويرِ وشراء الأصوات والرشوة والأوامر العليا إلخ- ولو أصبح الانتخاب نزيها، وأصبحت صناديق الاقتراع شيئا آخَر غيرَ خشَب لِخداع الأبصار، فهل تعبِّر الانتخابات -وقَد فرضناها نزيهةً- عن إرادة الشعب

(1) سورة الشورى، الآية: 38.

والشعب غير وَاع بحقوقه ولا هو يعتقِد وَلاءً لعملية فُرضَتْ عليه لا يعرفها من دينه، وساومه على صوته في سوقها تجار السياسة؟

ديمقراطية -هَبْها نزيهةً- وانتخاباتٌ لها قوانين. من يحترمُ القوانين ويؤيّد النزاهةَ والشعب قد دُرِّبَ بوصفه «رعية» على خرق القوانين والروَغان عنها وعن النزاهة بالرشوة والمحسوبية والحيلة والكذب؟

جِئْتَ الشعب بنظام ديمقراطي هو قمةُ ما وصلت إليه العقلانية الأوربية الأمريكية من تقنيات الحكم. التقنية عِلم الوسائل وعلم توزيع القُوى وتوازُنِها. ما جئتَ الشعبَ بعلم الغاية وهو شعب يؤمن بالله واليوم الآخر. لَو أقنعته أن الشورى دين فيه رضى الله لحرّرْتَه مِن وسوسة الروحِ اللاييكية التي تتقمص ديمقراطيتَك، ولحررتَه أيضا من أوهام ضللته قرونا، وعلمته المراوغة واللجوء للرشوة والمحسوبية لكي يستنقِذ حقه من الظالمين.

مَعْجونٌ في جِبلَّة الديمقراطية المستوردةِ مادة اللاّييكية اللادينية، مخلوطةٌ في مائِها.

روح الديمقراطية التي يُترجِم عنها تراجمة «فَوْقيون» يجهل زيدُهم وعَمْرُهم الدين، إنما هو رفض الرأي الآخر، خاصة إذا كان الرأي الآخر عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. والحمد لله رب العالمين.

سلا عصر السبت 24 من ذي القعدة 1416هـ

عبد السلام ياسين

الفصل الأول

سياق الشورى

- للشورى سياق
- ديمقراطية مُلصقة
- سياق الشورى
- إقامة الصلاة من إقامة الشورى
- مأخذنا الجوهري على الديمقراطية
- أعمال ومشاركة في البناء
- لا ينظر المنغمسون إلى ما بعد غد!
- «الأمر»
- الزكاة والإنفاق مما رزقنا الله
- الانتصار على البغي

للشورى سياق

للديمقراطيـة مسـاق، وبيئـة، وفلسـفة حيـاة، وثمـرة حيـاة، وغباء حياة.

وللشورى سياقُها وبيئتها، ومعنى حياة أهلها، وثمرة حياة أهلها، وموت أهلها. لا يَكنْ حديثنا وحوارنا حوار صُم. فإن المحاور من الفضلاء الديمقراطيين ينغمر في الثقافة العامة والخطاب العام، فإذا كل شيء عنده دنيا بلا آخرة، رأس بلا قلب، مَعاش بلا مَعاد. لاييكية هي الثقافة العامة والخطاب الديمقراطي.

اقرأ أخي الفاضل الديمقراطي ابتداء من الآية 36 من سورة الشورى في مصحفك.

اقرأ لترى من أي وهدة تاريخية، ووصمة عار على الجبين، وانحطاط خلقي، وتشرذم في الأقطار، ونكارةٍ في الدنيا وحقارة، يجب أن نستيقظ ونتطهر ونرتفع ونجتمع وننجمع ونتعزز لكي نسمو إلى مستوى السياق الحياتي والنظام الحياتي والقانون الخلقي والإيمان بالله واليوم الآخر الذي تنادينا إليه آيات سورة الشورى، ينادينا إليه القرآن، يدعونا إليه داعي الله.

ما سواءٌ مساق الديمقراطية وسياق الشورى.

ديمقراطية مُلصقة

إننا لا نستطيع التخلص بديمقراطية مُلْصقَةٍ من عقابيل الماضي، ولا الحياد عن تهديدات الثورة التكنولوجية الإعلامية المعلوماتية الساحبةِ

الإنسانَ في مسار دوابي، المغرقة الإنسان في طوفان الثقافة الأمريكية التي ضج منها أبناء العم الفرنسيون عندما طالبوا باستثناء ثقافي.

لا نستطيع ذلك ثورة آنيّة ورفضا ومسحا كما تمسح السبورة. الواقع المعاكس لطموحاتنا متجذر في العالم، متسرب في النفوس والعقول متحكم فيها. وما كانت الطفَرات والانتفاضات ذات مغزىً مستمر في التاريخ. من حاولوا اغتصاب التاريخ وطيّ المراحل بعنف آلُوا إلى ما نشاهد من دَكٍّ صروحٍ ظن الناس زمنا أنها خالدة.

اقرأ في مصحفك أخي سياق الشورى لترى المسافة الفاصلة بين ما يصْبو إليه المؤمنون من صلاح للحكم وبين الحال. اقرأ وتَبَصّر وتعقّل لتقيس المدى السحيق بين المساق الديمقراطي والسياق الشوري. لِنَقُلْ: بين المناخ النفسي الفكري الخلقي الاجتماعي للنظامين. فإنك إن لم تقِس ولم تتبصر وتتعقل توشك أن تُلْصِق على حال شعب نظاما إن كان مألوفا مفهوما -ولو نظريا- لدى النخبة من «الأعلين» فهو طارئ غريب على شعب أمي كذبوا عليه زمنا وساقوه إلى صناديق الاقتراع الديمقراطي ليمارس طقوسا شكلية اكتشف من صراخ المعارضة ومن ملاحظة النتائج أنها لعبة زور ومطية بهتان وسلم يتسلق عليه السياسيون المحترفون.

ذلك حال الديمقراطية الـمُلصقة، وتنافر مناخ الشعب معها، وملَلُه من ألاعيبها.

يقول القائل: يتغير الأمر لو كان المشرفون على تطبيق الديمقراطية مخلصين لا يزوِّرون. ونجيب ببداهة متعجبة: متى كان نظام الحكم ممنوحا يُشرف عليه مشرفون هم بمعزل عن القاعدة «السفلى» تفكيرا وشعورا ونمطَ عيش؟ فالـمَدخلُ زور من أساسه، والصفقة غبن. ونجيب بأن الأمر يختلف حقا متى تطابق طموح الشعب مع نظام

الحكم، ونبع النظام من بين أصابع الشعب، وتوَلّى النظامَ وهيأ مُناخه وسياقه خَدَمةٌ لقضية كبرى يقدسها الشعب. وليس إلا الإسلام كُلَّه، الإسلام وحده.

فنقرأ معاً آيات سورة الشورى لنقيس المسافة الواسعة التي تفصل بين حال نرثها غدا بعد الطوفان وبين المطلوب مِن نوعية أخلاق، وسلوك، وإيمان، وصدق، وجد في العمل، وعلم بالعمل، ووفاء بالعهود، واحترام للحق، وولاء مخلص لله ورسوله، وولاية بين المؤمنين، وارتفاع عن سفاسف الدنيا وبَهْرَجها ليكون طلب ما عند الله وطلب وجه الله هما الباعث والغاية.

مسافة تقطع، وهمم ترتفع، ومناخ يتغير، بتربية تتقمصها روح المسجد، لينتقل المسلمون والمسلمات من الأعرابية التي لما يدخل الإيمان في قلوبها إلى إيمان يكتمل.

سياق الشورى

السياق الذي يندرج فيه حكم الشورى، كما بسطه الله عز وجل لنا في سورة الشورى، يسير على منهاجه مؤمنون ومؤمنات:

1. أيقنوا بعد أن دخل الإيمان في قلوبهم، واستَقر وتوطّن، أنّ ما يؤتاه الإنسان في الحياة الدنيا إنْ هو إلا متاعٌ، رحلةٌ موقوتة، بعدها موت، وبعد الموت حياة.

2. أيقنوا أن ما عند الله في الدار الآخرة خير وأبقى. واليقين لا يتولد من التعقّل الاستدلالي الذي يهدي من وفقه الله إلى اعتقاد أنه لا بد للصَّنعة من صانع، وأن وجود الخالق واجب حتم. يرفض هذا العقل المستدل الموفق أن يتصور أنَّ الإحكام المذهل في نظام الكون

ما هو إلا نتيجة صدفة أو سلسلة صدفات تتابعت على مدى بضعة ملايير من السنين.

الاعتقاد الاستدلالي خطوة نحو الإيمان. ما هو الإيمان حتى يخضع العقل المستدل لما جاء به الوحي. ومعنى الإسلام الخضوع والاستسلام. فإن خضع للوحي لا يُعرف خُضوعه إلا بالامتثال لما فرض الله على عباده المؤمنين. وبذلك ينخرط المسلم العاقل المستدل في أمة المؤمنين الذين يَعنيهم حكم الشورى، ويناط بهم حكم الشورى ويتكون من ولائهم لله ورسوله ووَلايتهم فيما بينهم سياق الشورى.

3. أيقنوا، وآمن معهم الوافد العاقل المستدل بعد أن ربط الرأس بالقلب والاستدلال العقلي بالضرورة الفطرية، أن ما عند الله من خير في الدار الآخرة يناله المتوكلون على الله. وهم العاملون المجاهدون بترتيب الأسباب التي وضعها الله في الكون، وبإعداد الأسباب، وبالإقدام على المهامّ الفردية والجماعية بثقة في نصر الله، تتجاوز نتائج جهودهم نطاق الأسباب.

4. كفُّوا عن الآثام والموبقات والفواحش. فهم متطهرون، إن ارتكبوا صغيرة من الذنوب استغفروا، فكان استغفارهم رجوعا إلى الله ودليلا على الثقة في رحمة الله. لكنهم يتحاشون كبائر الإثم، ويتعاونون على حصار الآثمين، يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر. وذلك مُناخ أخلاقي تتعبأ فيه قوى كل المؤمنين والمؤمنات ليشاركوا في الحياة العامة، ويعتبرون قضايا الحكم من قضايا الدين، والمشاركة المخلصة في إقامة حكم شوريّ نظيف قُرْبَة وعبادة.

5. مَلَكوا زمام أنفسهم. فلا يَستفزهم الغضب الفردي على تصرف ظالم. ولا يستفزهم الهِياجُ السياسي على إيقاد الفتن العنيفة على المسلمين. ما بين العنف الغاضب الهدام والقوة المطمئنة البانية

المتّئدة هو ما بين الثورة الرافضة الكاسرة والاقتراح المعبِّئ للجهود، المتسلل إلى القلوب حتى يستَأْلِفَها، وإلى العقول حتى يقنعها، وإلى القوة المتناثرة حتى يصنع منها آلة بناء وسفينة نجاة.

6. استجابوا لربهم استجابة كاملة متوكلة. فهم يعبدونه في الصلاة والزكاة فرضا، وفي فعل المعروف والأمر به واجتناب المنكر والنهي عنه ومنعه شرطا، وفي التطوُّع الإحساني وبذل الخير فضيلة ونفْلا.

ما هم بالقاعدين الـمُخَلّفين السلبيين المتفرجين على ما يجري في الحي والمدينة والقطر والعالم. لهم قضية مع الله، لهم حاجة إلى الله، فهم يرعون قضيتهم الأخروية بالجهاد الدائم، والاستجابة الكلية، والسعي الدائب لتكون كلمة الله هي العليا.

إن كان المناضل المتحزب والمثقف الملتزم ينبعثان بحمية وطنية ومروءة وغيرة إنسانية، فباعث العاملين في السياق الشوري ينبثق عن نوع آخر من العلاقات.

المناضل الحزبي والمثقف الملتزم يحاوران «الآخر» السياسي و«الآخر» الإديولوجي في قضايا يجد كل منهما فيها الفرصة لإثبات ذاته، وإفحام خصمه، وبيان فضيلته الانفتاحية، لأنه حاور ولم ينغلق، ولم يجحد حق «آخره» الحميم في الوجود والتعبير.

بينما المستجيب لله يجد معناه ومغناه ومجال إثبات قيمته في علاقته بربه. عبد سمع النداء فاستجاب، تُليت عليه آيات الله فسمع، بيَّن له النبيء الرسول كيف يعبد ربه فاتبع.

لبّى المناضل داعي شهامته ومروءته واقتناعه، أو داعي مصلحته وباعث رغبته في التميز وإثبات الذات تُجاه الآخر، أو مع الآخر، أو معارضة للآخر. فحسابه دنيا، وعمله دنيا، وجزاؤه المرجو دنيا.

ولبّى المستجيب لله نداء فطرته، أيقظتها صحبة مربية، وتوجيه والدين، ومناخ وسط اجتماعي ، وتأثير بيئة. نداء الفطرة أيقظه الدين المبعوث به الرسل عليهم السلام، وسدد خطوات المستجيب الوحي. ربما كان العقل المتفكر في آيات الله بشير يقظة وتباشير فجر. ولا اكتمال لإيمان الاستدلال العقلي إلا باستنارته بنور الوحي. فلئن دل العقل المتفكر على وجود خالق صانعِ صَنْعَةٍ فمن أين له، لولا الوحي والنبوءة والرسالة، يصدق ويتبع، العلـمُ بالمصير بعد الموت. ومن أين له العلم بالآخرة، ومن أين له العلم بما ينجي من عذاب الله، وما يحصل ثواب الله، وما يقرب إلى الله زلفى في دار النعيم ومقعد الصدق؟

أكثرُ ما يستجيب المسلمون خوفا وطمعا. خوفا من عذاب الله كما وصف القرآن العزيز أسباب الشقاء الأبدي، وفصَّل ألْوان العذاب والعقاب، ودَركات العذاب والعقاب، وزبانية العذاب والعقاب، وخلود الأشقياء الجاحدين الكافرين في دار العذاب والعقاب.

خوفا يستجيب أكثر المسلمين وطمعا في نيل رضى الله، والخلود في جنة أُعِدّت للمتقين، وصف القرآن الكريم رياض نعيمها، وجنات جزائها، وحبورَ ساكنيها.

أما المؤمنون المحسنون فيعبدون الله تعالى خوف عقاب الله وطمعا في رضى الله، وتسمو بهم الهمة لطلب القرب من الله، والنظر إلى الرب الكريم يوم تكسو الوجوهَ السعيدة نضرة، ويغشاها نور، وتحييها الملائكة، وتنصب لها المنابر في حظيرة يُسقَون فيها كأسا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا.

تسمو بالمؤمنين والمؤمنات همم عالية إلى طلب وجه الله، وإرادة وجه الله، والعمل الصالح المقرب إلى الله. فاستجابتهم سيْر على

الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا.

فعمل المستجيب بناء لآخرته، وقيمته عند نفسه مقامه الأخروي عند الله، وجزاؤه المرجوّ ما عند الله، وذخيرته التعويل على فضل الله توكلا على الله وثقة بالله وجهادا في سبيل الله.

إقامة الصلاة من إقامة الشورى

7. لا يمكن أن نتحدث عن الديمقراطية والشورى، وهل هذه عين تلك أو عديلتها أو نظيرتها، دون أن نتحدث عن الإنسان الفاعل لتلك وهذه، وعن بواعثه، وخوفه، ورجائه، ومطمحه، وأخلاقه، وضوابط حركته في الدنيا.

فالديمقراطية والشورى وكل عمل مشترك ونظام حكم إنما هي ما يعمله الناس، وما يفكره الناس، وما يتاح للناس أن يعملوا ويختاروا وينجزوا في حدود ظروفهم، في حدود الذهنية السائدة بينهم قبل كل شيء. وما فصلنا روافد ذهنية المناضل ومصادرها ومواردها إلا لنؤكد على الخلاف الجوهري بين الفاعل والفاعل، بين الديمقراطي اللاييكي لزوما ونشأة وعادة ونمط تفكير (في انتظار من يقنعنا بخطئنا) وبين المستجيب لربه الذي لا ينبغي له ولا ينبت في أرضه إلا شورى في سياقها، وبشروطها وبنودها وخصال فاعلها.

الخصلة السابعة في السياق إقامة الصلاة. الصلاة عماد الدين. الصلاة صلة العبد بربه، الموقوتة خمس مرات في اليوم والليلة. إقامتها إقامة لفسطاط الدين، وطرحُها واطِّراحها هدم للدين.

لئن كانت الشروط الستة السابقة من سياق الشورى أكثرها مما تخفيه الصدور من عدم الاغترار بالدنيا، وطلب ما عند الله في دار البقاء، والإيمان، والتوكل، فإن الصلاة عمل ذو أركان ظاهرة تؤدى المفروضة منها على ملإٍ من الناس في المسجد.

يمكن للمنافق في الشورى، الـمُدَلِّس في سياقها، أن يغشى مساجد الله ويركع مع الراكعين فيما يُبدى للناس. ويمكن للديمقراطي المنافق في الديمقراطية أن يحافظ على بعض شكليات الديمقراطية ليختان فيما تقتضيه الديمقراطية من نزاهة، ومشاركة واعية، وأمانة، ووفاء بالوعود.

نفاق بنفاق. ويفتضح المنافق في الصلاة برداءة أخلاقه وخيانة أمانته، كما ينفضح منافق الديمقراطية بتزويره وخيانة أمانته، ورداءة أدائه. فإن «تخليق» الديمقراطية مطلب مُكمّل، ليس شرطا أساسيا كما هي الأخلاق الإيمانية في سياق الشورى.

أقص عليك، أخي الفاضل الديمقراطي، قصة واقعية تثبت إلى أي حد تنفر الديمقراطية من كل دين لا يلزم ما حُدّ له. أرادني بعض الفضلاء أن لا أعتبر اللاييكية عدوة للدين، بينْما هي مجانبة للدين ورفع للدين إلى مكان الشرف بعيدا عن المهاترات السياسية.

المعتبر عند العقلاء النتائج العملية لا الأسماء والتعريفات النظرية. والقصة التي أسوقها إليك تفصح عن النفور في نفوس الديمقراطيين من إدخال الدين في السياسة وتلويثه بها.

زرْنا في بعض ليالي رمضان منذ ست عشرة سنة فاضلا مناضلا بارزا في السياسة المغربية. لا أظنه إلا مصليا مؤمنا. فلما تحاورنا معه مَلِيّا واحتدم النقاش سألته فجأة: هل تصلي؟ فجفل الرجل من سؤال لم يتوقعه، ولا يُتوقع مثله في حوار سياسي.

وردّ الردّ اللاييكي الجاهز: وما دخل الصلاة في حوار سياسي! الصلاة شأن خاص. وزرنا الرجل الليلة التالية فوجدناه قد بدل لهجة الخطاب. لعله لفضله وذكائه وحنكته، ولصدقه فيما أحسِبُ، قَدَّر الموقف قدره، وأعطى للعقلية المخالِفَة التي كان يحاورها حقّها أن تُخاطب بلغة هي الجامع بين المغاربة. ألا وهي لغة الدين. وما عاد ذكر الصلاة ومن يصلي ومن لا يصلي كلمة دخيلة في جلستنا تلك.

أهم شأن في الحياة اليومية للمؤمن الصلاة. عالَمه الباطني، وفكرته، ومخاطبته لنفسه، وتقليبه لخفايا ضميره، يسيطر عليها ذكر الله، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ليناجي الله، ويستغفر الله، ويسبح الله، ويطلب إلى الله الطلب الدائم المتكرر: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ما هو أهم شأن في الحياة اليومية للديمقراطي؟ ماذا يسيطر على عالمه الباطني، وفكرته، وضميره؟

تختلف الذهنية والنفسية ودرجة الإيمان فتختلف الاهتمامات، والأولويات، والنظرة إلى النفس، والعالم، والناس، والموت، والحياة.

قد يكون الديمقراطي مسلما مصليا، بل مؤمنا يعمل الصالحات ويرجو رحمة ربه. لكن صلاته «دين» لا علاقة له عند نفسه بنضاله السياسي. قرون مضت منذ نُقضت عُرا الإسلام فأصبحت الشؤون الخاصة كالصلاة معزولة عن الشؤون العامة ورأسها الحكم.

لا تدخل الصلاة الفرْدية، «الـمُؤَلْيَكَةُ» بفعل نقض العرا المزمن أو بالذهاب في المساق الديقراطي، في حساب تقييم الناس ومعادلة أهليتهم السياسية. الناس مواطنون، والمواطنة مساكنة في بقعة أرضية، ومشاركة في تاريخ وتراث وثقافة. والدين شأن خاص. تنمحي شيئا

فشيئا نظرة التقدير التي كانت تحيط بالمتدينين. تنمحي، بل يستهان بها، ليعَوّضَ التدين والصلاة قيم أخرى.

التحرر من النظرة الدونِ التي يلقيها المغربون على رواد المسجد هو تحرر من مخلَّفات الإعجاب بالرجل العصري الفرنسي الإسباني الذي سكن الوطن زمانا، فلما انْسحب جسما بقيت روحه وعقليته ساكنين فينا، في بعضنا، المنساق لا يزال، المنهزم نفسا، المقلِّد لغالبِ أمسِ الاستعمار وحاضر القوة والثروة والعلوم والمخترعات. منهزم مقلد بحكم قانون تقليد المغلوب للغالب.

التحرر من نظرة الدون للمصلين بداية رفض المساق الذي حُشِرْنا فيها والتطلع إلى سياق إيماني خلقي الصلاة معلمة عظمى من معالمه، هو سياق الشورى وحكم الشورى.

مأْخذنا الجوهري على الديمقراطية

لا نستطيع طي المسافات، ولا مقاومة الضغط السيطري للقيم الحضارية الغربية العاوية الهاوية، إلا بتربية إيمانية تستهدف أجيالا راجعة إلى فطرتها. تربية تخلصنا من عقدة الدونية أمام العقل المعاشي المخترع الذي يزعم بمنطق «علمي» أن الإنسان استثناء في هذا الكون. إن كان كل ما في الكون له معنى ومنفعة فالإنسان وحدهُ على رأس الخليقة آلة للذة ومُرَكب للمتعة، لا معنى له ولا منفعة وراء ذلك.

كما لا يمكن أن نتحدث عن الديمقراطية دون أن نتتبع منابتها ومعاقلها ومعاقدها بالعقل والعقلنة، فالديمقراطية عقلنة للحكم، كذلك لا يمكن أن نتحدث عن الشورى دون النظر في منابتها

ومعاقلها ومعاقدها بالإيمان والصلاة، إذ الشورى حكم يقيمه المؤمنون المصلون كما يقيم الديمقراطية عقلاء مواطنون صالحون.

الديمقراطية عقلنة للحكم، وحكمة إنسانية، وزبدةُ تجربة، وما شئت من فضائل حقيقية أو وهمية. كنا نبحث، ونحن في الحوار والمطارحة النظرية، عن عيوب الديمقراطية (وإن لها لعيوبا وعاهات) لولا أن مأخذنا عليها الجوهري ليس من كونها عقلنة للحكم في حاجة لاستكمال، وحكمة إنسانية تشينها الأخطاء اللازمة لكل اجتهاد بشري، وزبدة تجربة جرت وقائعها في مناخ اجتماعي تاريخي غير مجتمعنا وتاريخنا، فهي لذلك نبتة غريبة أنّى لها أن تستنبت في أرض غير أرضها.

مأخذنا الجوهري على الديمقراطية ليس من قبيل الكيف لكن من قبيل المعنى. الديمقراطية -لمن لم يتخذها وصفة جاهزة تستنسخ- هي خير ما وصل إليه الغرب لكيلا يتظالم الناس، ولكيلا تهضم حقوق الناس. نغض الطرف هنا عن فعل الديمقراطية الغربية بحقوق الإنسان في العالم. فذكر ذلك مما يُدمي القلوب. أكتب هذا وبالأمس ارتكب الصرب مجازر جديدة في سِرِنبرنتسا ومدينة جيفا محاصرة، يقنبلها النصارى الصرب الغربيون «الإنسان» ويُبِيدُونَ المسلمين البوشناق، لا تسكب الديمقراطية الغربية إلا دموع التماسيح، راضية في الصميم عن بطش من ينوب عنها في إبادة نبتة وَقِحة تعلن أنها مسلمة في قلب مهد الحضارة والديمقراطية: أوربا.

مأخذنا الجوهري على الديمقراطية أنها فكرة وحكمة وعقلنة هدفها أن يعيش الإنسان -بعض بني الإنسان- حياة ذكية رَخيّة. مأخذنا عليها أنها لا تقترح على الإنسان مخرجا من الكفر، وهو الظلم الأكبر، فتُبيح ديانتها أن يموت الإنسان غبيا لا يعرف ما ينتظره

بعد الموت. تبيح ديانتها ذلك وتسكت عنه لأنها عقلنة رأسٍ مدبِّرٍ لشؤون الدنيا تدبيرَ المستكبرين في الأرض، مدبِرٍ معرضٍ عن الله، جاهلٍ جاحدٍ.

لولا الله والدار الآخرة ومستلزمات السياق الشوري الذي سردنا منه سبعة بنود، لكانت الديمقراطية التي تنظم للمحظوظين اقتصادا لبراليا يتيح الرخاء والترف والمتعة واللذة والصحة والسكن ورغد العيش هي مفتاح جنة الأرض. لا حرجَ -والتقدير غَبِيٌّ يقول: لا إله ولا آخرة- أن تكون الأرض جحيما على ثمانين في المائة من بني الإنسان، محرومين بؤساء، عزاؤهم وسَلوتُهم أن هنالك مطمعا يوما ما في اللحاق بالركب الحضاري، وإقامة ديمقراطية هي كلمة الإنسان للإنسان، ومفتاح النعيم.

لا يخطر ببال المحروم البائس الجائع الجاهل أن يتفرغَ لحظة، وزمنه مرهون بالكدح في أوحالِ التخلف، ليبحث عن خلاصٍ من الموتة الغبية، موتة من خرج من الدنيا ولم يعرف ما ينتظره، ولم يعرف من خلقه، ولم يعرف ما يُسعده عند الله.

كاد الفقر أن يكون كفرا. كلمة مأثورة، بل حديث نبوي، يشير إلى مكمن الإغْرَاء الذي يقع فيه المتطلعون إلى تنمية ورخاء، وإلى ديمقراطية لبرالية معابدها السوق والبُرصة والبنك، وصلاتها الاستثمار والاستعمال الأليق للتكنولوجية الأليق. وهي وحدها، لا غيرها منذ سقوط الاشتراكية، الدواء للمريض بأمراض التخلف، يحمِلُها ويلخصها مرض غياب الديمقراطية.

تُخْرِجُ البائس المحروم الجائع الجاهل، وتخرِجُ معه المناضل الفاضل الديمقراطي -ولو كان مصليا تلك الصلاة- من نسق إلى نسق، من

جو إلى جو، من ذهنية إلى ذهنية. ما ذكر الصلاة ونحن بصدد الحوار في نظام حكم؟

أوحوْا إلينا منذ طلائع الاستعمار الاستحمار فتلقيْنا، وعلمونا فتعلمنا، ثم استأنسنا، وتبنينا، وتعصبنا لآراء معلمينا. ويُعْلموننا بطوفان معلوماتي رقمي مُنْصَبٍّ من السماء بميازيب المقعرات عِلْمَ ما يجري في العالم، وما يُحَبّ فيه، وما يزحف. يُعْلمنا كلُّ ذلك بانتهاء عصور الصلاة والإيمان، وحضور قوة شاهَدْنا بَرْقَ صواعقها على العراق، وبَأس المدللين من صربها على سِرِبْرِنِتْسَا، وعربدة وكلائها اليهود على العرب الفلسطينيين.

المصلون ضُعف وهزيمة، والديمقراطية قوة وبأس وعزة وكرامة.

الصلاة لا تضمن الخبز اليومي والعمل والكرامة وشرط كل ذلك وهو التنمية. فما الحديث عن الصلاة في الحوار الديمقراطي المنْصَبِّ اهتمامه على تدبير شؤون الحياة إلا هُراء في منطق المتدينين بدين الديمقراطية/ اللاييكية.

التنمية مطلب حيوي والعَوَز عقبة. الرخاء الاقتصادي هدف والديمقراطية وحليفتها اللبرالية الاقتصادية وسيلة ضرورية. ففيم الهروب إلى الغيبيات؟

إن لدى الفضلاء الديمقراطيين رواسب وطنية، قومية، إديولوجية، وخليطا ثقافيا تتغالب فيه الأصالة والمعاصرة نزَعاتٍ وطموحات وتقليدات وتأثّرات بالأحداث الفاجعة. لدى بعض الناس انفصام في الشخصية وتقابُل لا يخلص إلى جهة ولا يلتزم بمنهجية. لذلك يرى بعض الناس أن لا علاقة ممكنةً بين الصلاة واختيار نظام الحكم.

انفصام وتقابل ورواسب. فنحن عرب، بربر، ترك، أكراد، مواطنون، وطنيون. مسلمون، قوميون، اشتراكيون، ديمقراطيون. ما يجمع كل هذا، وما يوحده في الوعي، ويؤصله في السلوك؟

تجمع في السياق الإسلامي -ونظامه الشوري- الصلاة. الصلاة أداء لمراسيم العبودية لله الواحد الأحد.

وفي الديمقراطية وتعددها وذكائها وانفتاحها، إلخ، جامع آخر ومؤصل آخر، نرجع إليه بعد حين إن شاء الله في تفصيلنا للمساق الإنساني وأحسن صور نظامه الديمقراطية.

يعترض الفاضل الديمقراطي محتجا بما يفعله المصلون في أفغانستان وغير أفغانستان، وفي تاريخ المسلمين الذي سفكت فيه دماء المسلمين بسيوف المسلمين أكثر مما سفكت بأسلحة غيرهم.

نزلنا إذاً من المِثال القرآني والهدي النبوي إلى حقائق الأرض لنجد أن المسلمين المصلين درجات، وأن من المسلمين من لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، وأن الصلاة الفردية «الـمُؤليكة» المفصولة عن الأمر العام بموجب نقض عرا الإسلام، إن كانت تشبه شكلا الصلاة الكاملة الرافعة من مكانها الوسَطِيِّ ومكانتها الرفيعة فُسْطاط الدين، فهي لا تحيى بحياة الخشوع والخضوع والطاعة لله ورسوله وأولي الأمر منا.

وأضع سطرا تنبيهيا تمييزيا على كلمة منا: منا.

انقض الساطون على الحكم من بني أمية فأطاعوا العصبية القبلية، ومشوا في ركب حب الدنيا، والغفلة عن الآخرة، وضحالة الإيمان، والاتكال على العنف والقوة والحيلة والكذب بدل التوكل على الله.

لم يجتنبوا كبائر الإثم والفواحش بل ارتكبوها جهارا ومحادَّة واستفزازا وتحديا لمشاعر المسلمين. ولم يُحركهم في مجازرهم وفتكهم بالحسين بن علي رضي الله عنهما إلا الغضب المنتقم الفظيع. لم يستجيبوا لله ربهم بل استجابوا للنعرة الجاهلية.

لا جرم تكون صلاة من صلى منهم نسخة مزيفة من الصلاة المطلوبة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزَّيْفُ لا يكون عماداً لفسطاط دين الآحاد ودين الجماعة، ولا يكون بحق أحد بنود سياق الشورى.

لم تكن محطات السياق الشوري، الذي نحن بصدد ترتيبه، التزامات صادقة. فتقلصت الصلاة من معناها القرآني، وتزحلقت من سلك المنظومة الشورية، وكان الحكم عضا لا شورى، وامتسخت الشورى وشوشة ووسوسة تحت ظل السيف الذي أعلن أنصار الأموية منذ ميلادها قانونه الرهيب: من قال برأسه هكذا قلنا له بسيفنا هكذا.

أعمال ومشاركة في البناء

8. ونصل إلى البند الثامن في السياق الشوري بعد أن فهمنا البنود السبعة السابقة على أنها اختيار حياتي والتزام بين ذمم مسؤولة في موقف أخروي تؤمن به، بل توقن، وتتهيأ، ويعمل المؤمن والمؤمنة في أداءِ واجباته فردا وواجباته العامة استعدادا ليوم لا ريب فيه. ذلك اليوم وموقفي فيه أمام الخالق الدّيان سبحانه هو أمر حياتي. أي أهم شأن من شؤونها. الأمر في العربية هو الشأن الـمُهم.

هذا الأمر، والمراقبة الحذرة لكيلا أزيغ عنه، يقتضي مني أعمالا واعتقادا ومشاركة. هذا الأمر عندما يؤذن المؤذن للصلاة هو أن أخِفَّ إلى المسجد لألبِّي داعي الله. هذا الأمر يُذكرني بالله

وبالآخرة الباقية وما عند الله فيها. يضع شؤون الحياة الدنيا في موضع نِسبيٍ كما يوضع المتاع الذي يتخذ وسيلة لهدف أسمى. يقوي ثقتي بالله فأتوكل على الله عملا دائبا صالحا بمعيار الإيمان والتقوى. يخوفني عقاب ربي فأجتنب كبائر الإثم والفواحش، وأستغفر الله وأكفر عن ذنبي في الفلتات. يعطيني من الطمأنينة والصبر ما أزم به غضبيّتي إن ثارت، فأغفر وأصفح وأكون رحمة للناس لا نقمة عليهم.

هذا الأمر العظيم، مصيري إلى الله ومقامي عند الله يهيمن على سلوكي فلا أتحرك إلا استجابة لربي، وبنيّة صالحة مخلصة، وباستقامة على ما أمر الله ونهى. بنيات صالحات لا بأمنيات طامحات.

هذا الأمر في شؤون الحكم يسمى شورى.

بُني نظام الحكم الإسلامي القرآني على مقدمات سبع، تكون الشورى قبة البناء. فإذا بنيت بناء ما وسميته إسلاما وهو شكل فارغ، ومسرح ونفاق، ثم وضعت على قمته قبة سميتها شورى، فأنت في مسرح ونفاق أساسا ونهاية. قاعدة وقمة.

إن رجلا حلب الدهر أشطُرَه مثلَك أخي المناضل الديمقراطي المثقف يدرك بتجربته وبحوثه العلمية أن التغيير، الذي تستهلك الأحزاب السياسية قاموسه، إن هو إلا سباحة لفظية في فضاء رحب يتنفس السياسيون هواءه.

إن تكلمت عن البناء الإسلامي، وعن سياق الشورى، فلكي أنظر إلى مستقبل ضرورته إعادة تربية أنفسنا، وإعادة تربية أجيال.

استعملت عبارة ملطخة بفظائع «إعادة التربية» في جولاج ستالين وحقول ماو.

الإسلام بشرى للإنسان، واختيار لا إكراه فيه، ورفق وحنان على الإنسان ورحمة. وكل هذا يطلب تأنيا وطول نفس ومثابرة.

لا ينظر المنغمسون إلى ما بعد غد!

لا يحسِبْ الفضلاء الديمقراطيون الأذكياء أننا من الغباء بحيث نعُد التّصديَ للحكم في الظروف الحالية للأمة نزهة مُريحة أو غنْماً يتسابق إليه الإسلاميون السُّذج. الأحوال كارثية بشهادة من نصبوا للكوارث الأثافي وأوقدوا النار وطبخوا العلقم.

فلا مناص للمخلصين من أبناء الأمة وبناتها أن يصيروا إلى تفاهم لمعالجة ما يرثه الأبناء والبنات بعد الطوفان من حطام كارثي.

دعونا في كتاب «حوار مع الفضلاء الديمقراطيين» إلى ميثاق إسلامي يدخل فيه الصادقون اقتناعا لأن الإسلام هو الجامع لا الوهم التاريخي المبثوث الذي يحاول الحكام أن يجعلوا منه المقدّس الأعظم.

ما فهمني كثيرون يعيشون الفترة الراهنة منغمسين في الهموم السياسية للساعة، من قبيل التداول على السلطة، وتقوية معارضة برلمانية، والتنديد بالتزييف الانتخابي، والمطالبة بمراجعة الدستور.

لا ينظر المنغمسون إلى ما بعد غد، ولا يتوقعون. لذلك تفوتهم فرصة بناء جسور مع المستقبل. أستغفر الله، بل يفوتهم اتخاذ عهد مع الله. لذلك يأنفون وتأخذهم الحمية أنْ ذَكَرْتُ توبة تجمعنا وإياهم على كلمة سواء. بل رفض بعض كتبتهم رفضا واضحا اللقاء مع أيّ كان على أرضية إسلامية. نلتقي إذاً على ماذا؟ ويجمعنا ماذا؟

بعضهم لا يحب ولا يقدر أن ينفصل على مألوف تفكيره الركيك. ونحن عاجزون عن اصطناع خطاب ينحط بالكلمة العربية القرآنية المبينة رأفةً بمن لا يعرفون حقيقة العربية ومجازها، وبلاغتها وبيانها، وأساليب الخطاب العربي الإسلامي.

فاعجَبْ لأبناء أمة واحدة، وقطر واحد، يحتاجون لتراجمة يُفهمون بعضهم ما يقول بعض!

يجمعنا ماذا بعد تبخّر الأوهام التاريخية إن لم يجمعنا الإسلام؟ على أية أرضية نلتقي إن لم نلتق على أرضية الإسلام؟ إنها «القدّيسة لاييكية» التي علّمت أن السياسة أمن عام وتدبير معاش وصيغة للتساكن الحضاري والتداول على السلطة. ولا مدخل للدين في كل هذا. فرغ من تصفية أوهام الدين المفكرون فلاسفة الأنوار، وفرغ من تصفية الكهنوت الديني ثوار فرنسا منذ قرنين، الذين طبقوا أفكار فلاسفة الأنوار، وطردوا القساوسة.

المثقفون المبدعون المتحضرون سرعان ما ينقلون حكما تاريخيا نَقْلَ التلاميذ الأذكياء المرضيّين، فيسحبون كلمة «دين» على كل مؤسسة كنَسية، ويتمثلون في الدين -والدين عند الله الإسلام- الصورة التاريخية التي آلتْ إليها النصرانية الكاثوليكية التي نقضها فكرا وفلسفة أمثال روسو وفلتر ومنتسكيو، ونقضها بناءً ودعامة للحكم الثوار الفرنسيون منذ قرنين.

تلامذة الغرب الأذكياء جدا يقاتلون في معركة منقولة مسحوبة ثورة التّأليك ليفكوا رقاب الناس من ربقة التآمر «العلماني» الملكي الحاضر الشبيه المماثل للتآمر الكنسي الملكي على عهد لويس السادس عشر.

يُقاتلون في معركة التحرير التأليكية بنفس الاقتناع أن كل دين خرافة، وكنيسة تتجر في الأوهام، وتبيع صكوك الغفران، وتكذب على الناس.

لئن كان وضع التآمر المزمن بين علماء القصور وحكام القصور في زمننا شبيها ومثيلا من حيثُ التواطؤ بين الواعظ الرسمي والحاكم المطلق في فرنسا القرن الثاني عشر، فإن المثلية الكئيبة المتخلفة التابعة العاجزة فِكرا، واعتبارا بالتاريخ، وتمييزا بين مجتمع ومجتمع، ودين و«دين»، وعصر وعصر، لهي أشد اعتقالا وارتهانا لحاضرنا ومستقبلنا.

تقترح «القديسة لاييكية» المعصومة المترجمة حرفيا إقصاء الإسلام من ساحة الحكم كما أقصيت الكثلكة بفعل ثورة أمنا فرنسا.

لو كان لمثقفينا اللاييكين، المقتنعين بها المناضلين بالظفر والناب من أجل نصرها مُسْكة من تمييز، وبقية من صراحة مع الذات، وقدرة على مواجهة الذات، لأدركوا أن الفرنجة والفرنسة والإدمان على عصير فكري واحد يتجرعه دِهاقا المتفرنجون عقلا ولسانا، ويمتصه من أنابيب الترجمة المعرّبون، هو ما وضع على عيني الفكر غمّاضتين تمنعان من التمييز ومن الصراحة، وتَفُتّان في عَضُد العقل كلما صحا صحوة، فيمنعه الخوف من خرق الإجماع، وتمنعه هيبة فلسفة الأنوار، وهَدّة الثورة الفرنسية في التاريخ أن ينبس ببنْتِ شفة.

لو كان مثقفونا يرطنون بلغة غير الفرنسية، ويقرأون لكتاب غير فلاسفة فرنسا ومفكري فرنسا وروائيي فرنسا ومثقفي فرنسا الملتزمين، لعلموا أن معركة «التأليك» لا تُضرمها اليوم إلا الأم فرنسا الابنة البِكر للكنيسة قرونا، الثائرة على أمها منذ قرنين.

في أنجلترا دخلت الكنيسة تحت جناح الدولة منذ قرون. في ألمانيا لا يزال الألمانيون يؤدون ضرائب خاصة تمول الكنيسة. هناك لا توجد معركة تأليك ولن توجد. المثقفون المسلمون المشبعون بلغة غير اللغة الفرنسية لا تتأجج في صدورهم حُمَيّا الغضب على الدين، ولا حَمِيّة حرب إقصاء الدين.

استراح الناس خارج نطاق التأثير الثقافي الفرنسي وأراحوا. فيفهم الناس الديمقراطية فهما لا يحمل كل هذا العداء للدين. وتغلب عندنا الفرنجة، لذلك نتوجس خيفة من تَدليس المتَّجرين في الأوهام من الطبقة السياسية، ويتامى الإديولوجية الماركسية من المثقفين المتحولين على استحياء إلى دين الديمقراطية الجميلة الذكية المنفتحة، إلخ، طبْعا، اللاييكية شرطا ووُجوبا وبديهة.

«الأمر»

﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ جملة قرآنية تتوِّجُ في السياق الشوري سلوك المؤمنين الديني الذي يُرتِّب حياتهم في الدنيا والآخرة بنظام حكم هو من صميم الدين.

الأمر لغة، كما قلنا، الشأن المهم. الأمر مضاف إلى ضمير «هم». فمن هم هؤلاء الذين تستحق مشاوراتهم المنظمة أن يكون لها اعتبار الشأن المهم، بل الأهم؟ أهم كل جماعة من العقلاء تواضعوا على شكل معين ونظام معين لتسيير شؤونهم؟ أم يسقط الاعتبار في حساب الإسلام بسقوط الشروط في نفس المشاركين: مؤمنون هم؟ مستجيبون هم لربهم؟ مصلون هم؟ إلى آخر مفردات السياق. أم هم

مجرد عقلاء تواضعوا على نظام زمني لصوْن مصالح وإشاعة الأمن العام في المجتمع، وإيجاد الفرص للعيش الآمن الكريم؟

الاختلاف بين شورى على قواعد القرآن وديمقراطية على قواعد عقد اجتماعي اختلاف جوهري.

ما الشأن المهم الأهم في نفوس فاعلي الشورى وفاعلي الديمقراطية؟

«أمر» المؤمن القاعدي فوزه في الدار الآخرة، ومشاركته الفاعلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -أي في سياسة جماعة المسلمين- واجب يُلعن تاركه، ويقرب الوفاء به إلى الله زلفى.

«أمر» الديمقراطي القاعدي مواطنة يعتز بها، وحقوق مدنية، وحرية يضمنها القانون، وفرصة للعيش الكريم.

ماذا بين «أمر» هذا وهذا من توافق وتناقض؟

التوافق في حاجة كل منهما إلى كرامة هي الشغل والعيش الكريم. التوافق في التوق إلى الحرية وضمانة السلطان.

ويستقر التناقض في المطلب الجوهري، وبالتالي في المرجعية التشريعية والأهداف العليا.

توافق فيما يفتقر إليه البشر في حياتهم هذه وفيما يدبره العقل المعاشي.

وتناقض وتدابُر فيما وراء ذلك بين قلوب مؤمنة بالقرآن وأخرى زمنيّة التنظيم دهرية العقيدة، أو على الغالب ضبابية الولاء فاقدة الهوية.

ما هو «أمرهم» جماعة في هذا الفريق وذاك؟ ما هو الشأن الأهم؟ ضمير «هم» في جماعة المسلمين يشمَل الداخلين في الوَلاية العامة بين المؤمنين كما فصلها القرآن، وكما نقرأها في سياق سورة الشورى.

ضمير «هم» الديمقراطي يشير إلى مجتمع مدني، كائن بالفعل قائم، أو هو مطلب نضالي وأنشودة جميلة.

الرابطة إيمانية هنا، مدنية مواطنية هناك.

﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ تشير إلى تراضٍ عام بين مؤمنين، وإلى اندماج عاطفي قلبي إيماني. ثم إلى أمور وشؤون تابعة للغاية الأخروية يتشاور فيها، ويتراضى على الرأي الأسَدِّ.

أمرهم الديمقراطي يشير إلى اندماج سياسي، وإلى تراض يضمن الأمن والتعايش التعددي. ويتيح أيضا للأعْلَيْن في «المجتمع المدني» فرص التحرك الاجتماعي، وإثبات الذات، وتسلق السلم السلطوي. نضالاً أو تصالحاً. ومن شرط هذا الاندماج والتعايش التعددي وما معه من حُمولة سياسية أن يُترك الدين في بُرجه العاجي مبجّلا محترما، لا نلوث الدين بالسياسة.

أخي الفاضل الديمقراطي! لعل الـمُنْعرجات غير الأكاديمية في كتابتي يعيَى بها الحليم من العقلاء. ولعل تكريري لأوجه الكلام وتقليبَه تُمل المنطِق المألوف. لكن ما حيلتي إن كان بعضهم يقرأ بعض ما أكتب فيقول: إني عدو الديمقراطية ساخر بالديمقراطيين. ما حيلتي إلا أن أكرر وأقلب أوجه الكلام عل الناس يفهمون أن عدائي للكفر لا للديمقراطية، للخيانة العظمى التي يرتكبها تجار الأوهام السياسية من المثقفين حين يسكتون عن اللازمة الزمنية اللايكية للنظام الديمقراطي؟

أخي الفاضل الديمقراطي! ماذا أنت قائل غدا وما أنا قائل والوَلاية بين المؤمنين مزقتها الأحداث التاريخية، وأوهنها الجهل بالإسلام، وحرفها المتاجرون في الإسلام؟

ما العمل لتحقيق الانسجام المدني والاندماج السياسي اللذَيْنِ لا تكتمل ديمقراطية إلا بهما كما لا تكتمل شورى إلا في سياقها؟ ما العمل والناس في بلادنا في حيرة وانقسام منذ اليوم، وهم غدا أشد حيرة عندما تخر الأصنام والأوهام الجامعة إلى الأذقان؟

لا عمل أرجى إلا إخراج الناس من الغموض الفكري، بل التعتيم المبَرْمج، ومن الخوفين: خوف عواقب الكلمة المسؤولة، وخوفٍ آخَرَ هو أخزى وأضل سبيلا، خوف المثقف من خرق إجماع المندمجين المحترمين في الثقافة العالمية التي تقول بلسان واحد. لا دين إلا حقوق الإنسان، ولا خلاص إلا بالديمقراطية.

هل الديمقراطية كفر في حد ذاتها؟

هل الشورى مجرد انتخاب وبرلمان، بقطع النظر عن المتعاقدين القاعدين ؟

أمُرُّ سريعا لأنْهي بنود السياق، أو قل شروط العقد والعهد بين الله تعالى والمؤمنين. ثم أرجع إلى الديمقراطية لأستعرض معك بنودها وشروطها. فلعلَّ تتضحُ معالـمُ الصورتين، وأصول العقدين.

الزكاة والإنفاق مما رزقنا الله

9. الشرط التاسع في سياق الشورى هو الإنفاق مما رزقنا الله. هو الزكاة أساسا يكملها الإحسان إلى الناس وتكملها الصدقة. هو العدل في قسمة الأرزاق. هو التكافل الاجتماعي. ونرجع إلى الموضوع إن شاء الله.

الانتصار على البغي

10. الشرط العاشر في سياق الشورى يجمعنا مباشرة مع كل الأحرار الصادقين الفضلاء. وهو مقاومة البغي والظلم والتحكم في مصائرنا دون رضانا. هذه الخصلة الشريفة تجمعنا مع الفضلاء الديمقراطيين، وتصلحُ رباطا وثيقا، ومقدمة لاندماج المختلف، وانسجامه، وتعاونه.

خصلة شريفة واحدة مغروسة في نفوس كل الأحرار، من بين عشر خصال هي خصال السياق الشوري. فمهما كانت مرتبة الإباء وكراهية الظلم والظالمين ومقاومة البغي والباغين، فهي لا تعدو أن تكون في الحساب العددي جزءا من عشرة أجزاء. وهي بالحساب السياسي والمواقف النضالية مؤهل رئيسي لو كنا مجرد ديمقراطيين وطنيين مناضلين.

لكننا مسلمون، ما منّا مَن يتنازل سياسيا عن إسلاميته، وإن كان الكثيرون من الطبقة السياسية لا يرون أي تناقض بين تركك الصلاة وبين ادعائك الإسلام، ولا يرون حرجا في ارتكابك كبائر الإثم والفواحش باسم حرية لا ينكرها إسلامهم، ولا يعتبرون العمل على فكر مادي لاييكي منكرا من القول وزوراً وإن كان بعضهم يلبي نداء المؤذن للصلاة فينقرُها نقرا.

تزخر صفوف الفضلاء الديمقراطيين بأصناف الناس، جمعتهم عند منشَإ حزبهم وطنية وغيرة، كانت مسلمة وطنية، ثم أصبحت وطنية مسلمة، ثم تحولت وطنية ديمقراطية. تغير الناس، وفِكْرُ الناس، وولاء الناس، ومصالح الناس، حتى امْتَحَت الفواصل بين

الوطنية والإسلام والديمقراطية. فالناس خليط، والأفكار خليط. وتزخر الأحزاب الوطنية بمؤمنين مصلين خاشعين يعملون في نيتهم لصلاح آخرتهم، لا يخامرهم شك في سداد اختيارهم.

إليك أخي المؤمن المصلي الغريب في دنيا السياسة أكتب. ما أظنك إلا حريصا مثلي ومثلَ كل المؤمنين على أن يصلي فلان ويتوب فلان. اربَأْ بنفسك أن تكتهل وتموتَ في الطيش والطيران مع الفَراش السياسي.

الفصل الثاني

المساق الديمقراطي

- نظرتان إلى الديمقراطية
- الدولة القومية مَقَرّ الديمقراطية
- العقد الاجتماعي
- المجتمع المدني
- حقوق المواطنة
- سيادة الشعب
- الدستور وفصل السلط
- هذا الشكل، فما المضمون؟
- دولة القانون
- أحكام الشريعة
- الاجتهاد
- الحريات العامة
- الإعلام
- «تخليق» الديمقراطية
- الدنيا، لا غير!
- أخلاق إيمان وتربية إيمان
- لغة الحوار
- حقوق الإنسان
- استقلال ضيع الحقوق
- زعماء الدول القومية
- عِبَر التاريخ
- حقوقية لم يُبْرِمها المؤمنون
- النقد الذاتي

نظرتان إلى الديمقراطية

وقد فرغت من ترتيب شروط السياق الشوري لألتفت إلى المساق الديمقراطي، أنظر إليه من وجهين اثنين:

1. من اعتباره نظاما بشريا، لا شأن لي هنا بالتعقيب على نقائصه، ومن اعتباره ترتيبا عقلانيا لحياة المجتمع، ومن اعتباره تجربة بشرية خصبة راكمت آليات حكيمة لتسيير الدولة وتيسير التعايش السلمي بين الناس في مؤسسات مستقرة وتراضٍ عام.

2. ثم أنظر إليه إن شاء الله من زاوية الإنسان القاعدي في النظام الجاهل بالدين أو المتجاهل للدين، أو المهمش للدين. ما الدين «أمر» عنده إلا أن يكون شأنا خاصا يتعلق بما تحت التراب بعد الموت. وَرَدَ تراب على تُراب. دهرية لا تحب أن تتسمّى باسمها.

يبدو الحديث عن الإيمان والأخلاق والصلاة والآخرة والأسرة الحافظة للفطرة وسائر شروط السياق الشوري لغة لا تتناغم في سمع الديمقراطي مع كلمات: التنمية، التصنيع، التمويل، التشغيل، الاستثمار، والانتقال من حياة البادية إلى حياة الحاضرة، ومشاكل الفقر، وكارثة التعليم، وضرورات المنافسة العالمية وأضرارها، والآفات الصحية، والخراب البيئي، والسياسات الدولية، وشروط المؤسسات البنكية الدولية، إلخ...

كذلك يبدو الحديث عن كل هذه الأمور بمعزل عن لغة القرآن هذرا في سمع المؤمنين. يكتنف الغموض، ويكتنف خوف الناس المسألة من أطرافها، فتتعتم الأجواء، ويتحول الكلام إلى حوار صُم.

فهل تحتكر الديمقراطية العلم بما ينبغي أن يكون عليه الناس في عالم الكلمات العظمى في الحياة: التنمية، التصنيع، التمويل... إلخ.

أم أن حذق الديمقراطية وذكاءها وانفتاحها وخبرتها بالعالم وبما يضِجُّ فيه هي خصائص امتاز بها عقل معاشي طرحَ من حسابه كل أمر ما عدا شؤون الحياة الأرضية.

لعل من أهم خصائص الديمقراطية بصفتها ترتيبا عقلانيا لشؤون المجتمع، وبصفتها تجربة خصبة راكمت آليات عمل حكيمة، أنها انبنَتْ على مطلب بشري لا تتوق النفوس البشرية لأعزّ منه. فلِتألّقِ مطلب الحرية في أفق المطالب البشرية الغريزية، ولمعاناة الناس في بلاد المسلمين من انعدام الحرية تحت حكم هو تعريفا حجب للحرية، تكتسي اللفظة حلّة جمالية أسطورية، وتطن في الآذان طنينا خاصا، وتداعِب في الخيال المثقف آمالا عراضا.

فإذا نزلنا من سماء تعَشّقِ الممنوع، وبسطنا أمام العقل المؤمن هذه الغنيمة العظيمة من غنائم العقل المعاشي، هذه الزبدة الرائعة لتجارب أمم أوربا، وَوَزَنَّا الديمقراطية بمعيار إسلامي، وجدنا أنّها لا تغطي جوانب الحكمة العملية فيها قارَّة الجهل المخيف بالغاية التي جيء بالإنسان لتحقيقها في الحياة.

رأت الديمقراطية بثاقب نظرها أن المصير بعد الموت أسطورة اتَّجرتْ فيها الكنيسة قرونا. وعقلنة الحياة تتنافى مع الارتباط بالخرافات والنفاق الكنسي، ورأت الديمقراطية الحَصيفة النظر أن ضرورة التعايش مع أوهام الشعب تفرض الإبقاء في هوامش الحريات الشخصية على اختيار المواطن لدينه. لا شأن للدولة الديمقراطية (اللاييكية طبعا وأصلا حتى يقنعنا الفضلاء بخلاف ذلك) بالدين.

هكذا تبدو للعقل المؤمن حكمة الديمقراطية كما يلي:

الدولة القومية مَقَرّ الديمقراطية

1. الوحدة البشرية التنظيمية لديمقراطية ما هي الدولة القومية. تشكلت الدولة القومية وحَداتٍ في أوربا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. تشكلت هذه الوحدات تأكيدا وتقوية لكيانات تاريخية موحدة، مثل فرنسا وأنجلترا. أو تأسيسا لتجمع جديد مثل ألمانيا وإيطاليا.

الدولة القومية أرض يقطنها شعب أو تأليف شعوب رابطتها العرق أو اللغة أو المصلحة أو التاريخ.

الدولة القومية لها سلطة على الأرض والشعب، لها حكومة، لها اختصاص واحتكار لوسائل القمع.

ديمقراطيات أوربا في نهاية هذا القرن العشرين بتاريخ النصارى أدركت، وهي الذكية الحصيفة فعلا في شؤون الحياة، أن الدولة القومية الموروثة عن قرنين فاتها الركب. فهي عند العقلاء هناك صيغة لا يمكنها أن تعيش في عصر التكتلات العظمى. لذلك فهي تبحث عن صيغة جديدة للتوحيد والتوحد الضروريين للبقاء والرخاء اليوم وغدا.

وقد بلغت في بحثها عن وحدة وتوحد مراحل متقدمة.

بينما نجر نحن، العرب والمسلمين، الأرجل تقَفِّيا لِلآثار: أعظم مطالبنا دولة ديمقراطية قطرية قومية عرقية. أمجاد يا عرب أمجاد. وجرّب أبطالنا القوميون اتحادات كانت مهزلة الزمن.

العقد الاجتماعي

2. الناس في الدولة القومية الديمقراطية يربطهم، زيادة على العرق واللغة والمصلحة والتاريخ، عقد اجتماعي، كما صاغ الكلمة الفيلسوف الكاتب الشاعر الفرنسي روسو.

يتمثل هذا العقد الاجتماعي في أعراف وسوابق وحقوق منتزعة غير مكتوبة كما هو الحال في أنجلترا أم الديمقراطيات، أو في دستور مكتوب معقلن، تُكسبه مرونة المراجعة والإصلاح والتعديل خصائص الحياة، كما هو الحال في الديمقراطيات الحية.

هذه واحدة يلتقي فيها المطلب الديمقراطي بالمطلب الشوري: أن يرتبط الناس بعقد وعهد ليتصرف الناس على عِلم بما لكلٍّ وما عليه. الغموض والخوف حليفان: يأتي الحاكم بأمره فيرفع شعار «القرآن دستورنا» ليمارس تسلطه على هواه و«باجتهاده».

المجتمع المدني

3. التراضي على دستور وعقد اجتماعي لا يتأتى والناس فوضى وقطيع. فرُواد النضال السياسي، ومقاتلو حروب التحرير الوطنية، والنبهاء في الشعب، وقادة الرأي العام (ومنهم محترفون)، والتنظيمات القائمة في المجتمع من نقابات وجمعيات ومؤسسات خاصة، تكون ما يُسمّى بالمجتمع المدني.

«المجتمع المدني» قاعدة الديمقراطية، وأرضيتها، وقائمتها. «المجتمع المدني» كلمة سحرية هذه الأيام في بلاد الممنوعات

الممتنعات، كما هي «الديمقراطية» المفتاح السحري، والبلسم لكل الأمراض، والإكسير والسر العجيب.

لا تُخفي كلمتا «المجتمع المدني» مَحْتِدَها ومقصِدها: الناس يجمعهم التمدّن، والفهم الحضاري لضرورة التعايش.

فليكن التعايش السياسي الاقتصادي بواسطة أحزاب تعددية، تتعاقب على الحكم، وتتراضى على الحلول المثلى، وتؤطر الشعب، وتنوِّر له الطريق.

وليكن الاندماج السياسي المدني قبولا للرأي الآخر، واحتراما للآخر.

هذه مما يلتقي فيه المطلب الشوري مع شِقٍّ من المطلب الديمقراطي. كراهية البغي، ومقاومة الظلم والظالمين، وتحرير الناس من العبودية للناس والخنوع، تقتضي أن تكون القاعدة الحية للشعب حية أبِيّةً حُرّةً، لا رعية تابعة للحاكم، ساكتة، تنتظر ببلادة ما يقترحه «العبقري» على هرم السلطة، وما يأمر، وما يختار، وما به يجود.

بيد أن الشق الثاني للمعادلة ينافي أُسّاً من إساس الدولة الإسلامية. ذلك أن هذا المجتمع القاعدة ليس إلا مجتمعا مدنيا، تربطه فقط أهداف أرضية. وتربط المؤمنين في الدولة الإسلامية قبل كل مصلحة الوَلاية بين المؤمنين والمؤمنات. وهي دين. هي شرط في السياق الشوري، هي روحه.

حقوق المواطنة

4. الفرد في الدولة القومية الديمقراطية مواطن. وللمواطَنة حقوق مضمونة، وأمن، ومعاش، وتضامن مع العاطل. المواطن يتمتع بحق المشاركة في شؤون الحكم، يَنْتخب ويُنتخب.

للمواطن حقوق سياسية اجتماعية، هي أوْفر عطاء كلما ازدهر الاقتصاد، وتقدم وعي المواطنين، ونجح نضال النقابات والجمعيات.

ليس المواطن في الدولة الديمقراطية رعيّة مسلوبة الإرادة. ولا هو نَكِرةٌ في قطيع.

يعني كونُ المواطن ذا حقوق أن له كرامتَه. يعني أنه لا تسلب حريته بإرادة متعسفة، يعني أن مصالحه لا تعطّل إن لم يدفَعْ.

كل هذا جميل. لولا أن الحقوقية الديمقراطية إن كانت تحمي الفرد من تعسف الحكام فإنها في الجَوِّ الحقوقي الجافّ -هذا لي وهذا لك في كزازة وشح نَفس وأنانية بخيلةٍ- لا تمتعه بالحنان الإنساني والعطف الأخوي الذي هو اللحمة العاطفية الدَّفِئة في المجتمع المسلم الحَيِّ بحياة الوَلاية الإيمانية والبذل الإحساني.

الرباط الذي يصل الفرد بالجماعة رباط أخوة إيمانية، رباط بين أعضاء الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسهر. كما جاء في الحديث النبوي الشريف.

الحقوق الشرعية المضمونة في بلاد المسلمين يأتي واجب التكافل الإحساني، وإيتاء ذوي القربى، والأواصر المتينة بين أفراد الأسرة فتلفها في بساط إنساني رحيم. من قريب لقريب.

لا أتحدث عن الحال التي آلت إليها المجتمعات الإسلامية وهي في أطوار التفكك الأسري، والعمران الصناعي المفتِّت للجوار، وانصباغ الأخلاق بصبغة النماذج الغازية. أتحدث عن مثال، وعن مطلب تحققه تربية مجدِّدة. أتحدث عن نظام مجتمعي مبني على دعائمَ أخلاقية إيمانية. دعائمَ لا تستقر على أرضية التظالم والبغي. وهنا يعود مطلبنا الشوري ليلتقي في شطر مهم مع المطلب الديمقراطي.

سيادة الشعب

5. السيادة المطلقة في الدولة القومية الديمقراطية سيادة الشعب. الشعب ينتخب ممثليه وحكامه. يصوت على المرشحين الذين يُقنعون بأدائهم السابق، وكفاءتهم، وسُمعة أحزابهم، وبرامج أحزابهم.

وينقلب الرأي العام على حزب الأغلبية أو أحزابها لـمَلَلِ الناس من وُجوه، أو لتعاطي الوجوه الرشوة، أو لانفضاح الوجوه أَخلاقيا، أو لسوء تدبير الوجوه. فيمارس الشعب حقه وسيادته وحريّتهُ ليستبدل حزبا بحزب، وزعماء بزعماء، ووجوها بوجوه.

أو تحدث أحداث وأزمات، فتبرز أحزاب جديدة لتزاحم في الميدان، ولتقترح مسارا جديدا.

هذه المرونة الديمقراطية من المزايا ومن الحكمة. أن يمارس الناس حريتهم في اختيار الحكام، وأن ينزعوا منهم الثقة، وأن تتداول على الحكم أحزاب، تخلف معارضةٌ كانت مُراقبة تحصي الأنفاس أغلبية فشلت، أو فسدت، أو أنهكتها مع الأيام والأزمات ممارسة السلطة.

مزايا وحكمة إن غضضنا الطرف عن كون الانتخابات الديمقراطية -وهي أعياد الديمقراطية ومواسم حِصادها- أشبهُ ما تكون بالسوق والمزادات العلنية.

مزايا على كل حال وحكمة إن قورنت بِصَمْتِ القطيع المخَدَّر بالدعاية المكشوفة، المقموعِ السائرِ إلى حيث يسوقه القائد الملهم العبقري الذي يخترع وحده أجهزة علمية كانت تكون مفخرة لو تعاون على إنجازها ثلة من العلماء المتعددي الاختصاص. إلى أية

هُوّة يتردى بالإنسان الغرور! ليته كان غرورا ذكيا لا يعرض نفسه لسخرية العالم!

مزايا التعددية، وحكمة التداول على السلطة، وفضيلة تعديل كِفّة الحكومة بثقل المعارضة مما لا ينازع في صوابه عاقل. وقد تكون حرية الشعب في اختيار حكامه، متمثلة في هذه الآليات العاقلة، هي فَصّ الديمقراطية وتاجها.

ينازعنا الفضلاء الديمقراطيون ويتهمون نياتنا عندما نزعم أن التعددية مزية نعترف بفضلها. يتهموننا وكأننا بلداء، وكأن العجز عن تبني الحكمة أنّى وجدناها عاهة مستديمة في «العقل الغيبي الظلامي» كما يطيبُ لبعضهم أن ينعت كل من يقول ربي الله.

في متناولهم المباشر القريب مثال ما فعله هتلر حين استولى على الحكم بانتخابات ديمقراطية ليلتفت إلى الديمقراطية بعد تمكنه من السلطة فيخنُقها. وهكذا يسحبون المثال على الحركة الإسلامية الفاشية في نظرهم كما هو عقل الإسلاميين غيبي ظلامي.

البُلداء الخُرْق وحدهم يسلكون مسلك المغامرة والانتهازية.

لَنَحْن ألصق بالشعب وأكثر خبرة بما يعانيه. الميراث بعد الطوفان ثقيل نحن أَحَدُّ بَصراً به وبفداحة وقعه لأننا، والحمد لله، ننظر بعيدا. لسنا فراشات حائمة عَائمة، ولا ذبابا مغامرا انتهازيا يلتقط فتاتَ الموائد. تَذهب الأفكار الواردة من تلك العَدْوة ويبقى الإسلام.

الإسلام مِلك للجميع، هو مسؤولية هؤلاء «الظلاميين الغيبيين» الذين لا يجد الفضلاء الديمقراطيون لغة للتفاهم معهم. وكأن كيل التهم وابتكار نعوت القدح تكون يوما بديلا عن العمل الجاد والسَّعي الصادق لفهم هذا «الآخر» الذي ما صَنّفتموه آخر إلاَّ

لتوجساتكم وتخوفاتكم، وربما لحُسبانكم أن الدفْع في صدره بنعوت القدح تزحزحه من الميدان.

لنحن أشد ألما بمأساة الشعب الجزائري الذي جَرّهُ تَنَطُّعُ الفئة المستعلية الخائنة المفرنجة إلى ما يخزي الديمقراطية ويُسوّد وجهها. فقدت الديمقراطية صدقيتها بفعل الأمثال الديمقراطيين الذين أفزعتهم الانتخابات الديمقراطية النزيهة حين أفرزت أغلبية ساحقة مع الإسلاميين.

رِدّةٌ ديمقراطية ينسبها خصوم الإسلاميين للإسلاميين. رمتني بدائها وانْسَلَّتْ! يفعلونها عِياناً ويحاكمون الإسلاميين بتهمة إضمار الغدر بالديمقراطية.

أنا ديمقراطي أدافع عن صفاء الديمقراطية وعن سلامة حياتها حين أُبْطِل المسلسل الديمقراطي الذي لا يسير في صالحي. وأنت عَدُوٌّ الديمقراطية لأنك تُبَيّت نية الإمساك بالسلطة إمساكا أبديا كما حاول هتلر.

من الأذكى منا ومن العاجز حين نقترح عليكم -والكلام أخي الفاضل الديمقراطي لِمخاطب عام أحاوِل إيصال كلمتي إليه- معاشر الديمقراطيين ميثاقا إسلاميا يمضيه من شاء ويكف من شاء؟

آن الوقت، أو سيئِين لا محالة إن شاء الله بعد الطوفان، أن يتخَلّى محترفو السياسة عن اللعب وراء ظهر الشعب. آن ويئين الوقت إن شاء الله ليفصح كلٌّ أمام الله والناس عن حقيقة إسلامه.

ما هي لُعبة سياسية نروم من ورائها ربحا سياسيا، ولا هو فخّ سياسي ننصبه لغيرنا. لا، ولكنه المخرج الوحيد، مخرج الصدق

والوضوح والشفافية كما أحبت الشيوعية أيام توبتها وحَوْبتها أن تُسمي حاجتها لفضيلة غيّبها الحكم الستاليني اللينيني أزْمُناً.

لنحْن أجدر، بقربنا من الشعب، أن نقدر فداحة الميراث وثِقْله. ومن ثَمّ ضرورة تعاون كل القُوى الحية المخلصة على رأْب الصدع، ولَـمّ المشتت، وإصلاح الفاسد، والتصدي لعوامل التخريب الداخلية، وعوامل الاستعباد، وعوامل التخلف.

يجمعنا ماذا، ونتعاون في أي إطار، وعلى أية أهداف، وبأية قِيم إن لم يجمعنا الإسلام؟ وأنتم -ونحن معكم- لا تسمحون لِمن يطعن في إسلاميتكم ولا نسمح، إلا أن يكون من الملحدين من يرفض اللقاء على أرضية إسلامية ويناضل من أجل حقه الديمقراطي أن يكون مُلْحدا مكشوفَ الوجه عاليَ الجبين فخورا بميزته الشّجاعة بين المسلمين.

لا مانعَ عندنا أن يعلن حزب أو تجمع إلحادهما، ولا مانع عندنا أن يقيم سُرادِقاتِه الانتخابية ليجرب حظه إن كان لغباوته لا يتعظ بعبَر التاريخ.

التصدي للحكم في الظروف التي تجتازها الأمة تصَدٍّ لعواصفَ وكوارثَ، واستفزاز لا يُحتَمل لكوامن البلاء المزمن والبلاء الطارئ. وبما أن الديمقراطية تعددية وتداول وحرية تعبير، فتصدي فِئة من المجتمع دون فئة للحكم تعرّضٌ لمشاغبةٍ مُعارضةٍ تُواتيها الفرصة كل يوم لتشَهِّرَ وتُخَبِّرَ.

ما العمل والناس لا يزالون فئةً تبني مجتمعا مدنيا وتحكم به لاييكيا عصريا، وفئةً تريدها قَبَلِيَّةً أصيلةً، وأخرى تعلنها -لا تزال- اشتراكية علمية قبل أنْ تسحَب صفة العلمية على خجل؟

ما العمل إذا كانت ممارسة الديمقراطية، حقّ الديمقراطية، نشاطا جديدا، وكانت أرصدة الناس في النزاهة طريَّة حادثة، وكانت المشاغبة والتشهير أكثر ما تجيده معارضة اللابثين في المعارضة أحقابا؟

ما العمل لو كنتُ من المناضلين الحالمين منذ عقود من الزمن بديمقراطية زينها في عيْني طيف الألوان الجميلة الأحلامية، ثم يجيءُ قوم آخرون يقطفون الأزهار ويجنون الثمار؟

ما العملُ غيْرَ التعاون الصادق بين الصادقين، خروجا بالشعب من النفاق السياسي، والغموض الفكري، والخوف من الناس، على ميثاق واضح. وإنما يخاف من الوضوح اللصوص. وإنّ من محترفي السياسة من يتلصص على الذِّمم كما يتلصص على المنصب والمكسب.

لماذا يرفض الكتبة في الصحف الحزبية اللقاء بين الصادقين المسلمين -لم يعلن أحدٌ منهم تنكره لدينه- ويسكت الزعماء؟

أسُكوتَ موافقة؟ أم سكوتَ إرجاءٍ وانتظار؟ أينتظر بعض الناس موجة ليركبوها، أم يتحسسون وقْعَ أقدام ليقتفوا أثرها؟ أيظن بعض الناس أن ثقة الناس تُختَلس بالسكوت حين يتعين الكلام؟

ماذا تقترحون إن كنتم ترفضون اللقاء على أرضية إسلامية؟

المستقبل للإسلام في أرض المسلمين. ولنا مع الديمقراطية والديمقراطيين لقاء في كل ما هو ذكي حكيم عملي. ولنا معها ومعهم خلاف جوهري عندما تُقترح الديمقراطية بديلا عن الإسلام وحكم الإسلام وهو الشورى.

ونمضي بحول الله في استعراض مظاهر الديمقراطية وآلياتها.

الدستور وفصل السلط

6. الدستور هو صيغة العقد الاجتماعي. هو القانون الأساسي، يتفرع عنه قوانين تضبط الحياة الاجتماعية الاقتصادية، وتضمن لكل ذي حق حقه. فالدولة الديمقراطية دولة قانون ودولة حق. هذا من فضائل الديمقراطية: أن لا يكونَ هوى الحاكم ومزاجه وإرادته هي الـمُرجِّحَ، وهي الكلمة الفصل، وهي القانُون كما هو الحال عندنا، حيث تعتبر أية كلمة نطق بها الملك قراراً مقدسا، وكلّ إرادة أبداها أمرا مطاعا، وكلّ جملة وردت في خطاب مرجعا على ضوئه يتقرر ما هو صواب وما هو خطأ.

في هذا نلتقي مع الديمقراطية. لأن هذا حكمة وذكاء وحق. ولأن هذا هو الميزان الذي نعرف به مرتبة الدولة في سُلَّم الرُّقيّ الإنساني. فكل دولة تسير بِهوَى الحكام ومزاجهم وإرادتهم ومصالح صنائعهم وخَوَلهم دولة منحطة. تَسمو فوقها سمُوّاً كبيرا دولة يعرف فيها الفرد وتعرف الجماعات والهيئات ما لها وما عليها، ويضمن لها حقوقها قضاء نزيهٌ يحكم بقانُون معروف، لا يحابي زيدا ولا عَمْراً، ولا يفضل في الحق قريبا لقرابته، ولا محَسوبا لصداقته.

دولة النزوة المستبدة، والإرادة العلِيّة التي لا تناقش، ولا يقف أمامها سلطة موازية تقوم الاعوجاج إنما هي دولة غموض وخوف. والغموض والخوف متلازمان.

في هذا يحقّ أن ننعت دولة الإرادة الفردية المستبدة بأنها دولة ظلامية، ونقدَحَ فيها، ونمدح الديمقراطية بما هي وضوح وأمن.

وأخرى نحسُبها للديمقراطية، ونعدّها من فضائلها وذكائها، ونحصِّل زبْدَتها باليدين. هي أن السُّلَط تتقابل في حوار ثلاثي، وتتوازَن، ويراقب بعضها بعضا.

للسلطة التشريعية -برلمانا ذا مجلس أو مجلسين- حق سن القوانين ومراقبة السلطة التنفيذية. والقضاء مستقل يمسك الميزان. والآليات القانونية الجزئية تدقق في الجزئيات.

هذا لا نقاش في أنه حكمة وذكاء وحصيلة إنسانية مهمة.

وتكمِّلُ الديمقراطية تجهيزاتها الإجرائية بسن قانون الاستفتاء الشعبي كلما تقلقلت الثقة في الحكومة أو تضاربت الآراء في موضوع معين.

عدَدْنا للديمقراطية ما لها من فضائل وذكاء وحكمة.

هذا الشكل، فما المضمون؟

الشكل حكمة تمنع التظالم وتعطي الحقوق وتنفي الغموض والخوف من المجهول. الشكل حكمة عملية وضمانة.

لكن ما مضمون القانونية الديمقراطية؟ وما حدود المصالح التي تضمنها القانونية الديمقراطية ويضمنها توازن السلط؟

مصدر القانونية الديمقراطية بشري. البشر العقلاء يُنظمون حياتهم الأرضية تنظيما مريحا، بلغوا في ذلك شأْواً نغبطهم عليه نحن الجاثمُ على صدورنا بكلكله كابوس الظلم والنزوة والزبونية والرشوة والسخرية من القانون ومن حقوق الناس.

ويستخفنا الإعجاب بهذا التنظيم، ونعايش بما يصلنا من أخبار حياة الناس الديمقراطيين السعداء بديمقراطيتهم فنتوق إلى الممنوع الممتنع، فإذا بالديمقراطية -وهي في بلادها مَكْسَبٌ عادي- نتصورها الجنة على وجه الأرض. وإذا بنا نثور ويهيج غضبنا إن سمعنا أو قرأنا مَن يقدح في مضمون الديمقراطية ولا يمدح، وكأنه لا يعرف أن الحضارة الغربية -والديمقراطية نظامها- تُؤخذ بخيرها وشرها، بحلوها ومُرها، كما كان يقول رائد التغريب طه حسين.

المحروم من الحرية يرى الحرية في حد ذاتها المطلَب الذي ليس وراءه مطلب. البائس الفقير يرى الرخاء نعمة ما بعدها نعمة. الخائف والجاهل يريان الأمن والعلم أسمى ما يتمناه الناس.

والديمقراطية، المتجملة بامتناعها وفقدنا فضائلها، هي كل ذلك: حرية، ورخاء، وأمن، وعلم، وقوة. إلى سائر ما عند الغرب الديمقراطي مما نعاني من فقده.

لو كان الإنسان ترابا يعود إلى التراب وقد انتهت الجولة. لو كانت الحياة الدنيا هي المبدأ والمعاد. لو كانت الديمقراطية سِلعة تستورد. لو صحّت «الـمُسلّمة الدوابية» التي تصنف الإنسان في أرقى سلّم الخليقة بوصفه الحيوان الأرقى تطورا. لو كان ذلك كذلك فغبيٌّ من يبغي بالديمقراطية الرخاء، بالديمقراطية الحرية، بالدّيمقراطية القوة والعلم والنَّعمة بديلا.

أمّا وبعد الحياة الدنيا الموت، وبعد الموت بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، وجنة ونار، فالديمقراطية -مضمون الديمقراطية- لا يجيب عن أسئلتي أنا الإنسان، ولا يستجيب لمطالبي الأخروية أنا المؤمن بالله وباليوم الآخر.

تنظم القانونية الديمقراطية حياة عقلاء كانت لهم بالتاريخ الحافل بالحروب والكوارث عبرة، ففضلوا العيش في أمن وسلام على العيش في حرب وأهوال. لا شأن للديمقراطية بالمطْلق، ومصير الإنسان بعد الموت.

الديمقراطيـة نفعيـة محضـة، أرضيـة محضـة، لاييكيـة اختيارا واضطـرارا.

في أي ميدان تباري الشورى الإسلامية المطلوبة نظيرتها الديمقراطية البشرية المتحققة فعلا، الناعِم بها أهلها، المتفَيّئي ظلالَها أهلها؟

بما نحن بشر تجمعنا البشرية ويجمعنا العقل المعاشي فالحكمة الشكلية مِلْك للبشر. والمؤمنون ضالّتُهم الحكمةُ، أنى وجدوها فهم أحق بها.

يحكُم العقل المعاشي شؤون المعاش بحذْقٍ في بلاد الديمقراطية. وتسير التكنولوجيا المتطورة السريعة التطور بوسائل حياة الناس، ومطامحهم، إلى غير وِجهة. فالديمقراطية اللبرالية الحريةُ الرخاءُ الأمنُ قفص بلا طائر في نظر المؤمن، لأنّها تدور حول فَلَك هبائيٍّ، لأنها لا تعرف للإنسان معنى غير أنه دابة راقية في سُلّم التطور.

فمهما كان الشكل الديمقراطي ذكيا فالمضمون الكفريُّ اللاييكي هو عينُ الغباء.

عاش غبيّاً في ظل الرخاء الديمقراطي والأمن والعلم والقوة، لأنه سيموت غبيا، ويُحشر مع الأغبياء.

ويصيب الانبهار بعض من يكتبون عن الإسلام، أو يمَسُّهم من الغموض والخوف طيفٌ من الشبح الـمُحَلق في الأجواء، فإذا بهم يجادلون في الإسلام ونظامه خصوم الإسلام ونظامه من مواقعَ

يحسب القارئ والسامع أن الإسلام نظام دنيوي متفوق متقدم على غيره بأربعة عشر قرنا. لا غير.

ما الإسلام نمط للحياة الدنيا. وما الشورى نظام للحياة الدنيا. الإسلام دعوة إلى مأْدُبة الآخرة، إلى حُبور القرب من الله بعد الموت، والشورى نظامُ حياة هنا، مُرادَةٍ لحياة هناك. تصلُح الحياة هنا على ما فرض الله فتصلُح بصلاحها الحياة هناك.

دولة القانون

7. طاعة القوانين في الدولة الديمقراطية واجب على كل مواطن مقابِلَ ما يتمتع به من حقوق. كل قانون صوت عليه ممثلو الشعب وصودقَ عليه بالطرق القانونية يُصبح مُلزما للناس، ويفرض تطبيقه على الجميع طوعا وكرها. وأجهزة الدولة القضائية والقسرية في خدمة القانون.

هذه مزية أخرى للديمقراطية وقانونيتها، وأسلوب حضاري لتفادي الفوضى والعشوائية والاستثناءات.

ولا تتوانى الديمقراطيات الحديثة في ملاحقة كل تلاعب بالقانون. لذلك نسمع هذه الأيام بنشر الفضائح المالية والأخلاقية، ونسمع عن مقاضاة رؤساء الحكومات، وإدانتهم، بل يحاكَم قانونيا رَئيس الولايات المتحدة إن أخل بواجباته، أو يخشى المحاكمة فيستقيل من منصبه في الوقت المناسب.

إن كانت تُنشر فضائح الخارقين للقانون في بلاد الديمقراطية فلأنّ القانونية الديمقراطية مزية من المزايا المهمة للنظام الديمقراطي. ولَئن

قدحنا في الديمقراطية فلن يكون القدحُ موجّها للمبدإ الذي يتيح لقُضاة «الأيادي النظيفة» في إيطاليا أن يشنوا حملة تطهيرية ناجحة ضد المافيا وضد الوزراء والموظفين المرتشين.

قوانين وضعها الناس للناس، فمن فضائل الناس أن لا يستثني القانون أحدا، ومن فضائل الناس أن يسود بينهم قانون وضعوه لأنفسهم، هم على علم بمقتضياته وعواقب الخروج عنه.

هذا إصباحُ فجْرٍ ساطع إن قورن بفرعونيّة تقول ولا رادّ لقولها. ألم يخطب أنور السادات في المسلمينَ فتألّه وخرج عن شرع رب العالمين؟ خطبَ وأصدر إرادةً فرعونية، ثم تمثل بالآية الكريمة التي وصف فيها الله عز وجل نفسه: ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[1].

ما من حاكم ظالم مستبد -والاستبداد في حد ذاته ظلم- إلا ولسان حاله يقول المقالة المتألهة ولو لم ينطق بها لسانه.

تَأَلُّهٌ بالفعل أنْ يفرض الحاكم رأيَهُ مستنداً إلى قوة بطشه. تألُّهٌ شخصي مشخّص في حالة من ذكرنا. وتألُّهٌ كان وراثيا مؤسَّسياً عند ملوك أوربا المستندين إلى الكنيسة ما دامت قوية، الثائرين عليها إن ضعفت. تُعَمِّدهم الكنيسة ملوكا وأولياء عهد مخوّلين أن يحكموا الناس «بالحق الإلهي» (ثيوكراتي)، وكأنهم من طينة غير طينة الآدميين. وتحت سماء أخرى (في الصين واليابان مثلا) كان الملوك يقدَّسون لأنهم أبناء السماء. ولا تُسأل السماء وأبناؤها عما فعلوا بالأرض وأبنائها.

من الثيوقراطية نفر الثوار الفرنسيون حين شنقوا لويس السادس عشر وأفواجا من القساوسة. نفروا وانزجروا، ونبذوا الملكية بما فيها مما ساء وسَرّ، ونفع وضر.

(1) سورة ق، الآية: 29.

نبذوا التألّه والمتألهين. وعبدوا زمنا كائنا هوائيا تصوروه روحَ الطبيعة، اقترح عبادته سفاح الثورة روبسبْيِر.

ثم تطورت الأفكار واستحكمت العقلانية الفلسفية في ركاب أختها العقلانية العلومية، حتى استوى في كبِدِ الكنيسة اللاييكية إلها غيرَ منازَع العقْل.

أُلِّهَ العقل وتأله العقل.

كيف تحاور من يسألُك: من سمع بمجتمع نُصب فيه العقل معبودا؟

من أين تبدأ حوارك مع من يجهل العربية إلا جملا جرائدية؟

لا يُسلِّم أن العقْل إله يعبد بالفعل حتى يحضرَ معبدا فيه تماثيل للعقل وقُدّاس ورهبان وتراتيل!

عندما يكون المرجعُ الأخير في تقرير قانون وفرضه على الناس هو العقل المعاشي الفلسفي المقدِّرُ للمصلحة العامة فذلك تأليه، وتلك عبادة.

ومهما كان هذا العقل في تقديره للمصلحة العامة يبيدُ شعوبا، ويفسد بيئة، وينهبُ أُمما، ويفسد أخلاقا، وينكر وجود الله، ويرتكب الجناية العظمى في حق الإنسان إذ يصنفه دابة متطورة، فلا معقب لحكمه. فهو عقل قومي، المصلحة العامة عنده قومية، وليفْنَ البشر جميعا، وليفتقروا، ولتفن مخزونات الأرض، وما فيها، ما دامت راية القوم الديمقراطيين خفاقة في الدنيا، وما دام النِّصاب الديمقراطي المرجِّحُ قد نطق الصواب: أغلبية واحد في المائة مِن المصوتين على القانون.

على مَسرح الأحداث العالمية تتبارى القوميات الديمقراطية العاقلة بالعقل المؤلّهِ لتجد صيغة تعايش بين الأقوياء الأغنياء الصائلين على بني الإنسان بترسانات الأسلحة الذرية.

السلاح الذري من صنع العقل العلومي المشارك مع أخيه وزميله في المهنة العقل المعاشي الفلسفي. عقل مزدوج المظاهر كما هي آلهة المشركين. عقل بلا ضمير. بلا غاية. عقل غبي ﴿**أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾[1].

الآية 23 من سورة الجاثية قص الله عز وجل على المؤمنين فيها حال من اتخذ إلهه هواه. ووصف لنا آلة الهوَى المنفّذة النافذة: العقل المعاشي الذي يقول أصحابه وعُبدانه وعبدته ما قص الله تعالى علينا في الآية التالية (24) من سورة الجاثية حيث قال عز من قائل: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾[2].

عقل معاشي دهري رتب حياة الديمقراطيين الدنيا منذ نبذوا خرافات الكنيسة، وحق الملوك الإلهي المزعوم.

ثيوقراطيةٌ بادت وانقرضت في تلك الديار، ونحن في بلاد المسلمين لا نزال نسمع الحاكم بأمره يتأله في الحفل العام ويتفرعن.

من العذر لأجيالٍ كرهت الظلم بفطرتها، وعاشت الظلم والفرعنة منذ صباها، أن تنبذ الظلم والفرْعنة المشخصين في حاكم لا راد لحكمه. طرحوا الظلم وطرحوا معه الإسلام كله، لأنهم ما رأوا من

(1) سورة الجاثية، الآية: 23.

(2) سورة الجاثية، الآية: 24.

الإسلام إلا الوجه الكالح وجْه المستبد، وما عَلِموا من الإسلام إلا أنه ينطق به نفاقاً الظالمون، تعلموا حب الحرية في مدارسَ فتحت عقولهم على تاريخ أمم حررها العقل من الثيوقراطية، فنعم العقل محررا من الاستبداد!

ونِعْمَت الديمقراطية -بحلوها ومرّها وخيرها وشرها- ملاذا آمنا، ورخاء وقوة وعزة قومية.

إن طاغوتية الناس الوِراثية الثيوقراطية تنتهي بثورة تنصب المقصلات وتقطع الرؤوس، أو بطوفان يجرف البقايا الهرِمة من الأنظمة الهرِمة. لكن طاغوتية العقل المتألّه تحيد بنا عن سبيل الله كفْراً بَواحا كما كان النفاق الوراثي يحيد بنا عن سبيل الله اختلاسا وتزويرا وبهتانا.

ألسنا في المغرب نعبد مقدساتٍ ثلاث هي. الله والوطن والملك؟

مقدسات ثلاث، وشرك منافق، وجهل وخوف وغموض في خدمة الشرك والنفاق! عند أقدامه.

قل لي، أخي الفاضل الديمقراطي، هل من مخرج من هذا الخيار الذي يحوزنا إليه التاريخ بين شرك منافق وعقلانية متألهة غيرَ توحيد الله الخالق الذي نؤمن به أنا وأنت والمسلمون والمسلمات في هذا البلد؟

إله خالق تعلق بالإيمان بوجوده العقل المستدِلّ، ويذعن لحاكميته العقل القلبي المؤمن حق الإيمان، المحتكم للقرآن وشريعة القرآن.

نفرده سبحانه بالعبادة، ومن العبادة، من أعلاها عروة، الخضوع لحاكميته. وها نحن في السياق الشوري لا في المساق الديمقراطي. لا نكون مسلمين إن زعمنا أننا نعبده في الصلاة والزكاة، ونحَكِّم غير

شريعته في الشأن العام الذي جعله لنا سبحانه فريضة مذكورة في القرآن -في سورة الشورى- بين فريضتي الصلاة والزكاة.

أإسلاماً انتقائيا نبغي؟ أم إخلاصا لله وحده لا شريك له؟

«**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**» حديث شريف وجّه به رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى المنجاة من الهلكَةِ، وجههم إلى عصيان الأوامر الطاغية. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّر رَجلا من الأنصار على سَرِيَّةٍ، فاحتدّ الرجل وأراد أن يظهر واجب الطاعة على مأموريه، فأمرهم فجمعوا حطبا، وأوقدوا نارا. فقال لهم: ادخلوها! فهمُّوا بالدّخول طاعة للأمير، وجهلا بحدود الطاعة الواجبة. فلما بلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «**لو دخلوها ما خرجوا منْها إلى يوم القيامة. لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**».

كانت من ذلك الأمير نزوة غضب، وكانت النار حطبا أوقدوه. أما اليومَ فالقوانين التي أُهِلَّ بها لغير الله، والتي يُفرض على المسلمين الخضوع لها والطاعة، قوانين قوم شَرَعوا للناس ما لم يأذنْ به الله في برلمانات ديمقراطية كما هي الديمقراطية الكسيحة المترجَمَة في بعض بلاد المسلمين. وفي بعضها يحكم الأمير الوارث العشائري أو القومي -وهل بين الصنفين في بلاد العرب المسلمين من فرق؟- بهواه المطلق.

كانت النار حطبا أوقدوه وزجرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن المسلمين هَمّوا بالدخول فيها، وتوعدهم بالعذاب المهين يوم القيامة لو فعلوا. أما اليومَ فالنار فتنة مشتعلة، والقوانين، تعززها آلة القمع، أوامر تغطي كل تفاصيل الحياة الاجتماعية الاقتصادية السياسية اليومية.

أحكام الشريعة

لا طاعة في معصية الله. وكل قانون يفرض في بلاد المسلمين غيرَ مطابق لنص الشريعة ولاَ مُراع لروحها ومقاصدها فإنما هو أمر مرفوض في دين الله، لا طاعة له إلا إغضاءً للطرف وإحناءً للرأس ما دام المسلمون تحت قهر الحكم الطاغوتي.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. **﴿فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**. **﴿فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**. واقرأ في مصحفك من سورة المائدة، آيات 44 إلى 47.

يرسم لنا كتاب الله وترسم لنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحدود التي إن تجاوزناها خرجنا من المِلة الإسلامية ودخلنا في ملة الكافرين الظالمين الفاسقين، ودخلنا النار.

ويرسم لنا الواقع الفتنوي حدود المستطاع. وترسم لنا القانونية الدولية المسيطرة وشرعيتها العالمية التي تلعب بها الدولة العظمى وحلفاؤها الكبراء في مجلس الأمن حدود ما هو جائز وما هو محظور.

أما الواقع الفتنوي المحلي القطري القومي، الـمُسَيّج بسياج «أرض وشعب وحكومة» كما تسيج الدواجن في أقفاصها، فالتعامل معه لا يصح فقها ولا يتأتّى سياسة بالقفز المثالي أو العنيف إلى «تطبيق للشريعة» مفاجئٍ فَوْريٍّ.

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]. **﴿فَاتَّقُوا اللَّه مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾**[2]. هذا قرآن كريم. سنة الله في التاريخ أن تتدرج الهداية إلى المجتمعات

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

(2) سورة التغابن، الآية: 16.

المستجيبة لله تلبية لرسول، أو توبَةً بعد حَوْبةٍ. فمن يرفعون «شعار تطبيق الشريعة» يجب أن يتمسكوا بالهدف لأن أحكام الشريعة هي أحكام الله عز وجل. ولن يُقبل من أحدٍ إسلام إن لم تكن أحكام الله هي الحق في عقيدته، وهي القانون المطبق في حياته فردا، وفي حياة مجتمعه متى تحزب لله مع المؤمنين والمؤمنات، وتمكن المؤمنون والمؤمنات من تهييء الجو المناسب، والإطار المناسب، لإلغاء قوانين الطاغوت وتطبيق شريعة الله.

فرض الله على كل مسلم ومسلمة فرائض شخصية كالصلاة والزكاة والصوم والحج واجتناب الفواحش وحفظ حقوق الغير. فتلك شرائع وقوانين يطيعها المؤمن وتطيعها المؤمنة في نفسيهما وأهليهما ورعيّتهما في الأسرة والقرابة. ويتواصى عليها المؤمنون والمؤمنات أمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر.

أما الشرائع العامة الماسّةُ بالحقوق والواجبات السياسية والأخلاقية والاقتصادية، وبسائر مناحي الحياة فهي من صميم ﴿ **أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾[3].

أهم ما ينصَبّ عليه اجتهاد أهل الشورى في بدايات الانتقال من الحكم الطاغوتي إلى الحكم بما أنزل الله تقدير الأولويات ونطاق الاستطاعة والوُسع.

لا يمكن تطبيق جزء من الشريعة دون سائر أحكام الشريعة. الشريعة عدل وتقوى، تقوى وعدل. تقوى في خاصة المسلم والمسلمة وحسابُه عند ربه. وعدل بين الناس، وحسابُه، مع التقوى وحسابِها الأخروي، عند الحاكم، والمقَنِّن للشريعة، والمجتهد الفقيه، والقاضي، والشاهد، ومُثْبت البينة التي تعطى بها الحقوق.

(3) سورة الشورى، الآية: 38.

فإن كانت فرائض المسلم والمسلمة الخاصة من عبادات، وأخلاق، واحترام حقوق الغير، وأداء الواجبات المستحقة للغير، تُناط بالضمير الإيماني، وبخشية الله، والخوف من عقاب الآخرة، والطمع في رضى الله والجنة، فالفرائض العامة والضوابط الشرعية وتطبيق شريعة الله في كل مرافق الحياة، ومنها الحدود العقابية، تريد ثلاثة أمور:

أ ـ تهييء المناخ الإسلامي بإفشاء رحمة الإسلام في المجتمع، أي بتربية الناس في المساجد بما يعظ الواعظ، ويعلم المدرس الفقيه، ويتوب الناس من أخلاق مجتمع الكراهية والنفاق. فإنه لا تطبق الشريعة على قوم لا يؤمنون بها، ولا يدعمونها، ولا يعطونها وَلاءَهم كما يريد منهم الله تعالى.

ب ـ ضمان الحد الأدنى من الرخاء للناس. فقد كاد الفقر أن يكون كفرا. فإن جئت تقطع الأيدي وتجلد الظهور ظنا أنك تطبق شريعة الله دون مراعاة ظروف العيش، وغُربة الدين، وخراب الضمائر، فإنك إنما تهدم الشريعة. هذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوقف قطع السارق في عامِ جدْب وقحط من أعوام حكمه العادل. عام مُفردٌ أجدب الناس فيه فتصرف الخليفة الفقيه رضي الله عنه التصرف الشرعي الصحيح. كيف وأعوامنا فيما قبل نهوض المسلمين لتطبيق الشريعة قرون طويلة من الظلم، والجهل، والسرقة والفساد!

لا بد إذا من تدرج تقام أثناءَه أركان العدل، ويُشاد بيت العدل، وتغرس فضائل الإيمان والأخلاق والإنصاف والإحسان. حتى إذا تم البناء أو كاد –والتوقيت حكمة تقديرها على عاتق أهل الشورى– نادى المنادي بأن قد حان تطبيق الحدود الزاجرة.

ليست الحدود الشرعية في حق السارق والزاني والجاني إلا أحكاما زجرية. أحكامٌ هي كالسياج يحفظ البناء من أن تخربه فُوَيسقاتُ البغي

الصغير، ويصونُ البستان من أيادي العابثين. ما الحدود الشرعية إلا قوانين جزئية عقابية. متى فرضنا تطبيقها فجأة على مجتمع تفشت فيه مدى قرون قيم البغي الكبير والعصيان الصغير حتى لا يكاد يسلم لك من الظِّنّة سالم فقد رُمْتَ مَراماً صعبا. وهنا نصل إلى الأمر الثالث الذي يريده تطبيق شرائع الإسلام في كل المرافق.

ج- مَن يجلد مَنْ، ومن يقطع مَن إذا كان جهاز القضاء الموروث متهما، وكان جهاز الأمن مؤسسة تنخر في ضمير موظفيها النّواخر؟

فالشرط السابق لتطبيق أحكام العقاب، بعد إحياء الضمائر وتربية الناس في المسجد، وبعد إشاعة الحد الأدنى من الرخاء، يتمثل في تطهير أجهزة الأمن الـمُراقبة وأجهزة القضاء المتّهِمة الحاكمة.

لا يمكن أن يطبق حدود الله على الجُناة والزّناة موظفُون تعلموا في مدارسَ برامجُها قانونية وضعية. إنما يطبق حدود الله من يخافون الله، ويرْعَوْن حُرْمَة المسلمين التي حرَّمها الله. وإلاّ فشهادات الزور، وتقارير أهل الرشوة والمحسوبية والفجور، تُحيل العملية كلها إلى حَمَلات انتقام، وتحيل المحاكم إلى مجازر وسلخانات.

الاجتهاد

وتقدير التوقيت حكمة تريد اجتهادا يقول لنا متى استوت الظروف وصلَح الـمُناخ الاجتماعي، ومتى تفتَّق الضمير المسلم العامّ وضمير الشاهد والقاضي عن نية العدْل الوَرِع لا عن نيات العنف على واقعٍ بشري مستعص على الاستقامة.

والاجتهاد له أصوله وضوابطه. له مؤهلات يتخصص لها المتخصصون، ليس يرومُها كل رائم من حَمَلة الشهادات في الإسلامولوجيا الاستشراقية.

أول شروط الاجتهاد التقوى وهي خوف الله، والعَمَلُ المخلص الصادق مع الله. يجتهد المتقي ومعه مؤهلات العلم فيخطئ ويصيب. إن أصاب المتقي العالم فله أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

هذه التوسعة الإلهية على المجتهدين نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم، ويجيء قوم يَتخذُونها هزُؤا ولعبا. ويتخذونها حجة فضفاضة ليقتحموا بابا مُتْرعا للإفك والبهتان، يُفَرِّعون ما شاءت لهم حماقتهم الإسلامولوجية في دين الله، ويسمّون هراءَهم اجتهادا.

لو اقتحم باب الاجتهاد في دين الله وفقه شريعة الله تقيٌّ ما معه آلات الاجتهاد وعلومه لأوقفناه مخافةَ إفساده في الدين عن حسن نية وعن جهل وقصور. فكيف والمنافقون الجاهرون طَوْرا وطورا بإلحادهم أو إسلامهم اللفظي يطالبون بحقهم في الاجتهاد، كأن الاجتهاد ساحة يتقلب فيها بهلوانات المنطق الفلسفي، والمصلحية المتحررة من كل قيد!

الديمقراطية حرية ومساواة، فلِمَ لا يعتبَر اجتهادي وأنا دكتور في الحقوق، خبير بالقانون المقارَن، مطلع على كثير من النصوص؟

ينتصب «الأنا» المثقف أمام «الآخر» وفي جعبة المقتحم حجة عقلية يناطح بها النص الشرعي، فيقبح بعقله المعاشي ويحسن، وينتسب إلى المذهب المعتزلي الذي ألَّهَ العقل فجعل كل ما قبحه العقل قبيحا، وكل ما حسنه حسنا.

وهكذا يؤدي المقتحمين اقتحامُهم إلى الاستغناء عن شرائع الإسلام بتسلُّلٍ عقلاني مدجّج بالشواهد والمراجع والإحالات.

وفي الطوفيِّ سلفٌ وَمثَلٌ للآخرين، الذي تقدم عصرهُ قرونا فزعم أن المصلحةَ مقدمة على النص. فهو إمام المقتحمين وسندٌ جَاهز.

النص، ما النص؟ المصلحة، ما المصلحة؟ الدلالة اللفظية، ما الدلالة اللفظية؟ المفهوم، ما المفهوم؟ وتتسلسل الأسئلةُ مِآتٍ عكف على تحرير الأجوبة عنها عباقرة العلماء المتقين المتخصصين في علوم اللغة، وعلوم التفسير، وعلوم مُصطلح الحديث، وعِلم الاستنباط، وعلم تحقيق المناط، وعلم القياس.

ويجيء مقتحم لم يطّلع على ما أثّلَه سلفنا الصالح، ولم يبلغه عنه خبر، أو بلغه فتكبّر واحتقر، فيزعم أن تلك العقول القديمة وما أفرزته تُراث مجيد يُحتَفَل به ويوضع على الرف.

الاجتهاد تقوى تَقيٍّ يلتمس أحكام شرع الله فيما لم يرِدْ فيه نصٌّ قطعيٌّ الثبوت قطعي الدلالة. تقي، وأتقياء، أيقنوا أنهم بعد الموت إلى الله صائرون، وعن فُتْياهم مسؤولون. فأكبّوا على علوم الاجتهاد، وحرروا علما عظيما يُسمّى علم أصول الفقه. علما قائما بذاته، هو زبدة جهود خيِّرة، ذكيّة حقا، عبقرية صدقا. رحمهم الله ورحم الإمام الشافعيَّ وسائر أئمة المسلمين الأخيار مُقَدّمي الجماعة.

ليس الاجتهاد حُكرا على صنف من الناس، على المعمَّمين خريجي الأزهر والقرويين والزيتونة. ولا هو حِمىً يُمنع من دخوله الدكاترة النّبهاء. كل تقي عالم مؤهل للاجتهاد، مُدَرب على الاجتهاد، مطَّلِعٍ اطلاع تحقيق على تاريخ الاجتهاد، هو من أهل الدار وحُماة الذمار.

لعصرنا نحتاج اجتهادا جماعياً تحشد له العقول المتخصصة، والنيات التقية، والوسائل المالية الاتصالية. ويُحشد، مع المجتهدين الـمُدَربين العلماء المتقين، أصحاب التخصصات المطلعون على ما

يجري في العالم، وعلى القوى المسيطرة في العالم، وعلى حدود ما هو ممكن حالا، وما لا يمكن إلا بسعي وتهييءٍ وتدرّج، وعلى الضرورات التي تبيح المحظورات.

فقد لا تجتمع في المجتهد التقي المؤهل العالم المعرفة المزدوِجة بما هو المطلوب شرعا في المطلق، وما هو الممكن في واقع متحرك مشتبك معقد.

من فضل الله على الناس، ومن ابتلائه سبحانه لهم ليعلم من ينصرهُ ورُسُلَه بالغيب، أن سهَّل الاتصال البرقي والهاتفي والصوري وما لا ندري مما يجيء به الله غدا بين قطر وقطر، وقارة وقارة.

فالمطلوب اجتهاد جماعي ينكب عليه العلماء الصالحون من هذه الأمة ليُقربوا ما كان متباعدا بين المذاهب الفقهية، وليلتمسوا من اجتهادات سلفنا الصالح ما يستجيب لحاجاتنا.

أهل الفاقة العلمية والجدب الإيماني يحبون أن يشيع اجتهادهم حتى فيما فيه نص ثابت قاطع، وفيما فرغ منه المجتهدون الصالحون العالمون. فتجد منهم من يُقبح بعقله السخيف فرائض هي عماد الدين، فيزعم أن رياضة منظمة عصرية شرقية وغربية أكثر فائدة من الصلاة، وأن الضرائب المدروسة الـمَرِنة أصلح من الزكاة، وأن وأن.

يوجد مثل هؤلاء في عصرنا؟ نعم! لكنهم، والوقت إسلام مُقبل، غيروا اللهجة وأخْفَوا النفاق تحت عبارات حاذقة متمرسة بالجدل، معجونةٍ بماء الحياد الأكاديمي، والتوثيق المضْبوط، والموضوعية العلمية. كان أسلافُهم سُفهاء أغبياء. وسفَه بعضهم اليومَ لاييكي ديمقراطي ذكي منفتح عصري.

تحتاج الأمة لاجتهادٍ جماعي عبرَ الحدود القفَصيَّة القومية، العشائرية أبادها الله، والديمقراطية هداها الله. اجتهادٍ يُعلمنا البديل الإسلامي لكل كبيرة وصغيرة في حياة الناس كان يغطيها القانُون الوضعي. ويعلمنا أولَويات إدراج القانون الإسلامي، وتدرجه، وإبَّانه.

ضرورات مؤقتة تحول دون تطبيق أحْكام الشرع. متى أصبح الإسلام، كل الإسلام ولا شيء غيرَ الإسلام، مطلبا شعبيا صادقا، تعبر عنه إرادة تائبة صادقة، فقد اكتمل المناخ الداخلي الاجتماعي المسجدي لتطبيق شرع الله.

أما المناخ الخارجي، المتمثل في السيطرة الغربية على ثروات العالم، وتكنولوجية العالم، وقوة العالم، فهو وسَطٌ مُعادٍ حانِقٌ. وما يجري في وقتنا هذا من خذلان المسلمين في البوسنة وفلسطين وسائر بلاد المسلمين دليل ساطع على النيات العدوانية المبيّتةِ ضِدّنا. وإن المؤتمرات التآمرية التي يعقدها الحكام على رقاب المسلمين مع أعدائنا ليخنقوا المقاومة الإسلامية شاهد يعلن في نشرات الأخبار خيانة الحكام على رقاب المسلمين، من عشائريين بُداةٍ أو قوميين عصريين.

لو كان معهم حكام ديمقراطيون لدعونا لهم بالهداية، فالديمقراطي الحر تخفّف على الأقل من ظلم العباد، فيُرجى له الانتباهُ من غفلته عن دينه.

اجتهاد جماعي مستقبلي تتضافر عليه جهود الأتقياء الخبراء العلماء المسايرون لما يظهره الله من فتح على من نسوا ما ذُكِّروا به. أي المسايرون لمستجدات السياسة العالمية المقدرون للخطوط المحتملة التي تنعرج عليها الأحداث، القادرون على تخطيط مستقبلي يواكِب فيه تطبيق الشريعة المتدرج قدرةَ المسلمين على التعاون الذي يعطي القوة. والقوة تعطي الاستطاعة والـمَنَعة والمقاومة للقوى العالمية، خصوصا القوى

الاقتصادية، قوى السوق والتنافس والإمبراطوريات المالية التجارية عابرة القارات.

اقتصاد عالمي تنافسي مسيطر، قائمة دعائمه على الربا، جارية في شرايينه دماء ربوية. كيف المخرج من لعنة الربا والسوق عالمية، والمصارف العالمية تحتل الاقتصاد العالمي وتمتص دماء الحياة من أوردة العالم المستضعف وفي مقدمته المسلمون؟

اجتهاد جماعي شوري، تتمثل فيه الشورى في تبادل الرأي، وتجميع المعلومات، واستخبار الواقع المتموج.

ومع الاجتهاد العلمي جهاد عملي يتمثل فيه السياق الشوري بالاستجابة لداعي الله من أقطار المسلمين وأقفاصهم القومية العشائرية التائقةِ نُخَبُها لديمقراطية محررة. استجابةٍ لداعي: ﴿**وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً**﴾[1] استجابة توحيد وتوَحُّد ليلتم شمل الأمة فتقوى على صد التحديات المصيرية الكبرى، ومنها، في مقدمتها، التحدياتُ الاقتصاديةُ المسيطرُ عليها رأس المال الربوي.

اجتهاد علمي يتشاور فيه المتّقون العلماء الخبراء، ومعه جهاد عملي يعبّئ قوى الأمة لتتقدم متوكلة على الله، معتمدة على عونه، لتشق طريقها في الأرض نحو الكفاية والقوة، ولتحمل رسالة الله إلى الإنسان. التوكل على الله عمل، ما هو تَمَنٍّ وأمل. التوكل على الله ركن مهم من أركان الشورى وسياقها القرآني وشروطها المؤسِّسة.

اجتهاد علمي شوري ينير الطريق، و«تخليق» وتربية بالصلاة والتلاوة والذكر. الصلاة ركن من أركان الإسلام، فهي بذلك أُسٌّ من إساس الشورى. الصلاة مكانها المسجد، والمسجد يُؤَمِّه حكام

(1) سورة المؤمنون، الآية: 52.

الجَوْر لتخطب على منابره خطب منكرة يُقدس فيه الحاكم العبقري، وتفتح فتراتٍ قصيرةً يخطَف المسلمون فيها ركيعات، ثم تُغلق كما تغلق السجون.

اجتهاد علمي جماعي شوري ومعه جهاد عملي لاستيفاء الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء. فلا شورى مع وجود الفوارق المبيدة للأخلاق المبيرة للذمم بين أغنياء مترفين وفقراء مُدقعين. اجتهاد وجهاد لكل هذه التفاصيل المحيطة بالحياة اليومية للناس وبالحياة التاريخية للأمة.

الفاعلون للشورى، العاملون على إقامة الحكم الشوري، يلتقون مع الفضلاء الديمقراطيين في ركيزة بين الديمقراطية والشورى: ذكرناها قبلُ، ونعود إليها. هي الانتصار على البغي، ورفض الظلم، ومقاومة الظالمين.

ما هي الفكرة الجامعة للجهود؟ ما هو الاجتهاد الواجب لفتح آفاق جهاد محرر؟ سؤالان يدفعان بنا إلى المزية الثامنة من مزايا الديمقراطية.

الحريات العامة

8. من الحريات العامة التي تنبني عليها الديمقراطية حرية التعبير. من شِنْشِنَةِ الحكم الظالم المغتصب المستبد أن يكم الأفواه ويمنع كلمة الناس من الرواج. فالفكرة واحدة، والاجتهاد واحد. على فكرة القائد الملهم الوارث الخالد يجتمع الناس، من أراد من الناس، ولأُمِّ الممتنع الهَبَلُ!

على الفكرة الواحدة الوحيدة المحتكرة للذكاء والبصيرة تتوحد جهود الصنائع الطامعين في المزيد من النَّوالِ والمزيد من السلطة والنفوذ. يُضطر النبهاء من النخبة المتعلمة أن ينضوُوا تحت لواء الفكرة الوحيدة، وأن يتظاهروا بالانخداع للإعلام الوحيد، عسى يجدون لمؤهلاتهم مَصْرِفاً، ولحياتهم منفعة.

وتهدر الطاقة الفكرية والجهود المجمّدة، طاقة الأحرار وجهود الأحرار.

نقطة لقاء لنا مع الديمقراطية في استخلاص حرية التعبير من احتكار خانقي الحريات. من خُنِق صوته، وحُرِّمت كلمتُه، فقد شُنق شنقا وإن بات مع الطاعمين.

حرية الصحافة، وحرية تعدد الصحافة، وحرية انتقاد الحاكم، وحرية مقارعة الآراء، ومواجهة المعلومات بالمعلومات. هل من وسيلة أرجى من هذه ليعلم الناس ما يجري في العالم وما يجري حولهم؟ التعتيم الإعلامي، وتزوير الحقائق شنشنة أخرى نعرفها من الأنظمة المستبدة.

الوضوح مطلب لنا مثلما هو مطلب للفضلاء الديمقراطيين. لفظة «شفافية» كانت على لسان غربتشوف أوَّلَ نسمة من نسائم الحرية هبت على الهواء الراكد -كان- في الاتحاد السوفييتي. كذلك نشعر بنسائمَ منعشة يوم يزول الغم الغائم. إن شاء الله.

بعد اللقاء المبدئي نتبيّن الفروق المضمونية والشكلية بين حرية تعبير ديمقراطية وحرية تعبير شورية.

يقول الفاضل: وكيف تتجزأ حرية التعبير!

نعود لمسلّمَةٍ بَنَتْ عليها الديمقراطية خيمتها، مسلّمَةٍ زعم العقل المعاشي أنه أثبت علمِيّتَها رغم أنه لا يزال ينازع عقلاء المختبرات بعضُهم بعضا في مآخذِها ومآتيها.

هذه المسلمة العلمية في زعمها، الغبية عندنا، الكئيبة، حولها يدور كل حوار بين صنفين من بني الإنسان. صنف اقتنع أنه سليل قرود، وصنف آمن بالله لمّا هداه العقل الاستدلالي، وآمن بالنبوة والرسالة والوحي لمّا عَيِيَ عن فهم معناه هو ومعنى الكون العجيب الغريب حوله، وآمن فيما يَخصه هو ويخص أصله أنه سليل خليفة الله آدمَ عليه السلام، لا سليل قرود دروينية تطورية.

يسأل بعضهم لِمَ نعيد الكلام لا نمَل عن القردية والآدمية وعن كون المسلمة الدوابية داهية الداهي وغباء الغباء.

هذه يا أخي السائل هي المعيار بين من انسدت عين فطرته، وبين من ورِث الإيمان في حضن أسرة مؤمنة حافظت على سلامته.

ثم لَمَ يُصَلِّ ذاك ولم يتق ولم يصدق، وإنما أدبر وتولى فانطمست عين فطرته انطماسا نهائيا، وختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تَذَّكّرون؟

وصلّى هذا، واتقى، وصدق بالحسنى لا بالسُّوأَى، صدق أنه آدمي لوجوده معنى، وله بعد الموت مصير إلى الله، ودار قرار. ورثَ فِطرة، كما خُلق النّاس جميعا على الفطرة، فهَوّدَ ذاك ونصّره ومَجسه وقَرّده تربية لا تربية، وأسرة لا أسرة، وتعليم لا تعليم، وتعلق بالثقافة العالمية القردية التطورية، الصانِع أهلُها، الماهرِ أهلها، القويِّ أهلها.

لا جرم يعبر كل صنف من بني الإنسان عن تصوره لنفسه وللعالم وللمصير، وتكون الحرية في التعبير مكسبا للديمقراطي ليبُثّ ذات

نفسه، وذات آرائه، وذات تخرصاته الفلسفية التي تضع الأسئلة في فضول، وتفترض أجوبة محتَملة.

إن استعمل الديمقراطي الذكي حرية التعبير عن رأيه ليدحضَ الرأي الآخر، واستعمل حرية التعبير ليفضَح أعداء الحرية ولصوص السياسة، واستعملها ذلك الاستعمال العظيم الذي تسلحت به صحيفة الواشنطون بوسط لِلْهُوِيِّ برئيس الولايات المتحدة نكسون وإرغامه على الاستقالة والانسحاب الذليل، فذلك منتهى حرية التعبير الديمقراطية، وذاك غايتها وتتويجها.

وما من حُرٍّ يستهين بفخامة الإعلام الحر عندما يمارس وظيفة تنوير الرأي العام، والإطاحة بالطواغيت. وما من حر لا يغبط أمريكا المستعبِدَة للناس في العالم على حرية التعبير التي يتمتع بها المواطنون الأمريكيون والصحافة الأمريكية.

الوجه الآخر لهذه الحرية الهائلة هو أن أصحاب الأموالِ الـمُعَبَّأَةِ المنظّمة، التي من ورائها قُوى سياسية، يستطيعون بالتحكم الرأسمالي في أجهزة الإعلام أن يُوجِّهوا الرأي العام الأمريكي، ورأي الطبقة السياسية الوجهة التي يريدونها. وذلك ما يفعله اليهود الصهاينة.

المضمون الديمقراطي تُشكله الرأسمالية حتى لا يكاد يبقى لحرية التعبير أي فرصة للمزاحمة المتكافئة. وعلى كلٍّ فثم حرية تعبير معتبرة يَغبِطُ عليها أهلَها القابعون تحت مقامع الإعلام الرسمي ومطارقه.

التعبير الحر الديمقراطي في فخامة وظيفته السياسية تمنعه الحرية التعددية من الانحطاط أسفَلَ من حد أدنى، لوجود الآخر المراقب المنافس الذي يحصي الأنفاس.

لكن حرية التعبير لا تعرف حدودا سفْلَى في سفالة عرض الآراء المريضة، فعبَّاد الشيطان ينافسون كهنة الكنيسة، وهؤلاء يُصَدّعونُ ببضاعتهم الكهَنوتية نظارة التلفزيون ليلتقطوا الدولار بالملايين.

وتنحطّ حرية التعبير الديمقراطي التعددي في بلاد الحريات الديمقراطية دَرَكاً دركاً، وتَسفُل بما تعرضه من عُهْر الزّنى واللواط، ومن العُهر التجاري المتمثل في الإشهار المتهتك.

وتحلِّق حول كرتنا الأرضية في أفلاكها كواكب صناعية تحمل كل الفعالية الإعلامية متمثلة في أخبار اللحظة، يراها ويسمعها ساكنو العالم، متمثلة في السفالة والانحطاط والعهر تعرضه شبكات إعلامية.

عَمْلَقَةٌ في الشكل والوسائل، ورداءة دوابية في المضمون.

ما الصحافة، مكتوبة أو مرئية مسموعة، إلا مِرآة للعقل الذي دبّر صنعها، وتخيل مضمونها، وبث رسالتها. لو وقَفْنَا لحظة لنتأمل مرجع العقل العملاق الذي شيد التكنولوجيا لَوَجدناه يرجع إلى قيَم قَزَمَةٍ، وإلى أهداف منحطة حيوانية. ولوجدنا رسالة إعلامه، المبثوثة إلينا من خلال مُقَعَّرات التلفزيون المبذولة بسخاء إشهاري لكل الناس، رسالة كئيبة مُضَمَّنُها أن الإنسان في الأرض لم يَعُد لُغزا محيِّرا، وإنما كشفت الاختراعات المتلاحقة عن أسراره وعن أسرار الكون، فإذا هو في أجمل حالاته وأبهى صوره دابة تتزين لترقص وتُغني، وتعنُفَ لتفترس، ويلهو الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل في نعيم مقيم.

هذه الرسالة التافهة التي تبثها إلينا وفينا حرية التعبير الديمقراطية التعددية، الرأسمالية دينا وعنواناً، الإشهارية فلسفةً وغِذاءً، لها مزيَّة عالمية هي أنها تُطْلع فقراء العالم، وبؤساء العالم، على ما يفعله عشرون في المائة من سكان العالم المترفين بثمانين في المائة من خيرات الأرض.

هي مزية في حق عقلاء العالم، وهي طامةٌ كبرى على العامّة الجاهلة الأمية من سكان العالم: يرون البُحبوحة والنعيم كما تُبَثُّ إليهم صورهما، فيقارنون بالبؤس المحيط. وتهيج في الناس «الأسفلين» ثورة عاجزة، أو رغبة عارمة لمغادرة بلاد البؤس والقمع.

وللعقلاء الديمقراطيين الذين يسكنهم الولاء المطلق للديمقراطية نصيب كبير من الانجذاب الإعلامي للديمقراطية، وقيمها، ومضمون ثقافتها، ورخاء أهلها. ما كل فاضل ديمقراطي متمكن من الاطلاع على ما تحت الشكل من حقائق. إن كانت «المسلمة الدوابية» استقرت في قرارة نفسه وبُؤْبُؤِ عقله فهو لا يسأل عن شيء وراء ما تتيحه الديمقراطية من حرية تعبير سياسية -يكون معها ما يكون- تفصِل بين عهدين: عهد ظلامي خانق للحريات، وعهد الضوء الديمقراطي الضامن للحريات.

وإن كان مسلما حقا يدين الله بدين الإسلام، ولا يجد كلمة يقارع بها الظلم الخانق غيرَ كلمة «الديمقراطية»، فهو بين خيارين: إما أن يقبل الخنق الاستبدادي ويستكين إلى أنَّ لكل مَقام مقالاً، وإما أن يبْني محطة عقلية، ويغرس بستاناً عاطفيا تتساكن فيهما الديمقراطية ومزاياها وحرياتها مع الشورى وأصالتها وقدسيتها. بل تمتزجان فإذا هذه هذه في أجلى صورها.

إن حرية التعبير الشورية، إن كان الأمرُ رأياً واختلافا ووجهة نظر، هي مجال اختيار ووسيلةَ إظهار. فإن كان الأمرُ إسفافاً وانحطاطا ورذالة فلا مجال ولا مقال. ذلك بأنّ الفاعلين للشورى، الساكنين تحت سقفها، قوم مصلون، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فلا مجال للفُحش والكفر والفلسفة الزندقية في رحابها.

وإن رحابَ الشورى لفسيحة لأداء واجب إيماني، هو واجب التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر. إن كان الشكل التكنولوجي يَحْمِل من إعلام الغرب السمين السياسي المغذِّيَ للرأي العام، فإنه يُحمِّل إلى الآخرين الغَثَّ المنكرَ صُوراً مُزَيّنات بزينة الشيطان.

الإعلام

تستهلك الصحافة الورقية في بلاد الديمقراطيات غاباتٍ من خشب الورق، ثروات تنْهَك البيئة وتفسد مناخ الكرة الأرضية. شكلٌ مبذّرٌ، ووسيلةٌ مجحفة بحقوق الإنسان. والمضمون ما قرأنا من غث كثير وسمين سياسي يخدُم أهداف المستكبرين في الأرض.

ومن أموال الزّبائن المستهلكين -ومنهم المستضعفون في الأرض- يُنفَق الباهظ من القيم المادية، والثمينُ من بنات أفكار المخترعين، لتحمِل الشبكات الشيطانية الرسالة الخسيسة إلى الإنسان.

وسائل مبذرة، وأشكال لها وزن.

تحدياتٌ عظيمة أمام الإعلام الإسلامي يومَ يفوز المؤمنون المصلون أهل الشورى، الفاعلون لها، بفرصة التعبير، وحرية التعبير.

تحديات تحميل الأشكال الإعلامية من فنون وألوان ومسرح وموسيقى رسالةً تليق بالإنسان المخلوق الباحث عن حقيقة وجوده. تحديات تحميل الوسائل الإسلامية من كواكب صناعية وهواتف وحاسوبات وشبكات مضمونا ومقالة تبشره بِأن بعد الموت حياةً، وبعد دار الدنيا مصيراً إما إلى جنة وإما إلى نار.

يطلب السياق الشوري من أهل الشورى أن يُعْلموا الإنسان بالنّبَإِ العظيم. النبَأ العظيم الأعظم واحد، هو أنك يا إنسان، يا زيد ويا جورج ويا خوصي مبعوث بعد الموت.

وسائل الإعلام العالمية في وظيفتها السياسية تغرق العالم بأنباء الأهوال الصغيرة والكبيرة مما لا يَخلُو يوم من حدوثه كالحرائق، وسقوط الطائرات، واختطاف الطائرات، ولقاء الزعماء، وجلسات مجلس الأمن، وميلاد عجل ذي رأسين في الهند (وأستثني ميلاد العجل من قائمة الأهوال). لكنها لا تقول كلمة عن الهول الأكبر والنبإ العظيم الأعظم، نبإ ما ينتظر خوصي وجورج وزيد بعد إلقائهم في الحفرة.

فرغ العقل الملحد من هذه المسألة، وقرر أن مثل هذا الكلام لا يستحق غير السخرية والاشمئزاز، كما يشمئز المحلقون حول مائدة شهية من وقوع ذباب مزعج على الطعام. النبأ العظيم عندنا لا نبأ عندهم. لا تُنغِّصْ حياة المرتاحين بذكر الموت! الموت للآخرين في الصومال والبنكلاديش وروواندا. موت الذباب الإفريقي المسلم، والأسيوي، والبوسنوي، والفلسطيني، والشيشاني لا يكاد يُمثِّل خبراً يستحق النشر لولا مخافة أن يسبقك المنافس التلفزيوني بكامرته.

إن في ديننا فسحة، وليس مطلوبا ولا ممكنا أن ننقُل جو المسجد على جناح الأثير. مُبلّغون نحن وحاملو رسالة -أعني بِنَحْنُ كل المتقين من الأمة الإسلامية لا فريقا من المسلمين وجماعة وتنظيما.

ما يكون لوسائل الإعلام الإسلامية أن تكون مسجدا، لكنّ روح المسجد، وإيمان المصلين في المسجد، وشورى أهل المسجد، ينبغي أن تتقمص الفنون والمسرح وفُسحة اللهو التي يحبها عامة الناس، وتُنافسنا عنها برذيلاتها الهُوليوُودية شبكات الإباحية، لتنقل وسائل

الإعلام الإسلامية رسالة الإسلام صافية تَرْفُل في حُلَلٍ من الجمالية الإسلامية وزينة الله التي أخرج لعباده.

ولتنقل وسائل الإعلام الإسلامي الخبر الصادق المستقل، والتعليق السياسي النيِّرَ المتحزِّبَ لله ورسوله والمؤمنين، يكشف أكاذيب الإعلام المتحزب للشيطنة المستكبرة في الأرض، والشيطنة الإباحية في الأرض.

وسائل الإعلام الديمقراطية الحرة خديمة مخلصة لمصالح دولتها القومية، تتبطنها روح المواطنة، ويسكنها عفريت الرأسمالية، ويرتادُ لَهَا الطريقَ المشروعُ الحضاري، والواقع الحضاري الغربي الاستهلاكي التجاري الإباحي.

مطلوب إعلام إسلامي خديم للدعوة الإسلامية الرحمةِ للإنسان، العدلِ لبني الإنسان قاطبةً، الوَحدَةِ على أصل إسلاميٍّ واضحٍ لأمة الإسلام، الطهارةِ من الأرجاس، ومن حبائل الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنّة والناس.

مطلوبٌ إعلام إسلامي حُرٌّ يُعَبِّرُ عن الحقيقة التي يؤمن بها المسلمون، ويكفر بها الكافرون، ويشك فيها المستهتِرون.

الحرية مسؤولية، الحرية شجاعة، الحرية أن يتميز الإعلام الإسلامي عن العبثِ المبذِّر السائد في دين الإعلام، وعن التبَعِيَّة الدنيئة الانهزامية، الـمُسْتَغَلَّةِ تجاريا، المنجرفة فكريا وعمَليا مع التيار الجاهلي الغالب.

والحرية الإعلامية الإسلامية جهاد بالمال للتخلص من سيطرة ما تزخر به السوق الهُوليوُودية من رديءٍ باهر الصّنْعة زاهي الألوان رخيص الثمن.

الحرية الإعلامية الإسلامية التعددية مطلوبة لوظيفتها الشورية، تؤدّيها بنفس الشجاعة التي يُؤدي بها الإعلام الديمقراطي وظيفته.

وظيفة دعم الحق أين كان، وشجب الباطل وفضحه أيَّان وُجد، وفضح المنكر والنهي عنه من حيثما صدر، والأمر بالمعروف والسعي إلى الخير لبني الإنسان. خير بني الإنسان أن لا يتظالموا، وأن لا يستعلي بعضهم على بعض، وأن لا يستضعف بعضهم بعضا، وأن لا يَعلُوَ في الأرض فراعنة ظلَمة. خير بني الإنسان أن يعبدوا الله وحده لا شريك له.

الحرية الإعلامية الإسلامية تقتضي من المتقين العلماء حامِلي الرسالة للإنسان أن يبلغوها صادعةً بالنبإ العظيم، تبليغا يسلك إلى المسامع والأبصار سُبُل الإقناع العقلي، والإيحاء الخيالي، والتصوير الفني، وبلاغة الكلمة، وفصاحة الشاعر، وإثارة الذكرى، وإلهاب الحماس، والوعظ الخاشع، والتي هي أحسن جَدلاً، وحكمةً، وموعظةً حسنة.

في سياق الجدِّ الفسيح المرتاحِ الفَرِحِ بالله ينبغي أن تُزف بُشرى الرحمة الإسلامية، لا في سياق اللهو والمجون والعبث واللعب والتحريض على الزنى والفاحشة.

وفي ركاب التذكير بالله وباليوم الآخر يقوم الإعلام الإسلامي المتعدد الحر بوظيفة مراقبة الحكومة، وتحديد المسؤوليات، وكشف الغامض، والحطِّ على الذين يبغون في الأرض فسادا، وتنوير العامة من الناس والخاصة في شؤون دينهم ودنياهم. تنطوي شؤون الدنيا في ثنايا شؤون الدين، لا يكون إعلاما لاييكيا كما يفعل إعلام الإسلام الرسمي: تلاَ الفقيه آيات بينات، وفسر العالم،

وهذه أغنية لنَجِية الشيطان. فيتحادى القرآن وحُداءُ الشيطان في لحظة البرق.

في ركاب القرآن والتذكير بالله وباليوم الآخر، بوسائل متنوعة لطيفة تتخولُ الناس من أَوْجهٍ لاَ تُمِل، وتنسكب من الحواس والعقول إلى العاطفة، ينادي الإعلام الإسلامي الحر المتحزبُ لله في تعدده، الأمة إلى الرجولة لا إلى الفسولة، إلى العمل النشيط المنتج، إلى المشاركة الفعالة ينتزع بها النقابي حقه، ويدافع بها المغبون عن إنْصافه، ويراقب بها الناخب المنتخبين، ويعلم بها الجار جاره فضائل الأخوة والبذل.

«تخليق» الديمقراطية

ما زالت وسائل الإعلام العملاقة، العالميةُ الوسائل، القزمةُ المضمون، أداة تخريب للأخلاق وإفساد للنشء، وأداة ترويج على نطاق عالمي لرذائِلَ وُلِدتْ هنا وهناك، وتجمعت في بؤْرَة دُمَّلِيَّةٍ رأسمالية تفَجِّر صديدها من خلال الشاشات وما وراءها من شبكات رأسمالية على وجه الإنسان لتزيدَهُ شعوراً بِخسته وقرديته.

وما زالت الديمقراطية تُناغي حُلْما مستحيلا إذ تنادي «بتخليق» الديمقراطية. من يخلِّقُ الناس الفاعلين للديمقراطية حتى تتخلق الديمقراطية، والسيل الجارف من الرذائل الإباحية يميل إلى الخروج من مسرح الشاشة إلى مسرح الحياة، وشوارع المدن الكبرى، وأكواخ مدن القصدير، بسرعة اليومِ بعدَ اليوم، وبوتيرة نبض قلب حي بحياة شيطانية مريدة؟

لا يتخلق الناس بالخُلُق الحسن والأُفُق الأرحُب، والعُمْر فرصة شاردة لنهب اللذات، والبؤسُ قِسمةُ الـمُترفين يقتلهم الـمَلَلُ في قصورهم ومقاصفهم، وقسمة الـمَرضى الفقراء الجاهلين العاطلين عن العمل، العاطلين من كرامة الشغل، وكرامة الشعور بالفعل النافع في المجتمع مزيد من البؤس والفقر والجهل والعطالة.

يتقدم الفاضل الديمقراطي الوطني على خجل وحشمة في طريق بحثه عن صيغة مراجعة إسلامية، وطريق بحثه عن مذهبية نظيفة لمجتمع يتعفن. فيطلب إلى الديمقراطية الكريمة العزيزة أن تخلِّق نفسها لتمنحنا غطاء محترما نزفّها إلى شعبنا في غُلالته.

لِمَ لا نمتطي جواد شجاعتنا كما يمتطي الفرسَان ونُلقِي وراءنا أوهام النضال التاريخي مع أخطاء النضال التاريخي؟ لم لا نصارح الله والناس، ونصارح أنفسنا أن الذي تبغيه الأمة، ويفرضه الوقت، وتنادي إليه الأزمة الأخلاقيةُ قعيدة دار الديمقراطية، المستفحلة الفاحشة في ديمقراطيتنا المستوردة، الملفوفة في كاغَدِ لاييكيتها، إنما هو الإسلام، وأخلاق الإسلام، وذمة المؤمنين والمؤمنات، المصلين والمصليات، العاملين على الشورى، في سياق الشورى، وبآداب أهل الشورى؟

لِمَ لا نمتطي جواد الشجاعة في الحق وندفع باقتناعنا الخجول إلى نور الحرية ليرانا الله ورسوله والمؤمنون، حيث أمرنا الله وهدانا رسوله، وحيث يفرح بنا المؤمنون؟

إنما يتخلق العاملون لآخرتهم ذلك التخلق المصبوغ بصبغة الله. إن كان أهل الفضائل الفُرادى المصبوغُون بصبغة المروءة والنزاهة

والشهامة يندسُّون في الجمهور الديمقراطي، فأهل الإيمان والتقوى يبغي لهم دينهم التميز عن القطيع.

تَنادِي الديمقراطيين إلى تخليق الديمقراطية طلبٌ لمستحيل في بلاد المسلمين. فالديمقراطية الأصيلة في بلادها هي عندها مُستورَدٌ هجين. والقانونية الحقوقية الديمقراطية في بلادها رادع قوي لوجود مروءاتٍ فردية، ووعي سياسي، وأياد نظيفة في صفوف القضاء. هذه القانونية، والذهنية المصاحبة لها، وتشبث الفرد بمصالحه، ووعي الناس بحقوقهم، وتكتل الناس للدفاع عن حقوقهم القانونية الديمقراطية، هي عندنا حُلْمٌ لا يتحقق في نظام الصنائع والزبائن والرشوة وسائر الأوبئة.

تحاول الديمقراطية الأصيلة في وطنها تخليق نفسها بالقانون، لوجود شروط تطبيق القانون. وعندنا لا سبيلَ إلى بَعْثِ الضمائر الفردية الفاضلة، ولا سبيل إلى بث الوعي السياسي والناس مُخَدّرون منذ قرون بترانيم ما يسميه ابن خلدون «دين الانقياد»، والذهنية الرعوية الخانعة بلادةً سياسيَّةً أو خوفا أو قهرا هي السائدة لا العقلية الحرة المطالِبة بالحق، القادرة على التكتل لانتزاع الحق.

ترقيعٌ هو من أصله اقتراح ديمقراطية في بلاد المسلمين، والتنادي إلى تخليق هذه الديمقراطية الغريبة عن وطنها وعن شروط حياتها ترقيع على ترقيع. غريبةٌ هي وغريبٌ مشروع تخليقها المقترحُ في ديارنا.

رُكام على ركام.

إن لم نعَمِّقْ صِلتَنا بالجذور الإسلامية نفسيا وعقليّا وعمليّا وشريعة وإيمانا بالشريعة ومصدراً للشريعة فلا سبيل، لا سبيل.

الدنيا، لا غير!

وهنا أقف وقفة، وأتأسفُ أسفاً، وأستعين الله تعالى ضراعةً، لأضع أصبُع التنبيه والتحذير على مسْرَب تختلط منه بالمياه الإسلامية أخلاط التفكير السياسي اللاييكي.

الديمقراطيون يَنْشُدون أخلاقاً وتخليقا تصلح بهما الديمقراطية لِتَسْلَم للناسِ معايشة، ولتصفُوَ لهم حقوق تعايش، ولتتوفر لهم شروط تعايش.

ويدخل الكاتب الإسلامي في النقاش الفكري، وغدا يدخل الإسلامي في المعمعة السياسية، وفي مداخل الحكم، حيث يقع الضغط اليومي من قريب على الإنسان. فيتربّص بالإسلامي المفكر اليوم، السياسي الداخل في الحكم غدا، انشغال عن الجوهر والغاية، فتجده يدفع اللاييكية بالشريعة، والديمقراطية بالشورى، وإذا هو ينادي بتخليق الشورى لتسلم الشورى من المعايب، ولتصلح للناس معايشُ، ولتتوفر للناس شروط تعايش. لا غير.

وإذا بالوضع مقلوبا مسلوبا. الدين لصلاح الدنيا، والأخلاق لسلامة المعاملة بين الناس. وإذا نحن قد اقتربنا مسافات من شعار اللاييكية. الدين لله والوطن للجميع. الدين لله والديمقراطية للجميع. ما بين هذه و«الدين لله كي يسلَم المواطنون وتضمن حقوقهم» إلا لفظة أو لفظتان، وما بين إسلامية تخَلّق الشورى بالتربية المسجدية من أجل سلامة دنيا الناس لا غيرُ إلا خطوة أو خطوتان.

أينما ولّيْنا وجدنا ما فعلته اللاييكية بعقولنا وتفعل.

في شريعة الله صلاحٌ لدنيا الناس، لا شك في ذلك ولا مراء. وفي أخلاقية المؤمنين والمؤمنات العاملين على الشورى بشروط الشورى وسياق الشورى ضمان للتعايش السليم بين الناس، لا شك ولا مراء.

لكن وقفتي وأسفي وضراعتي إلى المولى عز وجل باعثُها الخشية من تحوُّل الإيمان والأخلاق الإيمانية والشورى الإسلامية وسيلة لصلاح دنيا الناس كما هي الديمقراطية المطلوبُ تخليقها وسيلة لصلاح دنيا الناس. لا غير.

كان جليا واضحا في عقل المسلمين وسلوكهم قبل إغارة الوافد المستعمر على الأرض وإغارة ثقافته على العقول، أن الله عز وجل بعث الرسل عليهم السلام وتوّج بعثتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم لغاية سامية هي هداية الإنسان الفرد إلى الله، إلى سعادته الأبدية في الآخرة.

كان جليا قبل هجوم المصطلحات الغربية الدنيوية الدهرية اللاييكية، وهجوم الفلسفة الدوابية الاستهلاكية الإباحية، أن الدنيا والآخرة مترابطان ترابطا جدليا وثيقا، وأن سلوك الإنسان في الدنيا ومصيرهُ في الآخرة يترتبان تَرَتّب النتيجة على المقدمة كما يقول المنطق الأرِسْطي العتيق.

يُصلح الإنسان دنياه بالإيمان بالله وعمل الصالحات فيصير إلى الجنة، ويخشى عذاب النار في الدار الآخرة فيتوب ويُصْلِح عمله في الدنيا. وبترابط القضيتين في سلوك أفراد مؤمنين صالحين عملا، وبحرص الأفراد المؤمنين الخائفين من عقاب الآخرة الراجين جزاء الآخرة على تحصيل سعادتهم الأبدية يستقيم معاش الناس في الدنيا على رسْم الشريعة ومنه سياق الشورى، فتصلح آخرة من آمن وأحسن عملا من الناس.

هذه بديهيّات -كانت- في عقول المسلمين وطموحهم وأخلاقهم وضوابط سلوكهم. فلما غشِيَ المسلمين مِنْ يَمِّ الفكر الغربي ما غشيهم، ولما طَرِب للنشيد الدنيوي المتاعي اللذاتي من طرب، وخَفّ إلى الاديولوجية التطورية من خَفّ، اختلطت المفاهيم، ووقع بعض المسلمين في مُحاكاة الخطاب الغربي بلغة غربية، ومصطلحات غربية، وترجمة على النسق الغربي لمفاهيم إسلامية في صيغة لفظية مترجَمة زَنيمة مُعَقَّمةٍ من الغيبيات، أنيسةٍ مُؤنِسةٍ في مدلولاتها المشتركة، بمدلولاتها المشتركة لعقولٍ مشتركة.

تميّزٌ من أجل التميز؟

كلا فالأمر انجراف، والأمر اقتراف، والأمر انحراف!

وطلب تخلق مصبوغ بصبغة الله لا بصبغة مروءة بشرية ما هو بطلب إضافيٍّ لتترقَّع الشورى برقاع من خلُق، ولتتبرقع ببراقع صالحة للعرض على أنظار النُّظراء الديمقراطيين هناك، والفضلاء الديمقراطيين هنا.

التخلقُ المصبوغ بصبغة الله ما هو طِلاءٌ حضاري، ولا هو ارتداع قانوني، ولا هو إرضاء للنفس الفردية بالسمعة الحسنة، ولا هو رِضىً عن النفس بوازع ضمير إنساني شريف.

الأخلاق الإيمانية مظهر سلوكي لإيمان يسكن في القلوب، يدخل إلى القلوب، يسلك إلى القلوب ويسلك فيها من قنوات العقل الذي فكر في آيات الله حتى جزم بوجوب خالق واحد أحد قادر مريد عليم سميع بصير متكلم على لسان رسله عليهم السلام، ثم عجز عن الـمُضِيِّ في الإجابة عن أسئلة فطريّة مغروزة في أصل نشأته، فأنصت واستمع إلى الوحي، وقرأ القرآن مصدقا عاملا مستجيبا لله، ملبيا نِداء الرسول البشير النذير.

أخلاق إيمان وتربية إيمان

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.[1]

الإيمان يدخل في القلوب. والإسلام تسليم العقل بالفطرة المنتبهة من رقدتها، أو بالاستدلال الفكري المرجِّح المعتَبِر، أن الله خالقُنا، وأن الإسلام دينُ الله. نطق اللسان وقال: «آمنا» لأنهُ لا يحسن يفرّق بين درجة ودرجة من معارج الدين. لقنتْه الكلمة الإلهية -القرآن الكريم- أن يقول: «أسلمنا»، عسى تنتقش في سُويْداء خصوصيات ضميره أن الدين سُلَّمٌ ومَرَاقٍ، وأن الإسلام الأعرابي ما هو إلا مَدْرجة أولى، يفتحُ الأملَ في الارتفاع منها إلى الدرجات العليا كلمة «ولمّا» القرآنية الحكيمة.

الإيمان قول باللسان، وعقدٌ في الجَنان، وعمل بالأركان كما قال علماؤنا رحمهم الله.

الإيمان يبلغ ذِروته فيصبح يقينا بالله وباليوم الآخر، ويصبح من شَبَّ في قلبه الإيمان وقوي وزاد متّقيا، مهتديا بالقرآن، مُفلحا عند ربه في دار الجزاء. ذلك لأنه صلّى وزكى وعمل صالحا في دنياه.

ونقرأ، أخي الفاضل، الآيات من أول سورة البقرة.

تبدأ التربية المسجدية بالطهارة والوضوء استعدادا للصلاة. صبي وصبية أنشأهما والدان مؤمنان ومسلمان، فالمسجد عندهما مكان

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 14.

الطهارة والقدسية والعبادة. وصبي وصبية نشآ في حضن والدين متهوّرَيْن في الدين، ما معهما من الدين ما يكنُفان به الأبناء والبنات من عوامل الجَرف والانجراف والاقتراف والانحراف، فالسنما والملهى والمرقص والإباحية، أو الشارع والمخدرات والإباحية، هي المجال الحيوي ومكان إثبات الذات.

صبي وصبيّة وتربية. أو يتوب توبة سياسيّة مناضل مسلم، وينطق النطق الإسلامي، ويُحسَبُ على الحركة الإسلامية، متعاطفا معها، أو مادّاً معها جسور التكتل والتعاون، أو لابِسا لَبُوسَها عن وعي واختيار.

الصبي والصبية في حجر التربية الأسَرية، واليافِعُ لَمَّا تنتفخ فيه أنانية من يعرف كل شيء عن كل شيء، يمكن أن يعَلّم الطريق إلى المسجد، ويُعلم ما هو الوضوء وما هي الطهارة وما هي قدسية العبادة، وما هي مدارج الدين ومراتبه.

أما التائب توبة سياسية، والمقتنع بأن المستقبل السياسي إسلام، وأن عزة المسلمين بغير الإسلام وهم من الأوهام، وأن تعبئة الأمة الإسلامية بنداء غير نداء الإسلام صيحة في واد، فذلك يصعب أن يُصغي حتى يعلَم ويتعلم ما علاقة الطهارة والوضوء بالمستقبل الإسلامي. إن كان يدرك بالحِسِّ السياسي أن المسجدَ الشعبيّ هو المكان لتعبئة الشعب، وأن الكلمة الإسلامية هي الشعار الحافز للجماهير المسلمة، فإنه لا يربط بين عبودية الطهارة والوضوء والصلاة وبين الأهداف السياسية للأمة.

وهذا الانفصام بعض ما فعلته فينا معاشرة الفكر اللاييكي.

شورى أو ديمقراطية وأخلاق وتخليق. هذه مقولات سياسية تقبل المقارنة. فما بال الطهارة والوضوء والصلاة؟ وكأنك تحاول إدخال الجمل في سَمّ الخِياطِ حين تحاول إدخال مفاهيم باتت غريبة عن عقول دقيقةِ الصنعِ ذاتِ أبراج مراقبة ومعاقل تحقيق كارتزياني عقلاني منطقي، ذاتِ شبكة تصفية يقِظَةٍ لا يتسلل منها الدخيلُ المختلطُ.

نشترك والإسلاميين في الاعتزاز بثقافتنا الأصيلة لنَصُدَّ عدوان الثقافة الغربية الكاسحة. لكن الطهارة والوضوء والصلاة! هذه طقوس دينية!

نفكر للسياسة والاقتصاد بلغةِ حنينٍ إسلامية كما يتكلم الإسلاميون من أجيال ما بعدنا بلغة التقنية والسياسة مجردةً عن هذه الألفاظ.

لا تبدأ التربية المسجدية الأخلاقية الهادفة إلى رضى الله والجنة والقرب من الله من فلسفة مركّبَة، إنما تبدأ من أعمال بسيطة أتحرّى فيها طهارة الماء، ومواضع الغسل، وأعضاء الوضوء، وترتيب فروض الغسل والوضوء وسُننهما. أعمال جسدية بسيطة التنفيذ عظيمة المغزى في تطهير حسِّي ومعنايَ. أعمال جسدية بسيطة تتلوها أعمال يشترك فيها حضور العقل والنية وحركةُ الجسم قياما وركوعا وسجودا في الصلاة.

أعمال حِسيّة أنزلها الذي بَرأَ جِسمي، ونفخ فيه من روحه. فهو أعلم بما يُدخل الإيمان في قلبي إن أنا أذعنت وصدقت وتوضأت وصليت ونهتني صلاتي عن الفحشاء والمنكر فعملت الصالحات. من جملة الصالحات، من أعظم الصالحات إقامة دين الله في الأرض، وحمل رسالة الإسلام للعالم. ومن شرط هذه الصالحات الأعظم أن نُقيم في بلاد المسلمين حكما شوريا.

هكذا تنتظم الطهارة، وينتظم الوضوء والصلاة في سياق واحد، الأخلاق الإيمانية حلَقات في سِلْكِهِ.

لغة الحوار

كنا في حرية التعبير، وأشكال التعبير، ومضمون التعبير، والرسالة العالمية إلى الإنسان التي يحملها أتقياء هذه الأمة وعلماؤها وراثة نبوية. وكنا في الحديث عن النبإ العظيم الذي هو لب الرسالة وبشارتها ونذارتها.

جاء في الحديث النبوي «**العلماء ورثة الأنبياء**». وأريد هنا في جملة أو جملتين تعريف العلماء من هم، ليكون العلماء على قدَم من يرثونهم. الأنبياء عليهم السلام وَرّثوا عِلْماً واحدا هو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبودية، وورّثوا رسالة واحدة -مهما اختلفت الشرائع من نبي لنبي- هي رسالة النبإ العظيم، البشارة العظيمة، النذارة العظيمة. فالعلماء الوارثون هم أتقياء هذه الأمة العالمون بالله وبالمصير إلى الله، المعلمون ذلك، الواعظون به.

لَزِم هذا التعريف لأن لفظة «علماء» تنصرف، أوّلَ ما تنصرف في كلام معاصرينا، إلى علماء الفيزياء والرياضيات وسائر التخصصات. وما زلت أحرصُ على إطلاق كلمة «علوم» بالجمع لنعت المطلعين على أسرار الكون، الـمُكِبّين في مختبراتهم على استكناه الخَفِيِّ من عالم المادة وعالم الخلق. ذلك لتصفُوَ لنا، على مستوى اللفظ، كلمة «علم» المعبرة عن العلم بالله وبما أنزل الله. العلماء بالله يخشون الله. والعلوميون منهم من لا يزال يجحد وجود الخالق، وإن كانت طلائعهم ونبهاؤهم يعودون إلى الإيمان بخالق قادر عليم، كما أعلن ذلك نخبة منهم في كندا منذ حوالي سنتين.

كنا إذاً في النبإ العظيم وحرية التعبير المزية المهمة في المساق الديمقراطي قبل أن نستشرف مجهودا وجهاداً لبث النبإ العظيم إلى الإنسان -وإن كان مبثوثا والحمد لله والناس يدخلون في دين الله- نتوقع صعوبة في التذكير بالنبإ العظيم، وتبليغ النبإ العظيم لفضلائنا الديمقراطيين العائدين من بلاد اللادينية، أو التائبين توبة سياسية، أو الخامِدةِ في رماد غفلتهم بذرة إيمان فطري، أو العقلاء الذين رفضوا أن تكون الصدفة خلقتهم وصنعت هذا الكون العجيب.

يعُوقُ سير الإبلاغ والتبليغ والتذكير، ويسُد القنوات، اختلاف لغة الحوار، وألفاظ الحوار، ومصطلحات كل فريق، وبواعث كل فريق، والأسباب التي تجعل البعض يسمعون، والبعض يجعلون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم، ويُصِرّون ويستكبرون استكبارا.

الحوار عندنا دعوة. والدعوة نداء. والنداء صوت إمّا يرتفع معلنا خبرا مهما، وإما يكون لَغَطا وهَذَراً.

الحوار عندنا جِدَالٌ بالتي هي أحسن. ومقدمة الجدال وموضوعه ومضمونه وغايته إسماع الدعوة. إن كانت التي هي أحسن تدلنا على اللِّين في القول، وعلى الصدع بالحق لا نخاف في الله لومة لائم، فإن «**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ**» تعطينا الخط والمسار والهدف، لكيلا ندورَ حول المقصود ونحورَ.

قال الله تعالى يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، ويأمر ورثته العلماء الذين يخشون الله: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾.[1]

(1) سورة النحل، الآية: 125.

ممنوع تأسيس حزب سياسي على أساس ديني. هذا قانون اللاييكية اللادينية في بلاد المسلمين. رَعيا لمصلحة أقليات، وسيرا في الركاب المجيد الديمقراطي.

مرفوض اللقاء على أرضية إسلامية للحوار من منطلق إسلام مشترك. قال لِسان حال الفاضل الديمقراطي: كلنا مسلمون. فيكفي أن نتجرع غُصص وجودكم في الساحة! فلم تُجرِّعوننا إهانة لا تحتمل بدعوتكم إيانا إلى توبة!

هل من لغة للتفاهم والحوار لا يعتبر فيها الفضلاء اللاييكيون كل كلمة خارجة عن قاموسهم غمزا ولمزا وإهانة!

التوبة عندنا رحمة. التوبة رجوع صادق إلى الحق. التوبة طهارة. التوبة وضوء وصلاة وقرآن وطاعات وأعمال صالحات.

دعونا الفضلاء الديمقراطيين دعوة واحدة عمّمناها لتشملنا وإيّاهم. دعوناهم لنتوب نحن وإياهم إلى الله تعالى. امتثالا لأمره العزيز وتَرْجيته الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.[1]

إن دعوته لتوبة أنت تضمِرها عودة إلى الله تعالى كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر الله سبعين مرة في اليوم، وهو يعتبرها إهدارا لكرامته، وحطا من قيمته، وإقصاء له من حَظيرة الشرف، فمتى نتحاور، ومتى نلتقي؟

كلمة «إقصاء» لفظة مترجمة رائجة هذه الأيام. احتكرتَ الإسلام فأقصيته هو. الإقصاء جريمة ووصمة في لغة الديمقراطيّة اللادينية.

(1) سورة النور، الآية: 31.

الإقصاء من التعددية المتحاورة على بساط «احترام رأي الغير مهما كان» جناية، بل هي إلحاد في دين الديمقراطية.

وباختلاط الألفاظ والمصطلحات وطغيان لغة الديمقراطية، نستعمل كلمات وثّابة من حَيِّزٍ إلى حيِّز، فإذا الحق والباطل أمران نِسبيَّان، وإذا الله هو الخبز، وهو الحرية، (أستغفر الله من حكاية الكفر)، وننتظر من يزعم أن الله هو الديمقراطية.

عندنا يُسمى من خرج عن دين الإسلام من المسلمين مرتدا، ومن أخفى كفره منافقا. ومن جَهر بالمعاصي وأبى أن يتوب مُصِرّا.

عندنا المعيار هو الإيمان، والمرجعُ القرآن، واللغة والمصطلح قرآنيٌّ نبويٌّ. فإمّا نساق والنّخبةَ المثقفة في تيار لغة العالَمِيّة اللاّييكية، وذلك ما يَأباه لنا إسلامنا نحن المسلمينَ، وما يأباه للمثقفين الأحرار نفورهم من الاستلاب الثقافي. نعبر نحن بلغة القرآن عن الضّعْف والهزيمة فنسميها «ركونا إلى الذين ظلموا».

في هذه الظروف التحَوُّليّة التي ترى الإسلاميين في محنة القمع الفعلي، والإقصاء الفعلي، والإيقاع الفعلي بالمؤمنين والمؤمنات، يلتمس المثقفون الديمقراطيون مخرجا من تبعات ماضيهم السياسي الآخذةِ تُربتُه في الانهيار.

قليل منهم، نخبة شجاعة ذكية منهم، في المغرب من يفضل النظرة البعيدة ويختار الحوار مع الـمُعسكر الإسلامي. وطوائف منهم لا يزالون عبيدا لماض نضالي يعِز عليهم الفراغ من هالته. عارضوا الأنظمة اللاييكية القائمة زَمَناً من عَلَى أرضية مشتركَةٍ بينهم وبين الأنظمة القائمة (أرضية الغربنة اللاييكية تجمع عقيدتُها اليمينَ الرجعي واليسار الثوري). لكن كراهيتهم أن يقال لمثلهم:

«هل تصلي؟» و«تعالوا نتُبْ جميعا» جعلتهم يفضلون الركون إلى الذين ظلموا.

أي فضلوا استلابا ثقافيا مزدوجا بالعودة في الشراكة الإديولوجية الأصلية بعدما كانوا عارضوا شركاءهم عقودا. وفضلوا الاستلاب السياسي -إن صح التعبير في التركيب الاشتراكي التقدمي الماركسي- لَمَّا أَلْقَوْا السَّلَم إلى الأنظمة الحاكمة لِقاءَ مُزعةٍ هزيلة من سلطة، ومنصب هامشي في برلمان، وشِبرٍ متقلص تحت سماء الديمقراطية المحلية المزيفة.

إنه لا يغير من حركة التاريخ أن تَجتَرَّ مهانةً وهمية، ولا أن تُحَرِّقَ الأُرَّمَ على من دعوك لتوبة شاملة. إن كانت الصراعية السياسية تُغذّي الأحقاد فسلامة الصدر يعلمها الإسلام، تدخل إلى القلوب من حيث دخل الإيمان.

كن «حيوانا سياسيا» لتظفَر بظاهِرِ فَلْتَةٍ ووَهْمِ مستقبلٍ سياسيٍّ. هذا ما يَنتظره منك الذكاء الديمقراطي، والانفتاح، والحوارية التعددية.

تركيب رائج مترجم أثيرٌ لدى الإعلاميين الغربيين.

فلان حيوان سياسي إذا كان فلان يتمتع بحِسٍّ يمكنه من معرفة أين تهب الرياح السياسية، وكان معه من حصافة الرأي ما يمكنه من تغيير اللهجة وقلب الوجهة بالقدر المناسب في الوقت المناسب، ليقتنص أصواتا انتخابية، ويعتليَ مناصب سامية، ويخدُم قضيته النضالية إن كان -بالصدفة- له قضية.

نسمي نحن بلغة القرآن منافقا مثل هذا الحيوان. والتركيب على لسان الإعلاميين الديمقراطيين أبعد ما يكون عن قصد التنقيص. بل أنت تُشيد بالدهاء السياسيِّ لمن تسميه حيوانا سياسيا.

حقوق الإنسان

9. تضمن حرية التعبير الديمقراطية أن يعرف المواطنون ما يجري في البلد. وهذه مزية لا مِراء فيه، وحق من الحقوق التي انتزعتها الحرية من الاستعباد. في بلادنا يصبِّحك الإعلام الرسمي ويُمَسِّيك بأخبار برقيات الوَلاء للقائد الملهم، وبزيارة الرئيس الفلاني، والوفد الفلاني. ويعرض عليك الإنجازات الفخمة للدولة، الفخمة دائما، العظيمة زورا وبهتانا. ولا يعنيك، أنت الشعب القطيعَ، أن تعرف ما دار من حديث في الزيارات الرئاسية، ولا ما أبْرِم من معاهدات، ولا ما قررته الحكومة السامية من سياسات سرية. لا تعلم من ذلك شيئا حتى تستمع إلى محَطات الإعلام العالمي الحي، الكاشف للخبايَا، المحلِّل الـمُدَقِّقِ، يخبرك بأسرار بلدك، وبما دار من حديث، وما قيل، وما تقرر. لا شأن لك بما قيل وقُرِّر. لا حق لك.

ذلك أن «المواطن» في بلادنا زائفٌ الإعلام الذي يطن في أذنيه، مُبهْرجةٌ الصُّوَر المتراقصة أمام عينيه. إعلام مزيّف لديمقراطية لا جذور لها. لا حق له أن يعرف حقائق ما يجري.

كلمة «حقوق الإنسان» -ومن حقوق الإنسان المواطن أن يعرف- هي اللواءُ الخفاق في سماء الديمقراطية، هي دين الديمقراطية وكنيستها. حقوق الإنسان شعارٌ مجيد ترفعه الديمقراطية. وتحت الضغوط الدولية، وطائلة الأزمة الاقتصادية، يَكتب «الديمقراطيون رغم أنفهم» في الدستور إقراراً بأن البلد يطبق حقوق الإنسان حسب ما هو متعارف عليه دوليا.

كانت الإديولوجية اليسارية تناضل من أجل الحق في الاختلاف. فلما انهار اليسار بسقوط الإمبراطورية السوفييتية، وسقطت الإديولوجية اليسارية «العالمثالثية» بانهيار المركز الثوري للعالم. القوة النووية السوفييتية التي كانت الواقع الحقيقي المؤثر، لا الماركسية التي كانت فلسفة تحرير للإنسان، فآلت إلى فلسفة تدمير الإنسان.

الآن «حقوق الإنسان» في بلاد الديمقراطية الحرة تعني الكرامة، كرامة الشغل والسكن الكريم والتعليم والصحة والحرية. وفي البلاد التابعة المسحوبة من قفاها وراء طابور الديمقراطية تعني حقوق الإنسان واجهةً رسمية من خلف جدرانها الرهيبة خرق فظيع لحقوق الإنسان ابتداءً من هتك جسمه وقهر نفسه بالتعذيب والتنكيل والإهانة.

نسجّل للفضلاء الديمقراطيين في بلدنا شجاعتهم وإخلاصهم في الدفاع عن حقوق الإنسان. مقتنعُون بالديمقراطية وبفضيلتها الكبيرة «حقوق الإنسان» يبذلون الجُهد، تسابقا حزبيا أو غيرةً إنسانية، لتتأَنْسن السلطة في بلدنا، ولينال الإنسان بعض الكرامة التي تستحقها إنسانيته.

يعتمد الفضلاء المتجنّدون في معارك حقوق الإنسان على الضمير الإنساني في العالم وعلى جمعياتٍ قوية الصوت في العالم. وهي معارك ما ينبغي لنا إلا تشجيعها وتحبيذها. فالحد الأدنى من حقوق الإنسان أن لا يعذب، وأن لا يجوَّع، وأن لا يرمَى في جحور قذرة يساكن فيها الجِرْذَانِ، وأن توفّر له فرصة الشغل ليكسب معاشه كريما كاسبا، لا متسولا عاجزا، وفرصة التطبيب، وفرصة التعلم، وفرصةُ تحقيق كل الممكن من استعداداته.

يحسب الفضلاء المناضلون أهل الغيرة الإنسانية الحميدة أن قَضْم جُدْران الظلم من أطرافها فتح لثغرات في الحصن. ويحسبون أن فتح الحصن يكفي فيه دفع ساكنيه خطوةً خطوةً، وتحرير الأرض شِبْراً شبْراً، والإنسان قضيّةً قضيّةً.

الحصن له حُماةٌ أشداء من خارج. وفلسفة الحماة، بل استراتيجية الحماة، أن يكون الناس لهم تَبَعاً. أن يكونوا لهم أمثالا. أن ينسلخوا عن كلِّ ميزةٍ لينخرطوا في «المتعارف عليه عالميا».

المثلية لا «الحق في الاختلاف» هي قانون الأقوى عُدَّةً وثروةً. ذهب في الغابرين المناوِشون من الجانب الآخر، من جانب الفلسفة اليسارية والاستراتيجية النووية الأخرى. ذهب اليقين الإديولوجي الذي كان عماد الفكر اليساري. وانغمس الوطني في مثلية واقعية كما انغمس المناضل اليتيم من ثقافة هي الآن في التابوت.

ذهب كل ذلك، وانغمس كل أولئك، فلم يبق للمعارضة اللاييكية التقدمية، ولم يبق للأخرى الوطنية التاريخية، من منظار إلى المستقبل، ومن مَنظر على الحاضر مشَرِّفٍ، إلا اللهَجُ بحقوق الإنسان لهجا يواكب النداء الديمقراطي، ويواكبُ مطْلَب تكون مجتمع مدني، وتوعية مجتمع مدني، وتعبئة مجتمع مدني.

عندما لا يبْقى في قوْس الصبر منزِع، وعندما يتعذر الانتصاف من واقع مكروه، يلتقي أهل الغيرة من الفضلاء الديمقراطيين على صعيد إنساني، على القاعدةِ «الحد الأدنى»، على مطلب احترام حقوق الإنسان.

سؤالنا من جانب الدعوة الإسلامية هو: هل تتألفنا شعارات حقوق الإنسان -ونحن إنسان بلا حقوق- وتتحبب إلينا جمعيات حقوق الإنسان، حتى نقتفي الأثر، وحتى نجد أنفسنا مِثْلا مَحضا للآخرين؟

إن مولِدَ حقوق الإنسان، وموطن حقوق الإنسان التاريخي، يجري قانون سيره على كل من يتبنّى لذيذ الثمار -وحقوق الإنسان ثمار رائعة إنسانيا- دون أن يعرف مغرسَ الشجرة وغارسها وسُقْياها.

وُلدت حقوق الإنسان، المتعارف عليها دوليا، على فراش واحد مع شقيقتيها الديمقراطية واللاييكية اللادينية. حررت الثورة أمنا فرنسا منذ قرنين من وصاية الكنيسة، وانتصفت من اعتساف الحكم الثيقراطي.

ودخل الاستعمار بلادنا بعد قرن ونيِّفٍ من تاريخ الولادة، وقد اكتملت الديمقراطية اللاييكية الحقوقية الإنسانية أطوارا، ونكَسات، وإمبراطوريتين، وإصلاحات، وجمهوريات.

أعطت اللاييكية الاستعمارية الواردة مع الجيوش الغازية الحرية المطلقة للمواطنين الفرنسيين، المستوطنين بلاد الإسلام، والحقوق المطلقة أن لا يتقيدوا بشريعة البلد. أعطتهم حق قتل الشريعة. أعطتهم حق تقنينِ شرائع لاييكية تميزهم عن «الساكنة» المحلية. وأعطتهم حق زعزعة الساكنة المستعمَرة عن ولائها لشريعة الإسلام، وتحويله إلى ولاء للعُرف المحلي، كما حاول ذلك ولم يفلح الظهير البربري.

بعد الانسحاب العسكري الإداري المباشر للفرنسيين والإسبان، خدمت اللاييكية المتشَرِّفين من بني جِلدتنا بالانتماء الثقافي اللغوي لأمنا فرنسا، وأعطتهم حقوق الإنسان العصري القادر وحدهُ على الجلوس إلى مائدة المفاوضات على الاستقلال، والحقوق الممنوحة للأكفاء الثقافيين أن يتواصلوا مع الثقافة الأم، ومع الأوساط الدبلوماسية العالمية، ومع المراكز المالية.

إنسان له حقوق، لأنه إنسان مِثْلُ. أخبر أحمد بَنْبَلاَّ أول رئيس للجمهورية الجزائرية أن الفرنسيين كانوا يرفضون الجلوس للتفاوض على الاستقلال مع الجزائريين الظاهري التدين.

الشريعة تُطرَح، ويطرح معها العلماء الأتقياء في هامش العجز والبلادة عن التعامل مع العصر وأهله، بما يريد العصر ويهواهُ أهله. عصرٍ سباق، وعصريون حُذّاق. وفي ركن «الأحوال الشخصية» عزل الفقهاء المعممون، والآخرون دكاترة الفقه الإسلامي.

استقلال ضيع الحقوق

آفة المغرب أن اللاييكية، بعد الاستقلال، تقنعتْ بقناع الرمزية الملكية الإمارية المؤمنية، وكانت تحت سماء أخرى سافرةً، فعرف الناس بَأساءها كِفاحاً. بعد عقود من التأليك المنهجي وتهميش الشريعة وحراس الشريعة المغلوبين على أمرهم، ماذا نرى في بلد كالمغْرب المقنعة لاييكيتُه، وفي بلد كتركيا حيث كشَّرت اللادينية عن أنيابها، وفتكت بالعلماء، وقطعت رؤوس الأتقياء؟ أو في بلد كتونس حيث جهر بورقيبة بعدائه للشريعة، وأغلق جامعة الزيتونة التي ظل الاستعمار الفرنسي نفسه يحترمها خمسا وسبعين سنة؟

أو في جزائر الغرب، وأقطار الشرق حيث حافظ المستعمر على رموز الشريعة ومعاقلها، أو حسم جذورها حسما؟ حاول ولم يفلح، والحمد لله رب العالمين.

برز أتاتورك جنرالا وطنيا، ومحاربا منقذا. فلما تمكن من السلطة وجد الدونَمَة اليهود المتقمصين أردانَ حزب الاتحاد والترقي يُنادون بحقوق المواطنين، لا فرق بين ذمي منهم ومسلم. وجدهم يُنادون

بشعار: الناس سواسية أمام القانون، وشعار: الدين لله والوطن للجميع. ولعل الشعار الثانيَ من صياغة أقبَاط مصر.

القانون المسَوِّي تسوية ديمقراطية في الحقوق والواجبات لا يمكن أن يكون إلا لاييكيا، بمعنى لا دينيا. وتجرأ أتاتورك (أب الأتراك كما سمى نفسه!) فطبق على المسلمين لاييكية لها معنى الحياد في الدين، تطورت إلى لاييكية لادينية تعادي الدين، ومظاهر الدين. فتحرق المصاحف وتقطع كل رأس معمم أو مطربش، وتحرّمُ الحرف العربي الذي كان واسطة علمية بين الشعبين المسلمين العظيمين: العربِ والتركِ، وتُقحم الناسَ بالقهر والإرهاب في عصرنة مجنونة.

هزيمة الرمزية الإسلامية العثمانية، بَعد أن أسقط رائد التأليك اليهودي «الخلافة» العثمانية شَوكةَ الإسلام، أسقطت الشريعة من مجال التعامل الداخلي والدولي. وأتْرعت الأبواب للاييكية غازية، وعصرنة تعني، أولَ ما تعني، التخلصَ من الشريعة ومن توزيعها للحقوق.

في بلادنا المغربية دخلت اللاييكية غازية ميدان الشريعة، مجندة في جيش الاحتلال. فلما انصرف الاستعمار من المغرب ليركز بأسه على الجزائر نبغ جيش من أبناء البلد، جيشٌ علموه ودربوه واستخلفوه، وتعلّم قادته من جامعات الغرب ومن التُّراث المخزني صيغة تلفيقية تعرض وجهين، كما يعرِض المنافقون، لعصرنة تقليدية وتقليدية عصرية.

أيها أدهى وأمرّ وأشدُّ نِكايةً في المسلمين، وفي شريعة المسلمين، اللادينية السافرة البورقيبية الأتاتوركية، أم التظاهر المخزني الملفق؟

عرف الناس في تركيا وتونس والجزائر وجه العدو، واسمه، ورسمه، وأسلوبه المكشوف الصريح. وتخدر الناس في المغرب منذ أربعين سنة بالخطاب المنافق والاحتفال «الديني»، وجوقات المداحين

الذين ينشدون أمام الملإِ على التلفزيون آيات الكفر. وإذا نطقت فقولك القرآن.

كيف نفلح ونحن جيش تخريب متعاون مع عدونا على أنفسنا؟ نتغذى بثقافته، ونتبنى وِجهة نظره، ونفعل ما لم يقدر أن يفعل بجرأتنا على الله، وتلفيقنا المنافق، وتلفيفنا في مناديل «التسامح» و«الانفتاح» و«الاعتدال» المسلّمَةَ الدوابية أمَّ المخازِي؟

انتزع المسلمون حقوقهم المغتصبة من يد الغزاة المستعمرين بكفاح جنده وعبأه إيمان شعب مسلم، وتضحية شعب مسلم. وبعد عقود يكتشف المسلمون أن الاغتصاب أعمق أثرا، وأوسع دائرة، وألْأم أسلوبا منذ أربعين سنة.

على أساسِ مطالبة بالحقوق، وكفاح من أجل نيل الحقوق، وتمسُّكٍ بالشريعة الإسلامية جامعةِ طلاب الحقوق، التف الشعب حول رواد الحركة الوطنية. لم يكن بيد رواد الحركة الوطنية، رحمهم الله، من حجة يُدلون بها أمام القانونية الدولية لإثبات استحقاقهم الحريّة والاستقلال إلا أنّ هنالك عرشا وملكاً وتاريخا عريقا.

وحصل الوطنيون في فخٍّ من هذه الفِخاخ التي ينصبها التاريخ للشعوب. أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله. وإنما هو بلاء الله لعباده، وإنما هي سنة الله في مداولة اللهِ الأيامَ بين عباده.

استعمار ينقض الشرعية التاريخية، ووطنيون يثبتونها. واختُصر النزاع في نقطةٍ واحدةٍ. العرشِ والجالسِ عليه.

الآن بعد أربعين سنة من ممارسة أصحاب الشرعية لاستقلالهم، آن أن يحتكم الناس إلى شريعة الله التي أنزل على رسوله، وأن يحاكموا إليها، لا إلى شرعية الواقع التاريخي، العرش والجالس على العرش.

في رسالتي هذه لا يتسع المجال لبحث أصول الشرعية في الإسلام.

موضوعنا الحركة الوطنية المطالبة أمسِ بحق الاستقلال، المعانيةِ اليومَ من عَنَتِ ما فعله بنا الاستقلال.

من الفضلاء الديمقراطيين من يَأْنَفُ من توبة، بل من يعتز بلاييكيته، ومن يطالب بحقه في ممارسة حرية إلحاده. ومنهم من الجانب الآخر من هو متمسك بدينه، لا يدرك ما فعله التاريخ، والمضطربون في التاريخ، بالدين وبالشرعية الدينية.

فعسى نراجع معاً عِبَرَ التاريخ لنتعلم من مسيرتنا الماضية وِجْهتنا الحاضرة! فإنه ما من مؤمن يؤمن بالله وباليوم الآخر يفصِل في تفكيره ووعيه وعمله بين شريعة هي الوضوء والصلاة، وشريعة هي نظام الحكم، وشرعية الحكم، والحقوق الشرعية في الحكم.

لا يفصل مؤمن إلا أن يكون كَرُّ الليالي، ونائبات الزمن، وتآكل الدين، وضمور الفكر، وقَرْضُ التاريخ أطرافَ الهُوَية، قد أَلْيَكتْهُ وأبعدت وضوءه وصلاته عن وَلائهِ لله ورسوله وشريعته.

بدأت الحركة الوطنية مسلمة، مؤسسوها علماء أتقياء عاملون لآخرتهم. ورِثوا إسلاماً منقوضَ العُرا، منقوضَ عروة الحكم. ورثوا تديّناً تعايش قرونا مع الملك العاض. فلم يكن مما يجول في خواطرهم، ولا مما يدخل في برنامجهم، وضع نظام الحكم الموروث موضع الاتهام والمراجعة والرفض.

من ورائهم قرون طويلة انطوى فيها المصحف تحت السيف، واعتنق السلطان القرآن اعتناق المتفَرِّد بفهم الدين، إن لم يزعم الحاكم السيفي أنه محدِّث العصر وعالم الزمان، فمِنْ حَوْلِه علماءُ

تحت التصرف. لم يكن أحد ممن حارب الاستعمار رجُل بَلاط. لكنهم أَلْجأهم إلى الـمُحاجة بالبلاط الفخ التاريخي. وأستغفر الله العظيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم من تعبير شدتني إليه الحاجة للتفاهم مع عصر مادي.

زعماء الدولة القومية

وسَلّمت الشرعية الدولية مقاليد الاستقلال لدولةٍ قوميّةٍ ناشئةٍ، نابتةٍ، بل مستنبتَةٍ في غير منبتٍ. دولةٍ وطنيّةٍ استُؤْمِن عليها أبناء أمّنا فرنسا القادرون وحدهم -دون العلماء الأتقياء الوطنيين الملتفين أمس حول صاحب البلاط- على التفاهم مع الغرب، والتحرك الذكي على مسرح الدبلوماسية العالمية، وتسيير دواليب الإدارة.

وانكب الأمثال الفضلاء على بناء الدولة القومية الوطنية بعقليّة سْكِزُفرينية وبعقل منقسم الوَلاء. بنوا الدولة الوطنية القومية بطموح كبير، لكن بتبعية فكرية يتردّى معها الطموح في مَهاوٍ تبعيَّةٍ لا قرارَ لها.

زعيم قوميّ كان يَسْروعاً يدِبُّ على الأرض، سكنه طموح قوميٌّ وطنيٌّ، فتخيل لنفسه ولقومه مستقبلا مجيدا، وحلَم بـ«ثورة»، ونفّذ «ثورة» وتفتّقت الشّرْنِقَةُ عن فراشة زاهية الألوان، عن زعيم عالمي يقود -مع القائدين- مسيرة العالم الثالث نحو التحرر.

ما كان الزعيم الفراشةَ القوميَّةَ إلا جمال عبد الناصر، المناضل البطل، الجزار قاتل المسلمين. لئن زعم أنه غيرٌ ونقيض للدول الكبرى فما كانت الدعوَى إلا كذبا على النفس. فالزعيم الحالم اليَسروعُ كان مُشْبَعاً بمادة الثقافة الغربية. ونامت الشّرْنقة في مهدِ الفكر الغربي، واحترقت الفراشة في لَهيب الأقوياءِ الأُصلاء الذين تمثَّل روحهم

وظنّ أن حماسه القومي العارم الصارخ يستطيع أن يبني شيئا متماسكا شديد الأركان.

كان مِثْلاً في الصميم، صارخا في الدنيا لتأكيد غيرية ممتنعة.

تزَعّمَ جمال عبد الناصر التحرير الاقتصادي، فضرب الإقطاعية المحلية، قاتلها وأبادها بشرعية اشتراكية. وضرب الاستعمار ضربة موجعةً بتأميم القناة. وقنّن شرائعَ لإنصاف العمال وإعادة قسمة الثروة. وصنّع البلاد تصنيعا اشتراكيا كان ضروريا أن تقوده الدولة.

مصالح مُوَقّتة استعان عليها نظام عبد الناصر بإديولوجية استحمارية شرقية، ومعارك متقطِّعة استعان فيها بالحليف السوفيتي، بل استعان به الحليف السوفيتي في تنفيذ استراتيجيته في بلاد المسلمين، التي سُمّيتْ شرقا أوْسطا لا هُوَية له إلا هُوَية جغرافية يتنازع عليها الأقوياء. على نفطها.

مصالح موقتة، ومعارك متقطعة، واضطراب كبير حوّلَ مِصر تحويلا ظاهر الآثار.

أما المصالح المستديمة للأمة، والأمل الـمُؤجّجُ في صوت العرب، فقد تبخّرت غداة حرب الأيام الستة. وخان قواد جيش عبد الناصر، وسكت الحليف الاستراتيجي. وقفز خلفاء عبد الناصر إلى التحالف مع الاستحمار الأقوى الرأسمالي، و«انفتاح» الاقتصاد، والصلح مع اليهود. ولا يزال النظام القومي الاشتراكي بالأمس، الانفتاحي منذ حين، رائد التطبيع مع اليهود.

كنا مِثلا للغربي الأوربي الأمريكي، فها نحن نرضى ونقنع بمثلية يهودية. ذلك لأننا لم نبن على أساس، إنما كنا ولا نزال دُمىً تمثل أدوارا، ومساعدين منفذين، بل وكلاء مقتنعين أنه لا وَفاءَ بالقصد إلا عند الديمقراطية، ولا ديمقراطية إلا مثيلة، ولا ديمقراطية إلا لاييكية.

وأنتظر من يقنعني أن الديمقراطية هي عين الشورى، وأن القانون الذي صوَّت عليه البرلمان يكفل المصالحَ خيراً مما تفعل الشريعة.

سُلبنا من شخصيتنا، ومن ديننا، ومن حريتنا، وعقيدتنا، فلا عَقْدَ إلا سلاسلَ التبعية الـمَهِينةِ المتمثلة في القانونية الدولية، وفي «حقوق الإنسان» التي نعلن في صَخبٍ إعلامي، وفي الدستور المنافق أننا أوفياء لها كما يُتعارَف عليها دوليا.

عِبَر التاريخ

طبقة سياسية لاييكية الثقافة والتربية والمشْرَب والولاء، بعيدة كل البعد عن نمَط تفكير المؤسسين للحركة الوطنية المصلين العلماء الأتقياء، الحاصلين في فخ تاريخي، هل منه فَكاكٌ؟

لا غَناء في استعراض الأمراض والعاهات المعطلة لحقوق الإنسان في بلادنا إن لم نستعرض عِبر التاريخ، ونتبيّن أين نضع أقدامنا في مستقبل نحن فيه والعالَمَ مُرشحون لِمِحَنٍ شديدة.

ما همُّنا أن نسخر من فواجعَ أليمةٍ قاستها الأمة وتقاسي. ولا أن ننبش ماضيَ أتاتورك وبورقيبة وعبد الناصر لنتشَفَّى من المصير المخْزِي الذي أنهى حياة كل منهما في الدنيا، ولَعذابُ الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

التاريخ عندنا تحكمه سنة الله التي لا تتخلف. قُرىً ظالمٌ أهلها، تستعصي على الاستقامة، وتتكبر على التوبة، وتظلم الناس، وتستكبر في الأرض بغير الحق، وتعتدي على حقوق الإنسان، على حقه الأسمى وهو أن يعرف الله، ويطيع الله، ويستعد للقاء الله في دار البقاء.

التاريخ عندنا مستمر من بعثة نوح عليه السلام إلى آخر ما نشاهد من تقلبات بني آدم في الأرض. قانون إلهي واحد لا يتخلف: تطغى القرى الظالم أهلها، ويُعجب الناسَ تقلبُهم في البلاد، ويبتلَوْنَ بزينة عابرة ونجاح مؤقت. ثم يأتي أمر الله صيحة أو خسفة أو حاصبا أو طوفانا. معنا في هذا العصر آليات فكرية «سوسيو-سياسية»، وفلسفية، وجيو-استراتيجية، وتحليلية نقدية، وما إلى ذلك من الطرح الاقتصادي الثقافي العَالميِّ الآن وقد أصبحت الأرض رُقعة أرض في قرية. وأعتذر للغة العربية عن إقحامات راطنة بلغة هجينة.

أستعمل عبارات مثل سوسيو-كذا لِكَلف الناس بالمصطلحات «العلمية». وأستعملها إشارة إلى سطحية المعتبِرِ بالتاريخ، لا يرى التاريخ إلا فعلا من أفعال الحيوان العمودي المتطور، المتصارع المتقاتل المتحضر الهمجي.

إن كنا بالآليات الفكرية «العلمية» نستطيع رصد الحركة البشرية في ظواهرها، فإن العبرة التي يدعونا إليها المولى سبحانه في مثل قوله: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾[1] لا يُراد لها أن تقتصر على العوامل المنظورة، ولاَ تقْنَع منا برَدِّ النتائج السلبية في التاريخ إلى عوامل أخلاقية، ولا يُقصد منها أن نتعلم من انهيار قُرىً (أي حضارات) لكيلا تنهار حضارتنا.

يراد بالاعتبار القرآني، ويقصد، أن نتعلّم من سُنّة الله في التاريخ، كما نتعلم من تقليب الله الليل على النهار، ومن حُسبان الشمس والقمر والنجوم والأفلاك، أن الرب سبحانه هو متقن الصّنع،

(1) سورة الحشر، الآية: 2.

وخالق الإنسان الفرد، ومميت الإنسان، وباعث الإنسان، وحاشِره، ومجازيه خيرا وشرا، كما هو سبحانه مُكَوِّرُ الليل على النهار، وآخِذ القُرى الظالمِ أهلها أخذ عزيز مقتدر جزاء بما كسبت أيدي الناس، وبما عصى النَاس شرائع الله، وبما عاث الناس فساداً في حقوق الناس.

تقصُر الآليات الفكرية السوسيو -كذا عن تبليغ هذه الرسالة. ويبلِّغها قراءة كتاب الله تعالى بنظرة ونيةٍ لا يَتجزّأ معهما العقل المفكر والقلب الفطري المؤمن بالله، بل يقرآن في آنٍ معا كتاب الله المسطور الموحَى به، وكتاب الله المنشور في الكون وما ينزل فيه ويَعرُج.

حقوقية لم يُبْرمها المؤمنون

قلنا كلمة عن الفضلاء الأمثال، المسلمين منهم والمنافقين والكافرين، وتلك أفعالهم وما جَنَوْا واقترفوا. بصَمَتْ أفعالهم ضمير الأمة، وعقل الأمة، وواقع الأمة بَصَمات مُحرقة. فالتشويه في الرأس، والدين، والأخلاق، باقٍ. وباقية آثارهُ فيما تشكوه الأمة من ضياع الوِجهة، ومن كراهية ناشئة عن بؤس البؤساء وترف المترفين، ومن ضُمور الحِس الأخلاقي ووَفاته، ومن رذائل تعشش مع البُؤسِ المادِّي في النفوس. يعشش كذب الضعيف، وملَقُ التابع، وسَرقة الموظف الصغير، والمحسوبية التي تقتل الكفاءات.

حقوق الإنسان كما هو متعارف عليها دوليا مبنية على معاهدات لم يحضر إبرامها المسلمون، لم يحضر إبرامها في سان فرانسسكو إلا الأمم المنتصرة في الحرب العالمية الثانية. لم يُبرِمْها المستضعفون في الأرض، وأنّى لهم! لذلك فهي منذ ديباجتها تقسم الأمم إلى سيدة ومَسودة.

ولم يحضرها المؤمنون بالله ورسوله حاملو رسالة الإسلام، ولم يوقعوها لدى ميلادها.

مَبْنَى هذه الحقوق على ميزان قُوىً حضارية عسكرية اقتصادية. لا جَرَم تكونُ أداةً من أدوات السيطرة، يخضع لإرهابها الفقراء من دُول العالم، وتمنح، وتمنع، وتستثنى، وتشترط، حسب المصالح الدائمة والطارئة للأمم القوية المنتصرة.

فلأنها حقوقية قوي منتصر، لا يمكن إلا أن تكون بطبيعتها وطبيعة مولدها ومقوماتها نوعا من قانونية فصائل ذئاب متنافسة فيما بينها، متصالحة، يقابلها فصائل حِملان.

ولأنها حقوقية فكّرتها ووضعتها وفرضتها دولٌ سيطرية لها المقومات، ولها الطموح، ولها الاقتناع بأنها الحضارة وغيرها هَمَجٌ، فإن المتعارَف عليه دوليا لا يتسع أفقه لاعتبار خصوصية أحد، كما لا تتسع مكاييله وذهنيته ليساوِي في الاهتمام بين مواطن شريف أبيض اللون بروتستانتي يتكلم الإنجليزية وينتمي للدولة الأمريكية أو الأوربية وبين مواطن ملوّن من العالم المنسِيِّ، أو من الأمم الـمُلْحقة بالركب الحضاري المجيد.

ولأنها حقوقية وضعها وفرضها وفكَّرها لاييكيون أقْحاحٌ، فإن المتعارف عليه في القانون الدولي أن الإنسان كائن حُرّ من كلِّ فكرة أو دين أو مبدإٍ لا يتفق مع النظرة اللاييكية الدوابية للإنسان.

والمتعارف عليه دوليا هو بعد هذا واقع محمِيُّ الحِمَى، فانتقادنا مبادئه ومرجعيته وأصوله طرحٌ يأمُل بناء مستقبل للإنسان يكون فيه حق الإنسان في معرفة ربه، ومصيره، ومعنى حياته، أب الحقوق وأسَّها.

النقد الذاتي

كنا في صفحات مضت نعالج واقع المسلمين بالنقد. وهي نظرة ضرورية إلى الذات الحاملة رسالة الإسلام، لا بد منها.

لا يؤسَّسُ المستقبل الآمِلُ كرامةً آدميّةً للإنسان في هواء النظرية، وسماء الترجّي. الأملُ الباني المؤسِّس لمستقبل هو ذاك الذي يعَمِّق في التّربة ويؤصِّلُ الجذور ليضَع القواعد على أرضية الفطرة الإيمانية، على مَتينِ العقل المتلقّي بالانقياد والطاعة والتسليم ما جاء به الوحي وبلغته الرسل عليهم السلام عن رب العزة خالقنا وإلهنا.

النقد الذاتي مَقُولة ثورية لها في صحُف السياسيين ومداولاتهم رواج. مقولة مترجمة كما هي مترجمة سائر المصطلحات الـمُوَجِّهةِ لفكرِ الـمُغرّبين، المناضلين منهم التقدميين خاصة.

لا تدخل في «النقد الذاتي» الثوري، ولا عند من يستعيرُون العبارة من سائر السياسيين، أسئلة عن معنى النقد ومعنى الذات.

هذه المصطلحات الواردة تستهلك جُملَة كما جاءت، مركَّبةً معروفاً مضمونها وشكلها. معروفةً وظيفتُها الحزبية الفئوية التنظيمية. أبعدَ من هذا لا تنتظِرْ!

لو قبِلنا العبارةَ كما وردَت، ونحن لا نقبل استعمال أدوات غيرنا، ولو عمَّقنا البحث في مدلول الألفاظ لكان لنا جسْرُ تفاهم مع الناقدين الثوريين. ولنا إلى الجسور حاجة ريثما يَفِيءُ من يفيءُ إلى حقيقة ذاتنا، وهي أننا مسلمون. والإسلام يسمي النقد الذاتي توبة، ويُسمِّي معالجته الفردية التفصيلية استغفارا واستقامة، ويُسمّي

ممارسته الجماعية نصيحة، وتواصيا بالحق والصبر، وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر.

نعمِّق البحث في الدلالة اللفظية للوارد، فنجد النقد والنقض من بابة واحدة. أن تنقُد نصّاً أو إنسانا أو تنظيما هو أن تحلّلهُ ثم تركبه، أو تقترح تركيبه، على نسقٍ صوابٍ يصحح تركيبة النسق الغَلَط.

إن كانت أدواتك في النقد والتحليل والتركيب أخذتها جاهزة ومعها كيفية الاستعمال، ومعايير الغلطِ والصواب، فقد وقعت منذ بداية العملية في تناقض فاضح بين شطريْ عبارتك. إن كنتَ مسلما، أي ذاتاً مسلمةً، وأدوات فهم هذه الذات ونقدها من جوٍّ غيرِ جوِّ الإسلام فلن تفهم ذاتك إلاَّ إن كيّفْتها بكيفيات تلائِم طبيعة الفكر المحلِّل الـمُركِّب المصحِّح المصوِّبِ.

أو تكون ذاتُك زئبقِيَّة الكينونة، ويكون إسلامك مطّاطاً هلاميا قابلا للتشكل، فالعملية -وهي صَرامة مبدئيا- تؤول إلى لَعِبٍ مستريح مريح، تكذب فيه الذات على نفسها بأساليب تكتسي طابَع الجِدِّ كما يستبدل البهلوان أقنعته الضاحكة الباكية.

النقد أن تنقُض ما بناه فيك غلطك، وأن تواجه غلطك بشجاعة، وأن تزيح الفاسد وتستصلح السالم بلا هوادة.

ما بناه فيك غلطك أنت، وحكمت أنت بمعاييرك الذاتية أنه غلط. أمّا إن كانت معاييرك من عندِ غيرك فقد جازفت بالذات، وزيّفت النقد. والنقد في أصل اللغة: اختبار العملة لمعرفة زيفها وزَغْلها.

تكون في صلح تام مع ذاتك إن كنت لا تعي أن ذاتك التقدمية الثورية الناقدة إنما بناها فيك ظرف تاريخي جعلك تستند إلى عِماد من خارج ذاتك، وبناها فيك تعليم، ومعلم، وثقافة، وكراهية واقع اجتماعي سياسي. فآلات النقد وموضوع النقد في تلاؤم، والعملية

عندك ممارسة مجيدة، والأسئلة المحرجة ليست مطروحة، والشجاعة لإعادة النظر في قواعد التفكير والعمل لا محل لها.

في هذه الحاجة توجه الذات المتصالحة مع نَفْسها نقدها للآخر، للمجتمع الصغير المحيط، وللمجتمع الكبير القومي والمحلي، وللنظام الحاكم، ولكل ما شئْتَ إلا أن تعود بالإشارة إلى نفسك بصفتك إنسانا لتسأل: من أنا؟ وما أنا؟ وإلى أين أنا؟

يَجْهَد المناضلون الديمقراطيون، ومنهم مخلصون ذوو مبادئ، للدفاع عن الذات الوطنية القومية، وعن الماضي المجيد الذي يجب ربطه بالمستقبل الوحدوي، وعن إرادة الشعب وحقه في التمتع بالحريات العامة، وعن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وعن حق المرأة والعامل، وعن النضال الواجب التكتل من أجله ليكون الشعب مصدر السلطات، وعن ضرورة دستور يختاره الشعب، وعن مؤسسات ديمقراطية تنهي في بلاد العرب حكم الفرد المستبد، وعن تكامل ووحدة وعزة. وعن دولة الشعب لا شعبِ الدولة.

كل ذلك والذات المناضلة راضية عن نفسها، مقتنعة بأن الشعب كمال في كمال، كما هو في أصالته لولا الأمية، وكما هم الناس أفرادا، نساء ورجالا وأسَرا.

إن كان يعتري القَلَقُ الوجودي المثّقف أحيانا، والشاعر، والفيلسوف، فيطرحون الأسئلة العميقة، فالسياسي المناضل المخلص -لا يستحق المحترف التِفاتَةً- يُحرِّك العموميات. إن تكلم عن التعليم والتربية ففي سياق برنامج متكامِلٍ مفروغ من فلسفته. السياق والبرنامج إن طالب بخصوصيات قومية وطنية وهوَية وأصالة لا يعمق السؤال لتستعمل مصطلحاتُه كلمات التوبة والاستقامة والطاعة والانقياد للشريعة.

إسلام زئبقي تظن أنك أمسكت به في المسجد في صف الصلاة، فإذا به يتفلت من يدك في ساحة الحكم والسياسة والبرنامج.

لذلك فتطرّقنا لحقوق الإنسان، هذه المزيّة الخاصة بأرباب الديمقراطيات القومية الغنية، يستلزم أن نغوص في التربة والجذور لنؤسس على قواعد من ذاتنا، ولنعالج النقد والنقض والبناء بأدوات من ذات إيماننا وشريعتنا.

وزعْمُنا أننا نقاوم العدوّ الخارجي إن كان العدوّ الخارجي تسكُن ذاتَنا ثقافتُه، ويحتل عقلَنا عقلُه، ويُحرك هياكلَنا روحُه، إنما هو زعم باطل. بناء الذات، إعادةُ بنائها، عملية تبدأ من تحرير أنفسنا، وعقولنا، ومصطلحاتنا معا، من الدخيل الساكن. من هذا الدخيل ما هو موروث «أصيل» فينا كما تتأصّل الأمراض الـمُزمنة.

تحرير من وارد، وتأصيلٌ لموروث، لكيلا يكون حديثنا عن حقوق الإنسان صورة للخطاب الغربي التائه في غرور سيطرته الثقافية، ولكيلا يكون حديثنا عن حقوق الإنسان صورة مخالِفة للخطاب الغربي كما يخالف الإنسان الإنسان، وكما تخالف القوميّةُ القوميّة، والهُوَيّةُ الهُوَيَّة.

ما نحن أهل لحمل رسالة الإسلام إن كانت ذاتنا شبيها مثيلا، أو مخالفا على مستوى الهُوَيات الحضارية والخصوصيات الثقافية، لا غير. لا، ولن نكون أهلا لحمل رسالة الإسلام، رسالةِ تحرير الإنسان من ربقة الكفر، رسالة البشرى للإنسان، إن كان أفقُ تفكيرنا وسقف طموحنا، لا غيرَ، رَبْطَ مستقبل نرجوهُ عزيزاً بين البشر عِزّةَ البشر بماض كان حضارةً عزيزة عزة البشر.

إنما يؤهلنَا لحمل رسالة الإسلام، الساطع على جبهتها عنوان الحق الأعظم للإنسان، إن كان جليا في عقولنا، ثابتا في أفئدتنا، مجسما في

سلوكنا، متجليا في ذاتنا، معنى إخراج العباد من عبودية البشر إلى عبودية الله، وهدف إخراج العباد من العبودية لغير الله.

جَلاء في العقول، وثبوت في الأفئدة، وسلوك عملي، وتجلٍّ في ذاتنا نحن. في ذاتنا أولا. وإلا فنحن نكِراتٌ تجول على سطحها، وخطابنا عن حقوقٍ للإنسان تُنصفُ، وتعدِل، ثم ترفع الإنسان من وَهْدَةٍ إلى قِمَّة، إنما هو كلام يُلاكُ، وهلاك في هلاك.

أي نقد ونقض يلزمنا!

نقد عقلانية لا تستجيب لله، ولا تلبي داعي الله. نقد قلوب متحجرة يابسة قاحلة، مسلمة بإسلام أعرابي، أو منافقة متلَجلجة كاذبة خاطئة. نقد فعل يناقض العمل. نقد مسلمين بلا إسلام البتَّةَ، أو مسلمين بإسلام مصلين لا يعرفون من الإسلام إلا عبادات فردية، لا يتجاوز عِلْمُهم ولا نيةُ فعلهم حدود ما رسمته اللاييكية الموروثة والأخرى الوافدة.

أعني باللاييكية الموروثة ذلك التسييج القابض على العقول أن تجتهد، وعلى أفعال المسلمين أن تتعدى نطاق صلاتك وصيامك ونسُكك. ولا تسأل عما وراء ذلك، إذ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. ويُفسر الاحتكار الـمُأْلِيك للدين نصوص الدين على هواه، فيُعَلّمك أنّ مِمّا لا يعنيك، ولا يتعلق بذمّتك، ولا يَصلحُ لدينك، أن تتدخل في السياسة، وتنتقد الحكم، وتعمل على إقامة دولة القرآن.

كيف يجتمع شطرا اللاييكية، الموروثةِ والواردةِ، على كلمة سواءٍ؟ كيف الحوار بين أصَمَّ عن سماع ندَاء الله، وأبْكمَ خنقوا صوته؟

الفصل الثالث

النداء والاستجابة

- نقطة الارتكاز
- ما هو الدين؟ ما هو الإسلام؟
- حقوق الإنسان في دولة القرآن
- الرابطة الأخوية
- المسلم في جماعة المسلمين
- الرقيب القلبي
- الأعمال الاجتماعية
- عاهة الكِبْر
- أيّ إنسان، وأية نفسية؟
- الديمقراطية وميزان العدل
- أسئلة إسلامية على الديمقراطية
- ما يجمعنا؟
- تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ!
- الدمج والاندماج
- الدمج القومي
- إعداد القوة
- غـثاء السيل
- القصعة والأَكَلَة
- استقلال ولا تحرير

نقطة الارتكاز

لكي تحرك ساكنا ثقيلا لا بد لك من نقطة ارتكاز خارجة عن ذاتك، تعتمد عليها فتعطيك القوة التي تحرك من اللّجة التي أنت غاطس فيها. لا بد لك إن أردت حوارا مسموعا بين الأصَمِّ والأبْكم أن تُؤَذِّن أذانا يخترق حواجز سوء التفاهم، وسيّءِ النياتِ، ومُتراكِم الرّانِ على القلوب، والجهل العقلاني الفلسفي الملحد والملْتحِد في العقول والعاداتِ الـمُنيخةِ بكلكلها على إرادات العمل.

ألا إنه أذان الله عز وجل إلى عباده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أوحِيَ إليه خطابٌ أكيدٌ إلى العباد المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾[1].

أذان يريد تلبية، نداء يطلب استجابة.

في سياق الشورى تمثل الاستجابة لله وللرسول واسطةَ العِقْدِ. وللديمقراطية مساقها. إن استجابت لداعي ضرورة الوعي بما يفعله الاستبداد حليف الاستعمار، ولداعي تحرير إرادة الشعب، ولداعي بناء المجتمع المدني قاعدة الديمقراطية، ولداعي تشييد دولة الحق والقانون على ركائز مؤسسات ديمقراطية، فإن الاستجابة لله والرسول لا تدخل في مساقها، ولا هي من مقولاتها. ولِمَ تُدخلون الدينَ في السياسة. ولم تستغلون الدين لأهداف سياسيةٍ!

أذانُ الله عز وجل ونداؤه نقطة ارْتكاز خارجة عن ذاتنا التي نريد نقدها. والاستجابة المخلصة له وحدها تَقْلِعنا من حمْأة القلوب الـمَرِجة، وغُمّةِ العقول المستحمَرة، وحوضِ العادَاتِ العفِنِ.

(1) سورة الأنفال، الآية: 24.

دعانا الله عز وجل ورسوله لما يُحيينا. لما يحيينا بحياة غيرِ عيش المذَلّة، والجوع، والخوف، والذيلية، والنّكارة بين الأمم، والهُزال، والهزيمة.

قال المفسرون رحمهم الله: لما يُحييكم: لما يصلحكم. قالوا: الذي يحييكم هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة. قالوا: في الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر. قالوا: الذي يحييكم هو الجهاد الذي أعزكم به بعد الذل.

استجابة هي الحياة، والصلاح، والنجاة، والعز.

وهي هي الفاتحة لمجال الشورى، الضامنةُ لجمع الكلمة على سواء. وهي هي القانون العام الشامل للحقوق الشرعية، إن كانت الاستجابة لله وللرسول شاملة. فأما إن آمنّا ببعض الكتاب وكفرنا ببعض، إذا صلينا وصمنا فرادى، وتحاكمنا إلى القاضي الشرعي في شؤون «الأحوال الشخصية»، ثم أعرضنا عن الشريعة في الفضاء العام، في تسيير شؤون الحكم، في الاقتصاد، في الإدارة، في علاقتنا بالغير، في التعليم، في العادات، في وضع الدستور، في فروع القانون، فما جزاء من يؤمن ببعض كتاب الله ويكفر ببعض إلا خزْيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُردون إلى أشدِّ العذاب.

ما جزاء من يسمع جملةً من الأذان، ويستجيب لكلمة من كلمات النداء متصامِماً عن سائرها، أو أصَمَّ عنها جهلا وعِنادا، إلا ما نشاهده هنا من خِزْي أصاب الأمة عامةً بما جَنَى الخاصة من الذين ظلموا. ويومَ القيامة يُردّ الذين ظلموا وحدَهم، الجُناةُ البغاةُ الصمُ البكمُ الذين لا يعقلون، إلى أشد العذاب. وما الله بغافل عما يعملون.

إن الإسلام الزئبقيّ، اللاييكي الموروث واللاييكي الوارد، طعنةٌ في قلب الدين، وغبَشٌ في عقل الدين، وصُداع في رأس الدين. فحَرِيٌّ

بقلوب مطعونة، وعقول غَبِشَةٍ، ورؤوسٍ مصدوعةٍ، أن لا تستجيب تلك الاستجابة المنجية، الـمُعزة، الـمُحِقَّة للحق، المبطلة للباطل.

الدين كلمة، الدين مفهوم، الدين مصطلح تلقَّى المستَنْبَتُون في حقولنا من حرث الاستعمار والاستحمار مدلولَه التاريخِيّ المتَأزِّمَ الحاصل من صراع العقل التنويري التحرري مع الكنيسة عدُوّة العقل والحريات. فالدين رجيون: أي ممارساتٌ كنسية كهنوتية مشبوهة متهمة مجرمة. أو هو في أحسن التقدير قضية شخصية، واقتناع يُحترمُ مع رِثاء متسامح.

الإسلام دين بهذه المعاني. ففي منطق المستَنْبَتِين الإسلام ممارسات واقتناع شخصي، أنا وأنت فيه سواء. فلم تريد احتكار الإسلام دوني؟

محاوِرٌ يرجو نقداً للذات جدِّيّاً، يرجو لنفسه وللناس توبة واستقامة وانقيادا للشريعة وعزة للأمة وفلاحا أخرويا للمسلمين، يتعين في منطقه مراجعة المفاهيم لتصفيتها، واستخلاصها، وتحريرها، ليتحرر العقل من أوْشابِه، والفؤاد من سَيِءِ أعشابه.

ما هو الدين؟

ما هو الإسلام؟

وضوحُ المعنيين تجلية للنداء، وتقوية لصوت الأذان، ورَسْمٌ لمعالم الحركة المستجيبة.

ثم لا فائدة من مخاطبة قوم لا يسمعون، قوم لا يحبون أن يسمعوا. لأن من لا يسمع سمعَ المتجرد من أحكامه المسبقة، وسمع طالب الحقيقة، وسمْعَ الراجع من جولاته العقلانية الخرساء التي لا تجيب عن الأسئلة الجوهرية، ذلك لا يستجيب للنداء. قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ** ﴾[1].

(1) سورة الأنعام، الآية: 36.

ما يفيد الحديث عن الدين ومعناه الإسلامي الإيماني الإحساني مع من يسلُكُ الكلام في أذنيه ولا ينفُذ إلى قلبه؟

قال الله تعالى يخاطب عباده المؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[1].

خمسَ مرات تكرر لفظ السمع في ثلاث آيات. وذكرت وظيفتا الإسماع والسمع منفية في حق «الصمّ البكم»، ونُفي العقل عمن لا يسمع السماع القلبي فلا يستجيب، ووُصِف الذين لا يسمعون بأبلغ القول، فهم شر الدواب. إن كانوا بالمعايير الأرضية ناسا من الناس، ناسا من أذكى الناس وأكثرهم تأثيرا في المجتمع، وقدرة على فهم ما يجري في العالم، وخبرة علومية بحركة الكون وأسرار المادة، فهم عند الله شر الدواب إن كانوا لا يسمعون كلام الله بنية التنفيذ.

ذلك أنهم صنفوا أنفسهم، وهم العقلاء الخبراء، مع الدواب. حيوانيتهم لهم بادية، والشبَه تشهد به علوم البيولوجيا والفزيولوجيا، ومُسْتَحثّات الحفائر تؤلِّف تسلسلا يعرفه جيدا علم البليونتولوجيا وفي خدمته علوم مدقِّقة لها آلات من آخر ما اكتشفه العقل البشري مثل طرائق تأْريخ العظام الحيوانية والآثار النباتية، ومثل الميكرسكوبات البصرية والإلِكترونية واللازيرية، ومثل التصوير بالراديو واللازر. ومَسْلحة العلوم تزخر بالعجائب المعجِّبة، ما منها إلا من يخبر بغير خبر الوحي، بل بنقيض خبر الوحي.

ما منها إلا من يزيد نغمة، ويقوِّي صيحة، في جوف النداء الدوَابّي. الذين لا يسمعون نداء الفطرة، وقد طمست لديهم الفطرة، وسُدّت

(1) سورة الأنفال، الآيات: 20 - 23.

مسامعها، وخُنق صوتها فصمَّت وبَكِمَتْ، يصغون للجوقة «العلمية» الرفيعةِ الاعتبار في ميزان البشر، المنحطة عند الله ورسوله والذين آمنوا في دركة الدوابية الأَشَرِّ.

أَصْغَوْا قومُنا من النبتة المستنبتة للنداء الصاخب الهوَسِيِّ، وصغَتْ قلوبهم ومالت عن الأذان الإلهي النبوي. استُدْرِجُوا بإديولوجية «تنويرية» لبرالية ديمقراطية، أو اخترقت الإلحادية اليسارية الثورية كلا أو بعضا من ذاتهم الموروثة، أو نسفتها نسفا. اجتاحت الثقافة الغازية العقول، واستجاب من استجاب، وحارَ منْ حار بين دينه الموروث وبين عقيدة علومية دوابية تطورية كدست في متاحف التاريخ القديم نماذج مُرَقمة مدروسة لهياكل الحيوان العمودي المتقدم عُضوا عضوا وفقرةً فقرةً نحو الانتصاب، واستقامة الأنف، وتغَوُّر محاجِر العين، وانبساط الأسنان والأنياب، وقبضة الإبهام، ودخائل جهاز الهضم، وسائر الكثائف واللطائف.

أبعد هذا العرض «العلمي» كلام!

دابة عند نفسها، شر الدواب عند الله. وما عليك إلا البلاغ.

ويُسمع الله من يشاء. قرأنا: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[2].

ما هو الدين؟ وما هو الإسلام؟

ما هو الدين؟ ما هو الإسلام؟

من لنا بأذْنٍ جديدة! من لنا بقابلية للتلقي! من لنا بعقل يُراجع الفطرة فارّاً من الصخَب الـمُصِمِّ الذي ينادي بكل صوت ولون ولغة

(2) سورة الأنفال، الآية: 23.

وصورة وآلة أن الإنسان دابّة مدعوَّةً لوليمة الحياة/ المتعة، الحياة/ العبث، الحياة/ النضال ولا شيء بعد النضال إلا شهادة التاريخ، ومجد التاريخ، والصَّدى التاريخي الذي يُعلم الأجيال أني مررْت من ها هنا!

من لنا بيوم كامل نخصصه للغوص العميق في نفوسنا لنتعجّب من وجودنا. من لنا بنصف يومٍ نصدق فيه مع أنفسنا لنسألها السؤال الـمُحرج. من لنا بساعة شجاعة مستميتة نمسك بخِناق أنفسنا لنسألها من أين وإلى أين ولماذا!

سؤال ما هو الدين وما هو الإسلام فضول فكريٌّ، أو نشاط ثقافي، أو نزهة في البستان المعرفي، أو تنقيب في التراث، إن لم يسبق السؤالَ يأسٌ كَشَفَ عن عينيَّ غموضَ إسلام أدَّعيه -وربما أصلي- ولا أعرفه، وكَشَفَ عن نفسيتي خوفاً من إسلام متحرك هاجم يهدد مواقعي السياسية الاحترافية والنضالية الوطنية القومية.

كُشِف عن عينيْ عقلي الغموض، وعن نفسيتي الخوف، فأنا أريد أن أعرف، من حقي أن أعرف. أولَيْسَ حقُّ الإنسان في معرفة الدين والإسلام أسبق الحقوق وأعظمها وأجلّها!

الدين لغة الانقياد والخضوع. فالدين عند الله انقياد، واستجابة مخلصة، وطاعة مبدئية لله ورسوله تُصَدِّقها طاعات، وتكاليف، ووقوف عند حدود، ومسؤوليات.

أول مراتب الدين الإسلام. والإسلام أركان خمسة هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا. بديهيات عند كل مسلم، ومن النخبة المثقفة الطافية على السطوح المغرّبَة عن دين آبائها مَن هذه البديهيات عنده آثار عتيقة وموروث شعبي فولكلوري لم يتنوّر بَعْدُ.

بيت ديني خراب إن كانت أركان إسلامي عندي نفاقا، وشهادة زور، وتركا للصلاة، وبخلا بالزكاة، وصوما لئلا يُقال، وحجٌّ أسمع أن من الناس من يفعله ليلقّب حاجّاً. و«ذاكرة تاريخية» عن عهد مضى وانقضى.

الإسلام اعتراف بالقلب واعتقاد، ووفاء بالعمل، واستسلام لما أمر الله به ورسوله.

ما الدين رليجيون طقوس وكهَنوت. ما الإسلام إديولوجية نضال تمكنني من استعادة هُوَيتي الثقافية، وتمنحني الشعبية التي بدونها لا تتعبّأ الجماهير. لا غير.

الدين لقائي مع الله هنا على صعيد العبودية له والخضوع والفرح بأنني مخلوق له رسالة في الحياة ومآل بعد الموت.

الإسلام إخلاصٌ وطاعة ووفاء. إخلاصي أنا الفرد الذي يأتي ربه فردا يوم القيامة. طاعتي أنا المسلم، وأنا المسلمة، أجْزى على أعمالي وأعاقب على ذنوبي في دار آخرةٍ أنا في شَغَفٍ ليحصُل لي اليقين بها. وفائي أنا، إن خنت في دخيلة قلبي بالنيّات المنافقة، أو خنت في أعمالي بالتفريط، فمصيري الأخروي معرضٌ للخسران.

ما الدين عقيدة رسمية لدولة تفرض على الناس الخضوع لها. ما الإسلام مذهبية حزب سياسي يقوم تنظيمه على انضباط ثوري.

وما الدين بمعزل عن الدولة وعن التنظيم السياسي.

وما الدين قضية شخصية يتسامح بصددها المسلم مع الكافر، والتائب مع المرتد.

الكافر اختار لنفسه فلا إكراه في الدين. ولا يمكن أن تفرض على الخلائق بالضغط الخارجي إخلاصا هو شرطُ أن يكون الدين عند الله دينا، والإسلام إسلاما.

والتائبون سمعوا واستجابوا، وصَمّ المرتدون وأعرضوا. فأولئك وهؤلاء في خاصة أنفسهم فردا فرداً حسابهم على الله ما دام التائب مخلصا يعلم الله منه ما يعلم، والمرتد يُصِرُّها في نفسه ويكتم عنا ما يعلمه الله ولا نعلم.

أما في عامّة الحياة الاجتماعية السياسية، فالمنافقون والتائبون يُميزُهم سياق الشورى، وبنود الشورى. المستجيب لله داخل، والمعرض خارج.

لا تَعرِضُ الشريعة الإسلامية للمنافق في خاصة نفسه، ولا تنقب عن حياته الخاصة ما دام لا يتحدى بكفره أو زندقته أو سخريته بالإسلام النظام العام.

فإذا نطق ولم يصمت، وتحدى ولم يُمارِ، فالرِّدّة لها أحكامها في الشريعة. تُعِدُّ الدّوَل الديمقراطية بنودا في دساتيرها وقوانينها لتعاقب بأقسى العقوبات من تثبت عليه الخيانة العظمى. ويَعُدُّ الإسلام أكبر الخيانات أن يرْتد المسلم والمسلمة بعد إسلام. ذلك أن الدخول في الإسلام لم يحصُلْ إكراها، وأن إسلام المسلمين يتضمّن الوَلاء الكامل لأمة الإسلام. فمتى نقضَ المرتد إسلامَه فقد نقض وَلاءه للأمة.

والأمة حاملة رسالة رب العالمين إلى العالمين. فهي في تعبئة دائمة كما يكون الجندي معبأ في صف القتال. فمن نقض وارتد فقد أحدث ثغرة مُؤثرة في الصف.

في هذا تختلف الديمقراطية، اللاييكية بطبعها، عن حكم الشورى. وتختلف حقوق الإنسان فهْماً ومقاديرَ وطبيعة بين المتعارَف عليه دُوَليا وبين المطلوب شرعا.

المتعارف عليه دوليا انتهى منذ قرنين، منذ الثورة الفرنسية مُؤَسِّسة الفكر اللاييكي، من إعطاء أية قيمة سياسية اجتماعية لكون المرء مؤمنا بهذا الدين أو ذاك، أو كافرا دهريا، أو لاَ أدريّاً شاكّاً. هذا على الأقل على صعيد المبادئ والقوانين المكتوبة.

فإذا كنتَ مُسلما تعيش في كنَف الديمقراطية وعلى ترابها فتهمة الخيانة مكتوبة على جبينك بسِحْنة وجهك ولون جلدك. وحدِّثْنِي عن اضطهاد المسلمين العربِ والترك في أوربا الديمقراطية جدّاً!

أقدس ما يجمع المسلمين الوَلاء لله والوَلايةُ في الله. فالإخلاص لله وفي الله معقِد جماعة المسلمين. من جهَر بردّته فقد طعن في المقدَّس الجماعي. كما أن من خان الوطن أو أفشى أسرارا عسكرية فقد طعن فيما يربط المجتمع المدني قاعدة الديمقراطية، وهو العَقد الاجتماعي في فلسفة روسو، أو الدستور والقانُون في المتعارَف الدولي.

الإسلام مرتبة في الدين هي الحد الأدنى الجامع بين المسلمين. ينقص إخلاصُ بعضِهم، وعملُ بعضِهم، وغَناءُ بعضِهم، ومشاركةُ بعضِهم، فأولئك مسلمون إسلاما أعرابيا قد يَندسّ فيه المنافق. ويسمو بعض المسلمين بالإخلاص، والصدق، والعمل الصالح، والخلق الحسن، وسائر شعب الإيمان البضْعِ والسبعين، فيَرْقَوْنَ إلى المرتبة الأعلى في الدين: وهي الإيمان.

المؤمنون، لا المسلمون في المرتبة الدنيا، هم المخاطبون بالقرآن في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾. هم، لا المسلمون في المرتبة الأولى من مراتب الدين، المستوْفونَ لخصال الاكتمال في السياق الشوري، الحاملونَ الحِمْلَ، المسؤولون عن الواجب، الحُماةُ حِمَى الشريعة، المستنْفَرُون إلى جهاد دائم.

ويَرْقَى بالهمة العليّة، وتمام الإقبال على الله، وكمال الخلق، وسلامة القلب، بعض المؤمنين إلى مقامات الإحسان.

يُحبّ المؤمنون والمؤمنات الفضل من الله، والجزاء من الله، والثواب على الأعمال من الله، والجنةَ دار السعداء عند الله. ويحب المحسنون المغفرة والعفو والجنة. ويحبون الله، يتقربون إليه حتى يحبَّهم. والله يحب المحسنين.

حقوق الإنسان في دولة القرآن

أما الحقوق فالمسلمون والمؤمنون والمحسنون فيها سواء. أفضلهم من يبذل ويجود ويخدم لا من يبخل ويتكبر ويستعلي على الناس.

حقوق المسلم على الدولة العدل والأمن وضمان مقاصد الشريعة وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العِرض، وحفظ المال، وحفظ النسل.

حقوق ضرورية هي الحد الأدنى مما يستحقه المسلم على دولة الإسلام. وفي تكارم المسلمين وتوادِّهم وتعاطفهم وأُخُوّتهم مجال للرخاء المادي والمعنوي.

فحقوق المسلم الفرد على المسلمين أفراداً تفصلها الشريعة، فهي من الدين، هي دين.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ**

وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.[1]

القرآن كله عظات، وتذكير، وسرد أمثال للصالحين، وحث على مخالقة المسلمين بالخلق الحسن، وعلى إنصاف كل الناس ومعاملتهم بالحسنى مهما كان دينهم، ومهما كان قومهم. فالبرّ بكل الناس، والقِسْط إلى كل الناس مهما كانت عقيدتهم مبدأٌ قرآني. من حقهم المضمون شرعا، المأمور به، أن لا يظلَم منهم أحد، بل يُبَرُّ ويحسن إليه.

حقوق للإنسان مضمونة لكل إنسان، ولكل أمة، بشرط واحد هو أن لا يقاتلونا في الدين. قال الله تعالى: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**.[2]

مطلب الديمقراطية تحدوه الرغبة الحرة في خلْع رِبقة الاستبداد. والديمقراطيات إطارها الدولة القومية، وحقوق الإنسان التي تدعي الديمقراطيات الدفاع عنها لا يَتَجَاوز تطبيقها الفعلي حدود القوم المواطنين كما تدل على ذلك شواهد العصر اليومية.

مطلب الشورى وحكم الشورى حين يتحقق يحدوه الخوف من الله، والطاعة والانقياد لأوامر الله. وأوامر الله واضحة فيما قرأنا من سورة الممتحنة. وهي البِرُّ الذي لا يقف عند حدود. البر بالإنسان من حيث كونُه إنسانا. لا يبطِل حقوقَه انتماءٌ عرقي أو لغوي ولا ديني ما دام لا يقاتلنا في الدين.

---

(1) سورة الحجرات، الآيات: 10-12.

(2) سورة الممتحنة، الآية: 8.

نَقف عند تخصيص المقاتلة بكونها في الدين، لكي تخرج النزاعات العادية التي تحدث بين البشر. لا يَحْرُم تنازعُ الناسِ مع المسلمين أحدا من حق البِر والقسط إن كان التنازع سياسيا اقتصاديا مثلا.

حقوق الإنسان المتعارَف عليها دُوليا على صعيد المبادئ والمعاهدات هي أمر آخرُ غيرُ الحقوق الممنوحة والمنزوعة على صعيد الواقع. ذلك أن الديمقراطية يشكو العقلاء المتخلقونَ فقرهَا الـمُدْقِعَ من الأخلاق، وحاجة الديمقراطية إلى تخليق.

في الإسلام سياق واحد للحكم والأخلاق والعبادة الفردية، سياق واحد لا ينفصل، الدنيا فيه شارعة على الآخرة، منفتحة عليها. رعاية عهد الله وأمر الله واجب واحد يستبطنه المسلم عقيدة والتزاما، ويستبطنه الحكم الشوري واجبا خلقيا كما هي سائر الواجبات، ويُلزِم باحترامه سلطانُ الحكم كما يُلْزِم به الضميرُ المسلم العام المتمثِّل في التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر.

على المسلم الفرد، وعلى المسلمين حكومة ودولة وأمة، حقوق للإنسان، تُؤَدّى للإنسان دينا يدين به المسلم ربه عز وجل، وتدين به الدولة والأمة. يشمل حقُّ البِر بالإنسان الرحمةَ به، وإسعافه، والرفق به، واحترام حياته وكرامته. ويمتد حق القسط إلى الإنسان ليتوسّع في التهمم بما يلحق الإنسان الفرد من ظلم، وما يظلم فيه المستكبرون في الأرض المستضعفين في الأرض.

معناه أن مشاركة الدولة القرآنية والأمة الإسلامية في رعاية حقوق الإنسان كما هي مبينة مجملة في القرآن، وكما هي مفصلة في فقه أهل القرآن واجتهاد أهل القرآن، فرضٌ من الفروض لا مجرد لازِمةٍ تزيِّن الواجهة كما هو الحال في تَغَنّي الديمقراطيات بحقوق الإنسان.

ثم إن على المسلم للمسلم حقوقاً خاصة يُكَوِّنُ مجموعها عُشّاً ناعما رحيما يَسكنه العمران الأخوي. فصلته الآيات من سورة الحجرات. وفصلهُ مجموعُ الوحي الإلهي من قرآن كريم وحديث نبوي سليم.

هذه الحقوق الخاصة تصون حرمة المسلم والمسلمة وكرامتهما. فلا يحل لمسلم ومسلمة أن يسخرا من مسلم، ولا لقَوْم -أي جماعة- من المسلمين أن يسخروا من جماعة. ولا يحل أن ينادَى المسلم وتنادى المسلمة بلقب لا يحبانه. ولا يحل أن يشار لمسلم ومسلمة بكلمة نابية جارحة.

بل تصان حرمة المسلم والمسلمة في غيابهما وفي مكنون ضميرهما. فلا يحل أن نغتاب مسلما ومسلمة. ولا يحل أن نُسيء الظن بهما دون حجة مُرَجِّحَةٍ وبيِّنة مثبتة.

إن ممّا يفرضه علينا ديننا أن نحسن الظن بالمسلمين ما لم نتبيّن فيهم الخديعة، وما لم يُصرحوا بما يجعل الشك يقينا. والـمَرءُ يُنفق مما في جرابه. ما بِنا إن شجَبْنا النفاق والمنافقين، والردّة والمرتدين، أن ننقص من قدر أَحد من المستورين. لولا أن في الطبقة السياسية من يجهرون بالمطالبة بحقهم أن يُلحدوا ويَكفروا، ولولا أن من المناضلين السفهاء من يلوث المصحف في الساحات العامة ويبول في المساجد ثم يجد من الصحف المناضلة والكتبة المناضلين من يدفَع عنه في صدر «الظلاميين»، لما صَحّ أن نتهم أحدا أو نسيء الظن بأحد.

أمّا والمجاهرة بالإلحاد، والمطالبة بالحرية الفُسوقية، والحطّ من الإسلام والمسلمين، باتت من النثْر الفني في صحف الفاسقين، ومن الكلام المتداول في مجالس الملحدين، فمن الغفلة والغباء أن نسكت حذرا من الوقوع في إساءة الظن بالمسلمين.

ينفق المرء مما في جرابه. وتوشك سلامة طويّة المؤمنين أن ترمي بهم في دروشة حالمة، ينسبون إلى غيرهم مثل ما تنطوي عليه ضمائرهم. يرحم الله الإمام عُمر بن الخطاب القائل: «لست بالخَبِّ ولا الخَب يخدعني». الخَبّ: الخداع الماكر المنافق.

نعم، نعذر بالجهل بعض من يرموننا بالتهمة الجاهزة. أننا نفتعل الإسلام لأغراض سياسية. نعذِر لأنّ المتهِمين متشبعون باقتناعٍ أثبته التاريخ أن أجيالا من طلاب الحكم، والساطين على الحكم، والممارسين للحكم إلى وقتنا هذا، وفي وقتنا هذا خاصة، لَبِسوا زورا لباس الدين ليموهوا على الناس وليكذبوا على الناس.

ثم نعذر لأن المتّهِمينَ مفصولٌ في ذهنهم الدين عن السياسة، تركيبَةً لاَ تنحلّ في الذهن اللاييكي.

نعذر، ثم نعذر. لكن نقيسُ الأحكام بالأحكام، ونُقَدّرُ الحال بالمقال. فكل إناءٍ بالذي فيه يرشَحُ.

فاصلة، ونرجع لحديثنا عن الحقوق الخاصة بالمسلم بين المسلمين منها أن نحفظه في غيْبه ومكنون صدره. لأن سوء الظن إثم. ولأن التّجسس على المسلمين إثم.

ويفصل الحديث الشريف حقوق المسلم على المسلم، والمسلمة على المسلمة، في مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «**حق المسلم على المسلم سِتّ: إذا لقِيتَه فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصَح له، وإذا عطِس فحَمِد الله فشَمِّته، وإذا مرِض فعُدْهُ، وإذا مات فاتْبَعهُ**».

وفي أحاديث أخرى أَمَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يَبَرَّ بعضهم قَسَمَ بعض، أي أن يوافقَه ويُساعدَه ولا يُعارضه في

أمرٍ عزم عليه وأقسم ليفعلَنَّه أو لا يفعلنَّهُ. وأمر المسلمين أن ينصروا المظلوم. وأمرهم أن يكونوا عباد الله إخواناً لا يتقاطعون، ولا يتدابرون، ولا يتباغضون، ولا يتحاسدون، ولا يهجُرُ بعضهم بعضا فوق ثلاث ليال إن وقع خصام.

الرابطة الأخوية

هذه الحقوق وما شابهها مما ورد به الكتاب ووردت به السنة، تُرسي دعائم المجتمع المسلم على قواعد التحابِّ والتعاون والبذل، واحترام المسلمين، وصون كرامتهم، وحفظ عرضهم.

لُحْمَةٌ من الأخلاق الرفيعة سَداها رعاية وصية الله ووصيةِ رسوله.

مجتمع رابطتُه أخويَّةٌ تنعقِد في صف الصلاة في المسجد. فالصلاة عبادة فردية تتعلق بذمة المسلم، لكنها إن أدّيَتْ جماعة وفي المسجد فضَلَتْ الصلاة الـمُؤداةَ على انفراد خمسا وعشرين ضعفا.

الصلاة جماعةً تسلُك المؤمنين والمسلمين في سِلك رابطةٍ روحية تعمِّقُ المحبة وتقدسها بين المسلمين إذ تذكرهم خمس مرات في كل يوم من أيام حياتهم أن الذي يجمعهم، ويقرب بعضهم من بعض، ويُدْمجُ بعضهم في بعض، أسمَى من الرباط المدنيِّ الحضاري السكني المصلحي. هم إخوة في الله، يقفون بخشوع في صف الصلاة بين يدي الله، فتسري من قلب لقلب معاني الوَلاية في الله المشْتقّةِ من الوَلاء لله، ومحبة الله، والإخلاص لله.

رجّحَ الفقهاء الحنابلة رحمهم الله أن الصلاة لاَ تُجْزِئُ في حق المسلمين من الرجال إلا جماعة. وفي المسجد إلا لعذر. ولهم أدِلّة قوية على مذهبهم.

والزكاة الركْنُ الاجتماعي من أركان الإسلام صِلة أخرى بين العباد وربِّ العباد. صِلَة ماديةٌ لها مقاديرُ ومواقيتُ ومستحقون. عبادةٌ هي، وشرط هي في صحة إسلام المسلمين، لكنها لا تُؤدّى إلاّ في المسلمين، وبين ظُهْرَانيْهم، لتساعد الفقير، وتَرْفِد المسكين، وتنظِّم التكافل الاجتماعي، وتحبِّبَ إلى الناس الإسلام لما في البذل والعطاء الإسلاميّيْنِ من حفظ كرامة وضمان عيش، ولتحرر الرِّقابَ من العبوديات لغير الله، ولتفُكَّ ذِمّةَ الـمَدِينِ الغارمِ، ولتُبَلّغَ الـمُنقطع الغريبَ مأمنه، ولتجهِّز الجماعة المسلمة بلوازم الجهاد في سبيل الله.

الزكاة عبادة جماعية بوسائلَ مادية اقتصادية كما هي الصلاة عبادة ترفع الجماعية في أدائها قيمتها الروحية، ونورانيتها التربوية، وثوابها عند الله أضعافا كثيرة.

أما الحج فالجماعية فيه أظهرُ وَأكثرُ. الصلاة تجمع أهل الحِلّةِ والحي، وصلاة الجمعة تجمع أطراف المدينة، والزكاة تُغني أهل البلد وتقرب فقيرهم من غنيهم، وتطفئ ما عسى يكون في مجتمع متفاوت الطبقات من ضغائن.

ويجمع الحج في مكان وزمان محدديْن كافة المسلمين ليُشعِرهم أولا أنهم في الدنيا عابرو سبيل، يذكرهم لباسُ الإحرام بكفن الموت، ويذكرهم شظف الحياة وشَعَثُ الحالة الجسدية وتعب التنقل والحمْل والحط أن الدنيا دار امتحان وتَعب لا دار استرواح ومتعة.

وليشعرهم ثانيا أن المسلمين أمة واحدة، يَمثُلُون أمام قبلتهم الحسية الواحدة، يذكرون ربهم الواحد، يصلون صلاة واحدة، مطمحهم واحد، بشر به رسول واحِد مؤكِّدا ما بشر به الرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام.

والصوم عبادة تجمعُ في الحس والمعنى ما تجمعه الصلاة، وتجمعه الزكاة، ويجمعه الحج.

والشهادتان، أول ركن من أركان الإسلام، هما الجامعة الكبرى، والباب والمدخل، والهُوَية والتعريف. المسلمون أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله قبل كل اعتبار. هم أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا أن تغلب في الشعور هُوَيّةٌ أخْرى مُفَرِّقَةٌ، كقومية وعشائرية ونِسبَةٍ وثقافة وطبقة اجتماعية.

الجهاد الذي تُعبّأ له جهود المسلمين وأموالهم من زكاة واجبة وصدقة يحب الله مُؤتيها عبادة أخرى جامعة أكثر ما يكون الاجتماع متعيّنا. اللفظة لها مدلول لغوي كما لها حُمُولة تاريخية يشيران إلى أن الجهاد يعني الجماعة، وأن الجهاد يعني المشاركة. جاهد على صيغة «فاعَلَ» وهي صيغة مشاركة في الفعل.

وهكذا نستقْرئ مفردات الواجبات والنوافل وفضائل الأعمال والأخلاق في الإسلام، فنجد أنه دين جامع، دين جماعة.

وتأتي الحقوق الـمُفصَّلة التي كتبنا بعضها لتتمم النسيج الأخوي.

ينفرِزُ المجتمع المسلم عن المجتمع المدني في التركيبة الاجتماعية من حيثُ الحقوق، ومن حيث الأخلاقُ، ومن حيث السِّلكُ الناظمُ الحافظُ وحدةَ المجتمع.

المسلم في جماعة المسلمين

جماعة المسلمين الخارجة من محضِنها التربوي الروحي في المسجد تكتمل في النظام السياسي الشوري. من تحت النظام الشوري تلاحم

قَبْلِيٌّ، وتراحُمٌ، وتوادٌّ، وبذل، ومخالَقَةٌ، وحماية للمظلوم، وتناه عن المنكر، وتآمر بالمعروف، وفعل للمعروف، وتكافل اجتماعي، وشعور بالوحدة في الله، وولاءٌ في الله. وكل ذلك دينٌ، وكل ذلك تحْرسه ذمة كل مسلم ومسلمة، ويرعاه حِرص كل مسلم ومسلمة على سلامة مصيره الأخرويِّ من التّبِعات.

سلوك المسلم والمسلمة فرادى داخل جماعة المسلمين هو العامل الأساسي في تماسك الجماعة، لا القانونية الحقوقية كما هو الشأن في المجتمع المدني الديمقراطي. قانون الشرع، والحقوق المفصّلة لكلٍّ ضمانٌ احتياطيٌّ يفصل فيه القاضي ويعزِّر على الإخلال به السلطان.

ويَكتمل المجتمع المدنيِّ في النظام السياسي الديمقراطي الحقوقي القانونيّ. العقلنة فيه، وترتيب المؤسسات، وتحديد المسؤوليات، والمتابعة على المسؤوليات، هي العامل المؤسِّسُ. لا الضمير الخلقي، والنسَبُ الروحي.

المدَني الديمقراطي يستحق الصفَةَ بقطع النظر عن أخلاقياته، لا يقدح في مكانته الاجتماعية ووظيفته السياسية ما يُمارِسُه في حياته الخاصة، وما يعتقده، وما يَدين به أو لا يَدين. ولا يُسأل مواطن في بلاد الديمقراطية عن شيء زائد عن واجبات المواطن، يحددها القانون ويعطي عِوضاً عنها حقوقا.

لا يسأل المواطن إلا أن يكون وزيرا وحاكما بالغ في اتخاذ الخليلات، ولم يكن من الذكاء بحيث يُخْفي سلوكه عن أعين الخصوم السياسيين، وعن كامرات الإعلام الـمُثير.

وللمسلم في جماعة المسلمين وفي نظام الحكم الشوري سؤال دائم من نفسه على نفسه. له رقيبٌ من قلبه وعقله على ما يدَعُ وما يأتي.

السؤال الدائم: هل أصبح مسلما حقا؟ هل استقام ليبلُغَ مطمحهُ في استكمال إيمانه؟ هل أحكم أساس قاعدة بيته الديني ليرفع عليه حصون إيمانه، ثم ليرقَى في معارج الإحسان والقُرب من الله عز وجل؟

هل أصبح مسلما، وظل مسلما، وبات مسلما، أم خرقَت رياح الفتنة الدنيوية شِراع سفينته؟

لا يسأل هذا السؤال، ولا يطرحه عقله على مسلكه، من لم يستجب لله ورسوله أصلا، أو من استجاب في لحظة صحو ثم غفا ونام. بل يعتبرُ الغافلُ عن الله وعن المصير بعد الموت طرح هذه الأسئلة بهذا الإلحاح هَوَساً وجنونا.

لا يسألُ أحدٌ المواطِنَ في بلاد الديمقراطية عن حقيقة مواطنته. فهي حق مكتسب مرّةً واحِدة.

ويعرض المسلم نفسه على الشريعة إذا تلا حزبه من القرآن، وإذا سمع خطبة الإمام في صلاة الجمعة، وإذا تدبر ما قرأه الإمام في صلاة الفجر، وإذا ذكره مُذكر من جلسائه المؤمنين، وإذا أخطأ وعصى وهفا ثم تاب.

«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلِمه، ولا يخذله، ولا يكذبه».

«المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم».

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

«المسلمون تتكافأ دِماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم».

«المسلمون على شروطهم».

هذا بعض ما يعرض المسلم والمسلمة عليه نفسهما. هذه أحاديث نبوية شريفة.

الرقيب القلبي

فإذا كان من نفس المسلم ونفس المسلمة حسيب ورقيب حيٌّ قائم ضدّ نفسه في نزعاتها الدنيا في حق نفسه الناظرة إلى مطامحها العلْيا تقلّصَ ظل القانونية، وتعطل عمل القاضي.

ظل سيدنا عمر بن الخطاب، لما ولاه سيدنا أبو بكر القضاء، سنة كاملة لا يتقاضى إليه أحد. رضي الله عنهما ورضي عن رعيتهما من المؤمنين والمؤمنات الذين كان لهم من أنفسهم وازعٌ أغنى عن وازع القاضي وزجر السلطان.

فلما امتد الزمان بالمسلمين، وتفرق الرعيل الأول من الصحابة في القبور بالاستشهاد والموت، وفي الأقطار بالسعي والمشي في مناكب الأرض، ضعُف الرقيبُ الشخصي، وتعين حبْس الناس في حدود الله بالوازع الخارجي، وازع الشريعة والقاضي والسلطان.

عندما قال سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قولته الحكيمة الكاشفة عن مستَقَرِّ تدين عامة المسلمين. قال رضي الله عنه وقد رأى من أصناف الناس ما لم يكن يراه: «لَمَا يَزَع الله بالسلطان أكثَرُ مما يزَع بالقرآن».

الدرسُ إلينا من قولة الرجل المبارَك الشهيد، هو أن أكثر الناس وعامتهم وسوادهم عندما تعُم الفتنة وتغلب سِماتُ الأعرابية في المسلمين على سِمات الإيمان، لا يَرْعَوُون ولا يرتدعون بالرقيب القلبي، إنما يردعهم ويحملهم على الجادة صرامة السلطان الشرعي.

وهي نافذة من النوافذ نُطِل مِنْها على مستقبل الشورى المفقودة اليومَ، الموجودة غدا إن شاء الله. لنعلم أن تربية مؤمنين ومؤمنات وازعهم القرآن ضرورة أساسية إن أردنا أن يَحمل الأمانة أُمناءُ، ويَشيدَ الحكم أقوياء.

شرعيّةٌ قانونية في الفراغ التربوي مؤسَّسَةٌ عنكبوتية. كما هو عنكبوتي الحُلْم بديمقراطية حقيقية لا تكون اللاييكية جزءاً من ماهيتها.

التربية الإيمانية التي تنقل المسلم والمسلمة إلى مقام الإيمان، وتُرَقّي المؤمن والمؤمنة إلى ذُرَى الإحسان لها مردُودان اثنان، أَحَدُهما متوقف على الآخر، أحدهما مبني على الآخر.

الغاية الإيمانية الإحسانية يَطلب السيرُ إليها نية صالحة وإخلاصا لله، واتباعا لسنة رسول الله. فذاك مردودها في صلاح الفرد ونيله مطلبه الأخرويّ.

الأعمال الاجتماعية

ويطلب السير إليها عملا صالحا ملموسا حسّيا مادّيّاً. فهذا مردودها الاجتماعي. ما كان من الأعمال الصالحة فرضا، كالصلاة والزكاة والجهاد، فحاصله هو القاعدة النفسية الخلقية الروحية للبناء. وما كان منها نافلة ومستحبا فالمتعدي منه إلى الغيْر أفضل من المقتصر على النفس.

الصدقة والرفق بالمسلمين وبالناس أجمعين وبخلق الله السائمين قربة من الله تزن أكثر مما تزن ساعات من النوافل الفردية. محبة المسلمين، وخدمتهم، والسعي في مصالحهم، والتّحنّن على الضعيف

والمريض والمحروم، وإطعام الجائع، وتعليم الجاهل، وإقراء الأمي، وإيواء المشرد، وكفالة اليتيم، وزيارة الوحيد، وتسلية اليائس، وإغاثة الملهوف، وجمع شمل الأرملة. هذه كلها من الدين، كلها دين.

ويفتقر المتحدثون عن الإسلام بما يصور إسلام المسلمين أحبولة سياسية إلى علم وإلى صدق ليَلتئم في مخيّلتهم ويَصدُق في لهجتهم ما هو إسلام المتقين الذين يعملون لآخرتهم مستجيبين تائبين ناصحين لأنفسهم لما يتيقنون من أن القلب السليم والعمل الصالح هما وحدهما، بعد فضل الله، ما ينفع في الآخرة.

فمن كان عِلمه في الآخرة مُدّارَكا، بل عَدَما، فما يقيس نيات الناس وأعمالهم إلا على نيته هو وعمله هو.

وهكذا يتعجب المراقبون السياسيون من إسراع الإسلاميين إلى الأعمال الاجتماعية، وإخلاصهم فيها، ونجاعتهم فيها. حتى إذا تعجب المراقب وحلل المحلل قال: ما أذكى هؤلاء وأبصرَهم بطرائق كسب الشعبية واستمالة الأصوات الانتخابية.

كلا! بل يعمل المؤمنون والمؤمنات لآخرتهم. ما على أحد من منّةٍ يَمُنّونها، ولا على أحد مِن دَيْن يستردونه في هذه الدنيا.

الجزاء هناك عند الله. والوصية بالعمل الاجتماعي من الله ورسوله.

والعمل الاجتماعي عمل صالح يؤهل المؤمن والمؤمنة -بعد إيمان القلب، ومع إيمان القلب- لنيل رضى الله كما تؤهله فضائل الأعمال والأخلاق الإيمانية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كل سلاَمَى من الناس عليه صدقةٌ كُلَّ يوم تطلع عليه الشمسُ. قال: تَعدِل بين اثنين**

صدقَـةٌ، وتُعـين الرجـل في دابتـه، فتحملُـه عليهـا أو ترفع لـه عليها متاعَـه صدقـةٌ. قال: والكلمـة الطيبة صدقة. وكل خطوة تمشـيها إلى الصـلاة صدقـةٌ. وتُميـط الأذى عن الطريـق صدقـة». رواه البخاري ومسـلم عـن أبي هريرة.

السُّلامى واحدة السُّلاميات، وهي مفاصل الأصابع. المعنى أن على المسلم والمسلمة في كل يوم تطلع عليهما فيه الشمس إلزام بالمشاركة في العمل الاجتماعي، أهمه المشي إلى المسجد للصلاة حيث تنعقد خمس مرات في اليوم أواصر الأخوة، ثم المساهمة في الإصلاح بين الناس، ومساعدة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وتيسير العسير على المسلمين.

يخطئ المراقب السياسي الذي لا يبعثه على العمل إلا حساب الربح والخسارة السياسيين، حين ينسب إلى الإسلاميين نوايا نَفعية آنية سياسية. يُخطئ أو يدفعه الكَمد وعادة محاربة الخصوم السياسيين بطمس الحقائق وتشويه السمعة.

ما يدفع المسلمين لاهتبال كل فرصة سانحة، وللبحث عن مواضع لفعل الخير وأداء الصدقة اليومية المتنوِّعة المتعددة بتعدد مفاصل الجسد، هو اغتنام العرض الإلهي، والتعرُّض لرضى الله الذي يحب المتصدقين.

هذه الصدقات المتنوعة المتعددة مشاركة من كل مسلم ومسلمة، مبذولة من كل مسلم ومسلمة إلى كل مسلم ومسلمة وإلى جماعة المسلمين، ثم إلى الخلق أجمعين.

هذا البذل من المال والجُهد والعِلم والحيلة والقوة وطلاقة الوَجْه وطِيبِ الكلمة ينِم عن سخاءٍ متأصِّلٍ نمّاه الإيمان، أو عن تطبُّعٍ وتعَوُّدٍ علّمه الإيمان، وندَب إليه الله ورسوله.

ثم إن مردودهُ الاجتماعي، ووجههُ الأخلاقي هو إكرام المسلم والمسلمة، إكراماً عمليّاً حانيا حقيقيا، لاَ نفاقا اجتماعيا، وصَنْعَةً حضارية. ذلك أن إكرام المسلمين لنِسْبَتِهم الشريفة إلى دين الله، ثم إكرام كلِّ ذي كَبِدٍ رَطْبَةٍ من خلائق الله خصلة من خصال الإيمان يحبها الله.

ونُشرف مِن نافذة السخاء والبذل المشارك على مَلْمَحٍ من ملامِح الشخصية المسلمة.

فإكرام المسلمين والتودد إليهم مظهر جماعي للوَلاَية الجامعة. وهو مظهر للخُلق الفردي المرغوب فيه: التواضع واللينُ والرفق على المسلمين. المؤمن لا يَحْقِر المسلـمَ في قلبه ولا في معاملته، لأنّ احتقار المسلم إثم. لا ينافقه بالمجاملة الاجتماعية لأن ذلك كذب، والمؤمن لا يكذب. لا يتكبر عليه لأن الكِبر أخو النفاق، ولأنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خردل من كِبْر كما جاء في الحديث.

وعلى أساس الصدق والبذل والتواضع تنبني السمات الخلقية المرغوب فيها، المندوبِ إليها شريعةً، المحَاسَبِ عليها في الضمائر المؤمنة التي ترعى حق الله في حقوق العباد.

عاهة الكِبْر

ما نزع الرحمةَ من نفوس بعض الناس إلا تَجَذُّر خصال النفاق في نفوس بعض الناس. أجْلَى مظاهر النفاق الكذب الكِبْرِيّ، أي التعاظم واحتقار الناس.

تتقابل شخصيتان في الساحة السياسية، إحداهما خرقت جدار الكبر، ومزّقت أوهام العظمة، ونزلت إلى أرض الحقيقة. وأخرى

نفخ فيها الاعتداد الـمَرَضِيّ بالنفْس، فتسلقت سُلَّم الاستكبار. فإذا دعتها ضرورة الحملة الانتخابية إلى غشيان الشارع نزلت فتْرَة من البرج العاجي لتضحك للمسلمين، ولتدُق أبواب المساكين تُكَدِّي منهم أصواتا للصندوق.

ثم تتعجب النفوس المستكبرة. لِمَ يُقْبِل الناس على هؤلاء الملتحين وهذه المحجبات؟ ما سر التحامهم بالشعب وإسراع الناس إلى الثقة بهم؟

لا تَسْلُكْ في بيداء التّيه لتعزُوَ إلى العمق التاريخي الاجتماعي، وإلى الموروث المشترك، وإلى سوء ظنك أن الناس من غير سربك منافقون، ما هو من قبيل العقيدة الإيمانية والعمل الصالح الصادق المقْبولِ وحده عند الله.

لا، ولا تَرُم تخليقَ الديمقراطية ونُشْدان العدل من حاملي شعارِ حقوق الإنسان في العالم، ما لم تجِد وسيلة لإعادة تركيب الشخصية المستكبرة المنتفِخة، وإنزالها من كرسي عَظمتها في صف النخبة الحاكمة، ومنبر أستاذيتها في قبائل المثقفين المغرّبين، ومرافق امتيازاتها السياسية الاقتصادية المالية في عالم المتمولين.

«**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خرْدل من كِبر**». حديث نبوي شريف.

والكبر كذب، والكذب نفاق، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

أيّ إنسان، وأية نفسية؟

الثبات على إديولوجيةٍ عِناداً وادعاءً أنها حية لم تمت، والانتقال من إديولوجية ودّعها العقلاء إلى مثواها الأخير إلى إديولوجية

منقذة، والتحول السريع من خطاب متشدد إلى خطاب متصالح، إنما هو تَجْوال في عالم الهياكل، والهيكلات، والتنظيم الحزبي، ومشاكل التنظيم، وصراعات المناصب والمصالح، وحواراتٍ حول الأولويات والإستراتيجيات، ونزاع الزعامات على القيادة.

ولا يوضع الإنسان، نوعية الإنسان، الشخصية الخلقية النفسية للإنسان، موضِع السّؤالِ.

وتجدنا نحن قارئِي القرآن العاكفين عليه بفضل الله ونعمته، همنا منصرف إلى الإنسان في خصوصياته النفسية الخلقية القلبية الإيمانية. وفي مساره في الدنيا، ومصيره منها، وما يسعده سعادة الأبد أو يشقيه شقاء الأبد.

الديمقراطية قانون، ومؤسسات، وشروطٌ، وعقد اجتماعيٌّ، ومجتمع مدني مطالبٌ بالحقوق موازنٌ للسلطة الحاكمة بسلطة معارضة. والإنسان في مساق الديمقراطية غنيمته من الديمقراطية أن لا يظلم ولا يضَام في حقوقه الإنسانيّة، وقمتها الرخاء واللذة.

للشورى سياقها: الإنسان مركز الدائرة، مصيره في الدنيا ومن الدنيا هدفان لا يفترقان. غنيمته من الحكم الشوري في الدنيا مثلُ غنيمة ساكن بلاد الديمقراطية في حقه أن لا يظلم ولا يُضام في حقوقه الآدمية، وزبدتها وخلاصها وغايتها أن يعرف الله، وأن يتقرب إلى الله ليحشره الله إلى جنة الفردوس مع الذين أنعم عليهم الله. وتأتي الهيكلات في الدولة، والمؤسسات، والقوانين، وتنظيم السلطةِ ومَوازينِ السلطةِ دوائر حول الإنسان لخدمة الإنسان. دوائر يسْكنها ويُصرفُها ويُحركُها روح الانقياد لله والطاعة له والاستجابة المطلقة لله.

نرجع إن شاء الله بعد فراغنا من الحديث عن الديقراطية للنظر إلى مساق الإنسان الخالي من هم الآخرة، الكافر بها أو الشاكِّ فيها الـمُحايِد فيها.

نرجع إن شاء الله بعد أن نبرز هنا خصائص الشخصية الطليقة بحريتها المدنية في مقابل الشخصية المسلمة التي وقفنا عليها في بحثنا عن جذور شجرة حقوق الإنسان الممكن غرسها لتنبت في بلاد المسلمين، وعن صرح حقوق الإنسان وقواعد تأسيسهِ ليَثبت في بلاد المسلمين.

وقفنا على أن المسلم المؤمن لا يتكبر، لا يكذب في مظاهر شخصيته لأن طويته صدق مع الله لا يقبل صفاؤهُ كدورات النفاق.

هكذا المسلم المؤمن، هكذا يطلب إليه أنْ يتخلق. ولست أستثني من فضيلة الصدق مسلمين مؤمنين انخرطوا في أحزاب تخفُقُ على رؤوسها رايات عُمِّيَّةٌ. يبقى المسلم المؤمن صافيَ الجوهر ولو أحاطت به غيوم. والمخرج من الورطة صعب والخروج منجاة.

ونقف هنا بإذن الله قليلا على الشخصية الأخرى المتلبسة بكبر، أو المتردية بكبر، أو المستشعرة به المتردية المتأزِّرةِ. ثم نفرغ في الفقرة التالية لدراسة نفسية المستكبرين، واستعلاء المستكبرين.

فلا يكفي أن نأخذ في مواصفات الشخصية المسلمة المؤمنة حتى نرسم وجه النفسية المقابلة، وعقليتها، وبواعثها، وأثرها في المجتمعات، خاصة في المجتمع الذي يتعارض فيه مؤمنون بعقيدة لا تقبل المكوث والسكوت على مظالِم طبقة لها مصالح، ولها مراكز قوة، ولها امتيازات.

إن الحديث عن حقوق الإنسان دون الدخول في البحث عن نفسية الإنسان الذي يطالب بالحقوق، والإنسان الذي يستبد ويحرم الناس

من حقوقهم، إنما هو التفاف والتفات عما يؤَصل داء السَّكِزُفْرِنيا في الرأس، ومرض التشاكُس في العقل، ووباء الظلم الاجتماعي، والفساد الخلقي، وسائر العاهات السياسية الاقتصادية العقَدِيّة.

إذا سكتنا عن نوعية الحقوق المهضومة المطلوبة، واعتبرنا الإنسان/ الجمهور قيمة ثورية بعَدَده وتعبئته كما تتصوره الإديولوجية المادية الغابرة في الغابرين، أو قيمةً تجاريّةً اقتصاديّةً كما تُرَوِّجُ الفكرةَ الرأسماليةُ الاستهلاكيةُ الإشهاريةُ المستكبرةُ في الدنيا، فإنما نطلق رَسَن العقل ليجول في الأرقام، ونطلق عِنان الغرائز المستكِنّة في بني الإنسان لتعيثَ فسادا في حقوق الإنسان.

ما الإنسان رقم إحصائي كما عاملته الثورة البلشفية، ولا هو زبون محتمَلٌ وغنيمة ووحدة استهلاكية كما تعتبره الرأسمالية السوقية.

الإنسان في الأرض، وعبر التاريخ، صنفان: مستكبرون ومستضعفون.

المستكبرون لهم نفسية، وعقلية، وأهداف مصلحية، وميل إلى التكتل لحفظ المراتب والامتيازات. والمستضعفون في الأرض ضحية دائمة للمستكبرين، وموضوع لعدوان المستكبرين، ومادة بشرية يصنع بها المستكبرون منصة للاستعلاء، وقاعدة للاستغناء.

نرجع إلى الموضوع إن شاء الله في الصفحات المقبلة. نرجع بعد أن نطرحَ هنا أن التغيير الذي تحدثه الثورات هو طيٌّ لصفحة تاريخية واستئناف لتاريخ جديد. يعني طيُّ الصفحة ضرورةً طيَّ مرحلة لها رجالها، وحساباتها، وامتيازاتها، ومواقعها في السلطة، ومكتسباتها الحلال أو الحرام، وسيطرتها في المجتمع، وعلاقاتها بالخارج، وماضيها في استغلال الشعب، وطموحاتها التي تأتي الثورة فتُنهيها وتُقبرها.

ما بنا إن نقّبْنا عن النفسية المسلمة، والباعث الإيماني، والعقل المؤمن أن نسود أوراقا بفلسفة تأملية. ولا همنا أن نعرض صورا سيكولوجية للتصنيف في خرائط البحث الاجتماعي، إن نقبنا عن جذور سلوك الشخصية الأخرى المتميزة، أول ما تتميز، باستكبارها.

سواءٌ كان استكبار المستكبرين تَلَفُّتا في الأعطاف الثقافية، أو تحليقا في الأجواء العليا للسلطة، أو تبذير مبذرين، أو مَكْرَ ملإٍ مُدَبّرين، فإن تنقيبنا في الجذور يوجهه همٌّ واحد: كيف نتلافى الصّدامَ الحتْميّ بين فئة محْظوظة محتظيةٍ أَثِرَةٍ أدّاها إفسادها في الأرض إلى كارثة طوفانية، وبين شعب مسلم متَطَلِّعٍ لعدلٍ يأتي به الإسلام بعد الطوفان.

بنَتْ الثورة البلشفية اللينينية الماركسية عملها على تحليل ماركس وإنجلز الطبقي التاريخي الأصمِّ الأعمى عن نفسية الإنسانِ الفرد. لذلك كانت ثورة محطمة داست الأرواح، واخترعت الجولاج أبشَع موطن في تاريخ البشرية عُذّب فيه الإنسان، وأهين فيه الإنسان، وسُخِرَ فيه بحقوق الإنسان.

ونتأمل جيِّدا وجْه الجاهلية في هذا القرن، فنعتبرُ بالثورة الفاشية الهتلرية التي تمثل الفلسفة الاستكبارية أكمل تمثيل. إن جهِل ماركس ولم ينظر في فكر قومه ما أَثّلُوا من فلسفة إنسانية حقوقية منذ النهضة الأوربية، فقرينه في الخزي الأبدي «هتلر» أسَّس صاعقته التاريخية على فكرة عن الإنسان مقتضبة، مؤداها أن الجرماني الأشهل الأزرق الأبيض هو رب هذه الكرة الأرضية وسيدها، وباقي بني الإنسان خوَلٌ ونَعَمٌ.

ما بنا ونحن ننقب عن النفسيات والذهنيات والأنانيات أن نناقش الإديولوجيات الجاهلية لنقترح بديلا. فليس الإسلام بديلا عن شيء. الإسلام كلمة إيجابية من عند الله بلغها للإنسان رسول الله. بيد أن

قراءتنا لكلمة الله في كتابه المنَزّلِ دون قراءة كلماته في العالم وتاريخ الإنسان، وفلسفات المستكبرين في الأرض من بني الإنسان، تكون قراءة منطوية مبتورة. تعجِزُ عن الفهم فتعنُف، أو تعجز عن العمل فتتهم العالم وكلام سُكان العالم بأنه عين الباطل، وتاريخ الإنسان بأنه جِيدُ الزمان العاطل.

تلك جاهلية ونحن إسلام. لكن إثبات دعائم الحكم الإسلاميِّ المرجُوِّ يواجهنا دونه عالَمٌ إنسانُه متحرك. فلا يمكن أن نبني في الفضاء المطلق كما يفعل الحالمون. يواجهنا إنسان من داخل الحدود ومن خارجِها لا ينبعث بما ينبعث به المسلمون، ولا يفكر كما يفكر المسلمون، ولا يَرْعَى من حقوق الناس ما يرعاهُ المسلمون.

يواجهنا إنسان جاهلي تطلب مُصاولتُه ومجاولته ومُحاورتُه النَّفَسَ الطويلَ، والفهم العميقَ، والعلاج الرفيق. ما نحن، يا قَوْمُ، من قُنّاص الفرص، اللاهثين وراء اللمحة والخُلسة والثغرة الانتخابية نُريد الزحف منها إلى فوز صندوقي إحصائي تأتينا به آمال أمة اصطدمت بجدار اليأس من خيْرٍ يقود إليه محترفو السياسية أعوانُ الظالمين.

الأمر أعظم من ذلك، وأعمق من ذلك، وأخطر من ذلك.

الأمر أجل من أن تتصدى له بنجاح ديمقراطية جنينيّةٌ لا تزال، أجنبيّة الكلمة والروح كما لم تَزَل.

الديمقراطية وميزان العدل

10. وإلى الديمقراطية نعود لنُشيدَ بمزية من مزايا برنامجها. هذه المزية التي رتبناها آخِرةً هي الهدفُ الاجتماعي من النظام السياسي

اللبرالي، هدفٌ تلَقَّنَتْ الديمقراطية الرأسمالية اللبرالية درسه من غريمتها الاشتراكية الشيوعية.

دَوَّى في العالَم صوتُ الشيوعية نصيرة الطبقة الكادحة التي عاشت في أوربا القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى أحوالا كالحة من الاستغلال، وألوانا قاحلة من الإذلال. فسمع الكادحون النداء، واتحد عمال روسيا، وقام الاتحاد السوفيتي بعد الثورة، فحشد، وعبّأ، وتسلح، وانتصر على الهتلرية النازية، وتحدى القوة اللبرالية على مدى سبعين سنة من الحرب الباردة.

كان مما لَقِفَتْه الديمقراطية اللبرالية، بل كان مما آلت إليه الاشتراكية خارج الاتحاد السوفيتي، ضرورةُ إنصاف العمال من الاعتساف الرأسمالي، وضرورة إتحاف المواطن في بلاد الديمقراطية بحقوق اجتماعية تخفف من وطأة الشعار الشيوعي المنافس، شعار الإنصاف في توزيع الثروة، وشعار الشغل للجميع، والمسكن للجميع، والخبز للجميع، والصحة للجميع، والتعليم للجميع، والفن للجميع، والثقافة للجميع.

وهكذا نشأت أحزاب الاشتراكية الديمقراطية، وحكمت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في بلاد اسكنْدِنافيا الغنية المصنعة التي لَمْ تخرب الحربان العالميتان اقتصادها. وحققت حكومات هذا الاتجاه اللبرالي إنتاجا، الاشتراكي توزيعا، نصيبا مهما من الرخاء الاجتماعي، والضمان الاجتماعي، وحقوق الإنسان في الرفاهية والترفيه والصحة والتعليم والسكن وسائر العطايا.

وشاع في بلاد الديمقراطيات فكرُ الدولة الكافلة، وصنيع الدولة الكافلة، وتنظيم الدولة الكافلة.

وانتصرت الديمقراطية اللبرالية في هذا الميدان، وكسبت رهان التحدي، وتفوقت على غريمتها الشيوعية السوفييتية.

فهذه الآن في بلاد الديمقراطيات الغربية المصنعة الغنية حقوق مضمونة للعامل العاطل، وحد أدنَى للأجور تدافع النقابات لكي يساير نمُوّه نموّ الثروة الوطنية، ولكي يتقاسم العمَل الأرباح مع رأس المال. مطالبُ إن لم تتحقق، أو بعضُها، إلا بإضرابات واضطرابات اجتماعية فهي مُتَنَفّس على كل حال يرُوحُ منه الكادحون والفقراء والمنسيّون والـمُقصَوْن رَوْحَ الأمَلِ، ويعودون إلى قَبَضاتٍ من التعويضات يتسَلّوْن بها في مجتمعات استهلاكية يابسة جفّتْ فيها الرابطة الاجتماعية أو كادت. فالدولة الديمقراطية «الاشتراكية» تنْفَح بالمال، وتنْشِئ أحيانا ائتمانا صِحّيّا، وملاجئ للعجزة.

يضَاف إلى الديمقراطية في هذا المجال فضل السماح، بل التشجيع، لقيام جمعياتٍ غيرِ حكومية يَفيض إليها ومنها على الناس عطاءٌ يُحْمَد، عطاء يُمثل ما في الضمير الغربي من بقايا المروءة الإنسانية.

من هذه الجمعيات غير الحكومية ما اتّسع أفقه، مثل جَمعية العفو الدولية، ما يتخصص في الدفاع عن حقوق الإنسان أنّى كان الإنسان. هذه الجمعيات قبلةُ معذبين من المناضلين السياسيين المضطهدين في أصقاع لا ديمقراطية فيها. هي وجه مشرق للديمقراطية حامية حق الإنسان أن لا يعذب، وأن يتمتع بحريته في التعبير.

مُضافٌ متطوِّعٌ إلى مُضاف إليه قانونيٍّ، صوت يعلو ويحتج ويعبئ جهود الأفراد فيحقق من النتائج ما لا تحققه القانونية الباردة الجامدة إن لم يحركها محرك. وتشكل في مجال حقوق الإنسان، ومجال العدل والإغاثة، ومجال الضغط الإعلامي على الدول المفقودِ فيها العدل وحقوق الإنسان، عاملا مهما نشطا.

هذا المضاف مجد من أمجاد الديمقراطية ودعامة مهمة من دعائم المجتمع المدني. لا ريب.

أن تستعير الديمقراطية، وتخطَف، وتتبنى، شعار العدل الاجتماعي الذي كانت الاشتراكية «العلمية» تحتكر التلويح به، هذا كان ضرورةً سياسيَّةً، ونتيجةً لصراع سياسي بين اشتراكية الكولاك والحكم الستاليني وبين ديمقراطية نازعتها الصَدارةَ في عقول المثقفين وبرامج المناضلين دعوة «يا عمال العالم اتحدوا».

نجَحتْ الديمقراطيات الغنية في دول الشَّمال فأدمجَتْ في دساتيرها وقوانينها مطلب العدل، وحققت من العدل الاجتماعي حظا وافرا في مثلِ السُّويد، وحظّا يُقاربُه في بلاد أخرى. وهذا انتصار اقتصادي سياسي يسجل في خانة الإيجابيات الديمقراطية.

أن تُشِعّ الديمقراطية، بواسطة جمعيات الإغاثة التطوُّعيةُ، هذه الإشعاعة الإنسانية الحرة التي تنافس بنشاطها، وسرعة استجابتها، وحيويّة تدخلاتها، منظمات الأمم المتحدة المتثاقلة العاجزة السيئة السمعة، فهذا من إضافات الديمقراطية المحمودة.

مُجرد عرض هذه المنجزات، في حدودها وبنقائصها، على البناء الشيوعي الذي زعم مُنْشِئوه أنهم أنصار الطبقة الكادحة، وعلى ما فعله استبداد الصعاليك (البرولتاريا)، وعلى ما «أنجزه» نظام الصعاليك الستالينيين، كافٍ لتبْييضِ وجه الديمقراطية في معرض المكارم المروئية الإنسانية.

فإذا تحررنا من جاذبية الألفاظ السحرية، كالديمقراطية، وتحررنا من الإعجاب غيْرِ المشروط بمنجزات اسكندنافيا وغيرها، وتحررنا من واجب الإشادة بالمنظمات غيرِ الحكومية التي تَخِفّ لتواسي الجرحى

المكلومين والجوعَى المحرومين في مجاهل إفريقيا وعواصم المسلمين، وجدنا أن الديمقراطية ومضافاتِها الإنصافية إن كانت بركة على أهل الديمقراطية المتأصلين فيها، القائمين بها وعليها، فإفاضاتها على عالم المحرومين لا تعدو أن تكون وَمضة أمل في أفق مُدْلَهِمٍّ، وقطرةَ طَلٍّ في صحراءَ قاحلة. ومتى تمَّت كرامة فرد وأمة بتلقي الصدقات!

ذلك أن المستعارَ دخيلٌ تنفيه البيئة، ويرفضه الجسم الأصيل.

رأينا في صفحات سابقة أن تخليق الديمقراطية هو مشكل الساعة عند منظِّري الديمقراطية، وممارسي الديمقراطية، وأحزاب الديمقراطية، ومستوردي الديمقراطية.

ورأينا أنّ الهياكل والتنظيمات وَ المؤسسات لا مطمع في تخليقها إن كانت الشخصية الأساسية الممارسة للعمل لا وازع لها من ذاتها.

ورأينا أن الأخلاق من صلب الدين، ومن سياق الشورى وشروط قيامها.

كذلك مطلب العدل. العدل من صلب الدين، العدل أمر به الله وحثّ عليه الحاكمَ والمختصِمَ في الحقوق.

في صفحات ماضية كنا بسطنا الحديث عن بذل المسلم من ماله ووقته وجُهده لإغاثة اللهفات، ومواساة المضطر، وفعل الخير، والإحسان إلى الخلق.

ذلك يُكَوِّنُ التَّطوُّعَ الذي يكمل واجبات الطاعة. أي نوافل الخير التي تكمل فرائض الخير.

الحكم الشوري من سياقه -كما فصلناه في مكانه- الإنفاق. فأهل الشورى من مؤهلاتهم فرادى أن ينفقوا، ومن وظائفهم المؤسساتية

أن ينظموا الإنفاق لتكفل الدولة حاجات الناس الأساسية من موارد الزكاة -الزكاة هذا الدين المعطَّل- ولتُمَوِّل التعويضات الضرورية، والصحة، والسكن، والتعليم من ضرائبَ تُفرض على الناس مساهَمَة في النفقات العامة التي لا قيام لدولة حديثة بدونها.

لا يقوم التطوع الفردي، ولا المنتظم في جمعيات إحسانية، مقام ترتيب الدولة.

عجزت الشيوعية، الناهضة أساسا وفلسفةً وهدفاً سياسيا استراتيجيا لمحو الطبقية الاجتماعية، عن تحقيق أهدافها. ما يوازي فشلَها النهائي في ميدان الاقتصاد إلا فشلُها الفظيع في ميدان الاجتماع.

فهي قضت ثورتُها على طبقة متعلمة مَحْظوظةٍ متحضرةٍ، طبقةِ الارستقراطية القيصرية. وقتلت وشردت وعذبت. ثم تولى متوحشون مقاليد السلطة والمال والنفوذ، فاستأثروا بالثروةِ والامتيازات. ونَعِمَتْ النُّمِنكلتورا بملاذّ العيش، وسكنت قصور المدينة وداتْشات البادية، حولوا البادية جناتٍ خاصةً بالـمُنَعمين.

وافتخرت الدولة الفخمة الضخمة التي بيدها أغنى أرض الله مَواردَ بأنها خصصت لكل مواطن مجالا سَكَنِيّاً مساحته تسعة أمتار مربعة. دعايةٌ أو حقيقة تشير إلى تفاهة النتائج مُقارَنةً بضخامة الوسائل. وليست طوابير المتسوقين أمام المخابز في موسكو خَبراً جديدا بعد سقوط العملاق.

نقارن بين نظام حرٍّ هو الديمقراطية وما تبنت من قوانين وما أنجزت -في ديارها- من منجزات، وبين نظام عبوديةٍ للحزب الواحد، والحاكم الواحد، والطبقة الواحدة المنسجمة حول مائدة الامتيازات النُّمِنْكلاتوريّة.

ولستُ من قَيْسٍ ولا قَيْس مِنِي! لهم دينهم في الحُكم ولنا دين.

أسئلة إسلامية على الديمقراطية

حتى إذا فرغنا من مُقارنة الأباعِدِ، فيما بين الأباعد من مزايا ومثالب، رجعنا إلى أنفسنا لنستشرف مستقبلا نرجوه رفيقا بنا. (أستغفر الله فما الرحمة إلا منه) ونرجوهُ مستقبل عدل وحرية، من غَزْل يدنا ونسجها وصبغتها. صِبغتنا صبغة الله، ومَن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون.

نرجع إلى أنفسنا لنجد أنفسنا في قبضة ديمقراطيات نجحت في كسب الخير لأهلها، وأخرى مجتهدة تَتَدَقْرَطُ حُبّاً لخير تناله لأهلها.

نجد أنفسنا وجها لوجه مع نظام عالمي استكباري، الديمقراطية كلمة من كلماته، وحقوق الإنسان شعار من شعاراته.

إنه نظام لا سبيل إلى فهم دخائله من زاوية نظرنا إن نحن استعملنا نفس أدواته التحليلية، وإن نحن اكتفينا برصد ظواهره منحَجبين عن بواطنه. ونكون أغبياء حقا إن نظرنا إلى أنفسنا، وحللنا ظواهر شجوننا وبواطن أدوائنا وآلامنا، بأدواته ومصطلحاته وكلماته.

نكون أغبى من ذلك إن انتظرنا من غيرنا -ومن الغير ما هو ثاوٍ بين ظهرانينا- أن يُجيب عن الأسئلة الـمُلِحَّةِ على عقولنا، المجلجلةِ في ضمائر أجيال ناشئة منا يطْعمها تُجّار الأوهام من خيَال ديمقراطية هي الحل، هي الخبز، هي الحرية، هي الشغل، هي الرخاء للجميع.

هل تفُك رقابَنا الديمقراطية اللامعة نظراً، الممتنعة واقعا، الغريبة عن أرضنا دينا وخلقا، من أغلال البغي السياسي، ومن قبضة في اللَّهازمِ تَشُدّها يد باطشة عاتية؟

هل تُعبّئنا شعارات الديمقراطية لنَهُبَّ أمةً واحدةً إلى العمل، إلى البناء، إلى التحرر؟

هل تعيد إلينا الديمقراطية –وهي حُلْم لا يزال يراودُ ليالي المثقفين المناضلين– الثقة في أنفسنا، والاعتماد بعد الله على أنفسنا؟

هل تتيح لنا ديمقراطية مستوردة أو مُعَدّلة أو مبَيّأةٌ أو مُدجنة أو مُحَيّنة إدماجا سياسيا اجتماعيا يمحو من مجتمعاتنا على مواعدَ معقولةٍ هذه الفوارق الطبقية التي تتباعد بها الفجوة أوسَعَ فأوْسعَ بين المستضعفين والمستكبرين؟

أسئلة قاطعة. إما ندور بالطاحون، وإما ننطلق في عملية تأسيس نظام حكمنا على أساس، وتربيةِ أنفسنا تربيةً تلائم ما نحن نؤمن به، ومعالجةِ اقتصادٍ تسحبه السوقية العالمية، والاحتكارات العالميّة الكبرى، والقُدُرات العالمية العائلة، سَحْبا منكرا، بعلاج من صيدليتنا، وبقوة من عزْمنا.

هل بديمقراطيةٍ ما يمكننا أن نكون صوتا في العالم أصيلا؟ لا يسمَع الناس صوت اللقطاء. ولنا إلى الإنسان كلمة، لنا إلى العالمين رسالة.

ما يجمعنا؟

ذاتٌ مشتتة نحن بفوارقنا الاجتماعية والبغي السياسي المنحط على ما في عقول بعضنا من تبعية فكرية لغيرنا، وعلى ما في صدور أغلبيتنا الأمية من انقياد للحاكم صاحب الهراوة.

هل ينزل الأعلونَ من الطبقة المستنيرة بضياء المطالبة الديمقراطية إلى أرض الواقع الاجتماعي لينسجموا مع الشعب، وليندمجوا معه

وفيه؟ هل تقتضي ذلك الديمقراطية، هل الديمقراطية ضمير، هل للديمقراطية ضمير؟

هل يجد المناضل التقدمي اليساري في تعاليم المعلم كرامشي مدخلا إلى جنة المثقفين المناضلين الثوريين: وهي أن يصبحوا مثقّفين عضوِيّين قريبين من الشعب، قادةً للشعب، إلى حيث ينبغي أن يُقاد الشعب؟ ماتت أحلام كيفارا في جبال أمريكا الجنوبية، وما ماتت التُّرّهات الإديولوجية في عقول سخيفة.

نجد أنفسنا وجها لوجه مع عالمية استكبارية متفوقة علينا بوسائلها العلومية التكنولوجية المالية الاقتصادية الديمقراطية. عالم مستكبر وفينا مستكبرون من بني جلدتنا.

هل في الديمقراطية، في ديمقراطية مَا نصطفيها، ما يحوِّل قِبْلَة الأفكار، وطبيعَة المجتمع، إلى وجهة لا تدور بنا سراديبُها إلى إعادة المعهود الموروث من اختلاف يؤدي إلى خلاف، يؤدي إلى نزاع، يؤدي إلى سيطرة الحزب الواحد، والزعيم الأوحد، والقائد الملهم؟

قوة الديمقراطية تتمثل في مرونتها التعددية، في قَبول السلطة لمعارضة حرة، في انتظار المعارضة فرصتها حين يقتنع الشعب لتثبتَ جدارتها وقدرتها على الحكم، ولتجرب برنامجها حَذِرةً أن لا ينقلب عليها الرأي العام في الانتخابات. قوة الديمقراطية تظهر في انسجام صفوة المتصدين للحكم، واتفاقهم، واندماجهم، على كلمتهم السواء، وهي آخر المطاف: التداوُل الديمقراطي على الحكم بطرق سلمية، بإحالة الاختيار للشعب.

الديمقراطية انسجام واندماج اجتماعي سياسي، و«كلمة سواء» تنتفِي بها من المجال أساليب العنف.

لا بد للمسلمين من انسجام واندماج اجتماعي وسياسي ليواجهوا، وهم أقوياء بمتانة نظام حكمهم، حقائق موازين القوى السياسية الاقتصادية العسكرية المالية في العالم، وحقائق ميزان العدل في مجتمعاتهم.

لا بد للمسلمين من وحدة شاملة ينسجمون فيها قطرا إلى قطر، ومن اندماج قطري يكون هو القوة لا عنف السلاح، وحكم الحزب الواحد والزعيم الأوحد.

ولا انسجام واندماجَ ووحدة إلا على كلمة سواء -كلمتنا السواء لا يمكن أن تنبثق من خارج ذاتنا وعقيدتنا وديننا.

الكلمة السواء الديمقراطية أن لا يتظالم الناس، وأن يتعايش المواطنون راضين بحكم الشعب، آملين أن تتقلب رياح الرأي العام ليتبَدّل الناسُ وجوها بوجوه كلما عجز حزب حاكم أو ائتلاف أحزاب، واثقين من أن حرية التعبير، ووجود المعارضة الناقدة بحرية، كفيلان بتصويب المعوَجِّ، وطرد الفاسد، ومقارعة الناس بالناس لتندَحضَ حجة بحجة. ولتقوم قائمَة الأصلح.

كلمة المسلمين السواء التي توحد، وتَحُل عقداً تاريخية ركيكة ودخيلة، وتهيئ لاندماج وانسجام، وتربي على انسجام واندماج هي التي دعا إليها القرآن أهل الكتاب، وهم كانوا أشد تنطعا وأبعد عن الحق من التائهين مِنا عن الجادّة، وهي قوله عز وجل آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم وآمرا من بعده كل من يستمعون القول فيتبعون أحسنه: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾.[1]

(1) سورة آل عمران، الآية: 46.

سؤال محورِيّ طرحناه ونعيد طرحه: ما يجمعنا؟ ولا بد من جمع. العروبة القومية بعثرت العرب. المذاهب الدخيلة تتفتت في ديارها. الإسلام كلمة غريبة كأن الإسلام طارئ في العالم.

في العالم قُوى استكبارية عاتية لا يصمد في وجهها جسم متفكك في القوميات. ولا يصمد أمام غزوها الاقتصادي سويقات استهلاكية تشتري السلاح المتطور ترصده لغدرةٍ من جار قومي. ولا يقف أمام غزوها الحضاري الثقافي قوم منصبغون نفسيا، مقتنعون عقليا بأن أقصى أمانينا نحن المسلمين أن نلحق بالركب الحضاري السائد.

وكأن الإسلام ورسالة الإسلام أسطورة مضت، وكأنَّ وظيفة التذكير به أن لا نخجل في الركب الحضاري الرائح بنا في تياره بين تاريخ الأمم وحضارات الشعوب.

عُقد رديئة، وتفكك في القوميات، وتبعية في الاقتصاد، وتحامُر يطاوع استحمارا في الفكر، وأخلاق ما هي أخلاق، وأم البلايا انعدام العدل الاجتماعي لانعدام العدل السياسي.

اختلال توازن تاريخي يسويه فقط التوبة العامة إلى الله. الطاعة العامة لله ورسوله. الاستجابة العامة لندائه سبحانه، نداء صَمّ عنه أهل الكتاب وعَمُوا، وهم الأبعدون. ويَصِمُ عنه من بني جِلدة حاضِرنا قوم مستكبرون.

تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ!

إن نظرنا إلى الإسلام من ظَهْرِ التاريخ، بعقل مُدْبر عن الله مقبل على الدنيا، وقِسْنا شريعة الإسلام على شرائع الناس، وسَطّحنا التحليل فأرجعنا النتائج المؤْسِفَة إلى العوامل المباشرة الظاهرة دون أن نعيد

النظرَ في تصوُّراتنا الأساسية، وسمينا المطلوب الشوريَّ ديمقراطية إسلامية مازجين الكلمات مزجا منكرا، فما نحن بالأمة القادرة على حمل رسالة الإسلام.

ينخَر في كياننا، في عمق ذاتنا، شِرك بالله، واستكبار على الله وعلى رسل الله، وعبادة المستكبرين منا الطاغين، نتخذهم أربابا من دون الله.

هذا الشرك الخفيُّ المتلونُ في مظاهر الخنوع المعهود الموروث للحاكم، وفي انفصال طبقة من الناس عن الدين، وفي انتصاب زعامات قاهرة باغية، هو ما تبينه لقوم يعقلون الجملة القرآنية من سورة آل عمران: ﴿**تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء**﴾.

الديمقراطية تقاتل البغي السياسي، فنحن معها على هذا القصد الحميد.

لكن المؤمنين بالديمقراطية، المخلصين لها، هم نخبة مثقفة واعية غنية متميزة في السكن والنفقة ونمط العيش، فهل تُسَوِّي الديمقراطية ما بينهم وبين سوادِ الشعب السادرِ في أميته الأبجدية والسياسية والدينية، الساكنِ بعضُه في أعشاشٍ، الفقيرِ جُلُّه، العاطِلِ شبابُه، التائهِ رأيُه العامُّ في حيرته بين أحزاب وطنية تطالب بديمقراطية، وأخرى تنهب من أسلاب الديمقراطية، وبين حكم متسلط يمتع صنائعه بغنائمَ باردةٍ، وبين دعوة إسلامية يستوي في معاداتها المناضل اليساري من داخل، والعدو الاستكباري من خارج؟

لا بد من انسجام واندماج تمليهما ضرورة مواجهة قوىً استكبارية. هذا حظ التحليل السياسي الإستراتيجي.

وحظ التحليل الاجتماعي السياسي أن الفوارق الطبقية الفاحشةَ المتفاحشةَ لا تصلح قاعدةً اجتماعية لاستقرار الحكم وثبات النظام.

وما بَرِحْنا سطُوحَ الهياكل والكيانات الظاهرية، لأننا لم نقل للإنسان كلمةً عن حقه الأسمى، عن حقه الأعلى، عن الحق في كلمة واحدة.

مطلوبٌ الاندماجُ الاجتماعيُّ السياسيُّ، مطلوبٌ الانسجامُ الاقتصاديُّ على مستوىً مقبولٍ، مطلوبٌ التكتلُ في عالم التكتلات الكبرى.

لكن هذه الأُفُقياتِ الدنيويةَ، التي لا بد للمؤمنين أن يتعلموا حركيتها كما خلقها الله ليتدافع الناس بعضهم ببعض، ما هي إلا وصفٌ للخارج عني أنا الإنسان.

أنا الإنسان ما موضعي في الخارطة الوجودية؟ أنا الإنسان ما شأني بهذه الأفقيات إن لم تدفَعْني وتسمَحْ لِي وتعلمْني ما أنا، ومن أنا؟

الكلمة السواء وحدها تدمجني في السامي من معنايَ في الوقت الذي تدمجني في الأُفقيِّ من واقعي وواقع أمتي: تعالوا إلى كلمة سواء.

ما شأنِي وشأن العالم، وهموم العالم، وهموم المجتمع، حتى أحمِلَها، إن كان حملُها طلب إلَيَّ أن أتقمص شخصية غير شخصيتي؟ كيف أقاوم الاستكبار العالمي والمحلي وأنا مِثْلٌ وشبيهٌ للمستكبرين؟ وأنا رسَمَتْ في عقلي عقولُهم، وخطَّتْ في مُخيّلتي أساطيرُهم، ونفثَت في صميم ذاتي إيحاءاتهم؟

مشتتةٌ فِيَّ كما هي مشتتةٌ في مجتمعي أشلاءٌ كانت بإسلامي وإسلام مجتمعي كِيانا عضويا حيا. اختنق فِيَّ وفي مجتمعي نفَسٌ، سكن فِيَّ وفي مجتمعي هوَسٌ، وأسكت كلمتي في الدنيا وكلمة أمتي خَرَس.

وتكلمْنا بلغة هائمة بين حداثةٍ ممتنعةٍ تلخصها الكلمةُ الحلْمُ: الديمقراطية، وبين أصالةٍ ضائعةٍ قيل عن نظام حكمِها الشوريِّ الضائعِ منذ قرون: إنه النظام الديمقراطي في أجلى صوَره وأكملها.

تعالوا إلى كلمة سواء.

تعالَ، لا تكن العاجزَ التابعَ. تعال، لا تكن الإمّعةَ! تعال، فإن اللاييكية إن كانت حررت أوربا من ربقة الكنيسة وتوجت ثورتها نضالا حرّاً مجيداً بمعايير الإباء ومناهضة الظلم، فإنها إن استوردنَاها دون أن نستحضرَ تاريخها، وما دفعته من خرافة كنسية كهنوتية تضع على الرؤوس الملكية تيجان الخلود، وما عنته وتعنيه من تحرر النصارى الأوربيين، ودون أن نميز بين دين تحتكره كنيسة ودين لا كنيسة فيه ولا كهنوت، لكنا كالقِردَة المقلِّدةِ.

تعال، فإن لك حياة واحدة، وأمامك مستقبل مؤكد واحد هو حفرتك بعد الموت. وما ينبئك بما بعد الموت إلا القرآن وكلمة الله الموحى بها إلى رسول الله. رسولِ الله إليك وإليّ وإلينا.

تعال، بإسلامنا ندفَعْ في صَدْرِ الطواغيتِ المستكبرين الحاكمين بقبضة الحقيقة القهرية وقبضة الزور الديني الذي يزعم أن الله خلق أسرةً لتحكم الناس بدون رضى الناس، وليرث الابن مُلْك أبيه، قطيعَ أبيه كما تورث قُطعان النّعَمِ.

استكبار فينا من بني جلدتنا، وحكم طاغوتي مزمن، نتخيل أنه وحده الجامع لأشتاتنا، الضامن لتماسكنا، المحَلِّقُ أمَلاً باسِماً في سماء مستقبلنا.

استكبار مُزَوِّرٌ، لكنه في نفسه استكبار حقيقي، استكبار فتاك بأجهزته القمعية المتحكمة في حاضرنا، الفتَّاكِ أضعافاً لرهنه مستقبلنا، وتقييده أيدينا، وبيعه حريتنا للاستكبار العالمي المسيطر الطامع في امتلاك المهج والعقول بعد امتلاك الذخائر والأموال.

تعال، واعتبِر بما تراه عينك وتسمعه أذنك ويعيه عقلك من كراهية الاستكبار العالمي كراهيَةً خاصة عميقة مطلقة لدينك الناعس فيك،

لدينك الإسلام، وللناطقين بالإسلام وللمتحزبين لله ورسوله بدين الإسلام. لماذا يكرهُ ألد أعداء أمتك طائفة خاصة من أمتك؟

لعلك أخي ولعلكِ أختي ممن أمضى عُمْرا في النضال السياسي الوطني من هذا الجانب أو ذاك من جوانب القوى الحية الوطنية. ألفتَ أن تفكر تفكيرا سياسيا، أنفقت جهودا، وسهرت ليالي وعهودا، ولعلك عرفت في زنازن الاستكبار عنَتا وقُيودا. فأنا أخاطبك تارة بلغة السياسة لأستميلك إلى استماع كلمة الدعوة.

الدعوة نداء إلى الاستجابة لله. والدعوة نداء إلى جهاد تُنفق فيه جهودك، وتسهر فيه لياليك وعهودك، وتحطم به قيودك. لكنك تفعل إن اسْتجبت لله ورسوله وأنت تبني لأمتك مستقبلَ عِزة، وبنفس الحركة التي تبْني بها لك مع الله عهداً، وتعقد مع ربك وخالقك عقدا.

ثم إن عدوّك السياسي الجاثم على صدر أمتك وعلى صدر نَفسك لا يمكن أن تزحْزِحه عن مَجْثَمه ما دمت أنت وهو مثيلين في العقيدة، رضيعَيْ ثَدْيِ ثقافةٍ واحدةٍ، أليفَيْ مُناخٍ فلسفيٍّ واحد، تلميذَيْ عقلانية مادية واحدة. لا فكاك لك من المَثِل الحميم لأنك لن تبْصر من عداوته لك إلا ما يسلُبُك ويسلُب أمتك من بضاعة الدنيا. لن تبصر ما يسلُبك من عقلك ومن بضاعة آخرتك.

لذلك فقتالُك عدوَّك وعدوَّ أمتك من موقع المْثليَّة لا يكون قتال الحسْم. أو تتميز عنه بقوميتك، وتنقطع عن أمتك الإسلامية بقوميتك، وعن دينك الإسلامي بقوميتك، فتكون طاغوتا قوميا كما كان البعث وزعيمُ البعث في العراق. ويتواجه استكبار قومي بتصميم قومي وعُنْجُهيّة قومية مع استكبار عالمي له نفس التصميم ونفسُ العنجُهية.

ويقاتل الاستكبار القومي «بصمود» ينتهي بمحرقة العراق، وهتك العراق، ودَمار العراق، وذِلّةِ العرب، وانتهاب ذخائر العرب. صمود جنوني لا يحسُبُ موازين القُوَى.

قال الديمقراطي القومي: يا ليت القومية كانت ديمقراطية! إذاً لَحَالَ الحالُ!

مثليةٌ في صميم الشخصية، وصميمها الاستكبار، لو أضفنا إليها مثلية أخرى على صعيد نظام الحكم لكان ماذا؟ لَكان استكبارنا القومي أقوى وأقدر على المواجهة في أحسن الأحوال. وهيهات! فقومية البعث أمضت صك إفلاسها بهجومها على الكويت.

قومية زعمت أنها تجمع العرب، وتُدمج العرب في العرب، وتسقط نظام العشائر النفطية ليتمتع العرب كلهم بخيرات العرب. نيات حسنة لولا أن القومية لا تجمع، لم تجمع، ولن تجمع ما دامت استعلاء عرقيا.

نحن في الحديث عن جامع يدمج بعضنا في بعضنا، ويلُمّ شعثَنا، ويُقرِّبُ شُقتنا.

الاندماج ضرورة تاريخية، الوحدة الإسلامية قضية حياة أو موت في عالم السيطرة الاستكبارية، الاندماج الاجتماعي قطراً قُطراً، والتوَحدّ والتقارب والتكتل الاقتصادي في عالم السوق، في العالم السوق، في السوق العالم، مسألة إفلاس واندثار أو عِزَة وقوة.

نَكرةٌ نَحنُ في مستقبل العالم ما دمنا كما يتمنى عَدُوُّنا أشتاتا. هِيانٌ بْنُ بيانٍ في الدنيا أنا وأنت إن لم نعرِفْ أنفُسَنا مسلمين. ناصيَةٌ كاذبة خاطئة في الآخرة أنا وأنت إن كان إسلامنا لافتَةً وغلافا، ورسما على غير مرسوم، وبطاقة هُوَيّةٍ إحصائية!

اندماجي أنا، واندماجك أنت، واندماج الأمة في الأمة مستحيل بدون الاستجابة العامة إلى الله ورسوله. هدفنا السياسي التوحيدي حُلْمٌ بدون التوبة العامة إلى الله، توبة خالصة مخلصة لا توبة قناصي الأصوات الانتخابية.

بقاء أمتنا على قيد الحياة ممزّقةً مَهينة ليس فقط وصْمَةَ عار على جبين تاريخنَا، بل شهادةً على هزيمتنا نحن الأمةَ المشَرّفةَ بأمانة ﴿**كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ**﴾[1].

نَجاتِي أنا، ونجاتك أنت في الآخرة، وسعادتي وسعادتك بعد توديع عالم الدنيا ليس إليها من سبيل خارج الطاعة المطلقة لله ورسوله.

وكل هذا: الاندماج الاجتماعي، والوحدة، ونجاة المسلم والمسلمة في الآخرة، أمر واحد لا تنفصل فيه أهداف سياسية عن غايات أخروية.

تعالوا إلى كلمة سواءٍ جامعةٍ! تعال!

لفظ الكلمة السَّواء ومعناها أن لا نعْبد إلا الله ولا نُشرِكَ به شيْئا.

سماء الكلمةِ السوَاءِ ما بين العبد وربه. توبة واستجابة وإيمان وعمل صالح.

أرض الكلمة السواء ما بيني وبين أرباب مستكبرين في الأرض، واجِبٌ عليّ أن أكفُر بهم، وأن أقاتِل بغْيَهم.

ولا قدرة لي على قتالهم لأُفرِدَ الله ربي بالعبادة إلا بتحزّبٍ لله يبْني قوة سياسية، قِوامها المستجيبون لله، التائبون إلى الله مثلي، الخارجون من المسجد لمقاومة الباطل، الملتحمون جسداً واحداً بوشائج ما أمر الله به أن يُوصَل.

(1) سورة المائدة، الآية: 8.

الدمج والاندماج

لا يمكن دمج المسلمين سياسياً مع بقاء الهوّة النفسية بين مسلمين فطريّين أغلبهم أميون وبين أقليةٍ هي النخبة المثقفة التي تشربت ثقافة أجْنبية.

ولا يمكن دمج المسلمين دمجا اجتماعيا مع بقاء الهوة الاجتماعية بين أغلبية شعبية مفقرة وشباب معطّل مُبَطل وبين أقلية محْظوظة في قمتها المتمولون من حلال أو حرام، وفي قاعدتها الطبقة المتوسطة -أغلبها متعلمون منهم شطر مُغَرَّب- التي ظهرت في المغرب وتكونت منذ عشرين سنة.

مطلبان اثنان يتقدمان بالضرورة أيَّ سياسة إدماج. مطلبُ الانسجام الفكري العقدي، ومَطلبُ الانسجام المعاشي الاجتماعي.

فكرة المغَرّبين -أعلنوها أو أضمروها- هي رفع عامة المسلمين فكريا وعقديا من وَهدة الغيبية المتخلفة وتطعيم عقولهم بالفكر التنويري اللاديني. وفكرة المناضلين الديمقراطيين الوطنيين منهم -بعد أن طلق طائفة منهم الشعارات الاشتراكية- أنّ الديمقراطية اللبرالية تِرياقٌ للأدواء الاجتماعية.

داوِني بالتي كانت هي الداء!

الكلمة السواء الجامعة مطلبها الأول شورى نابعة من ذاتنا المسلمة، ومطلبُها الثاني عدلٌ أمر الله بالعطاء له الضّمائر المؤمنة، وأمر بإقامته بوازع السلطان الحاكم المسلم.

الكلمة السواء قرآن: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[1]. ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ**﴾[2].

وابتغاء كلمة أخرى غير كلمة الله التي أوصى بها إلى رسوله زيْغٌ عن الدين، وفسق عن الدين، وظلم في الدين، وكفر بالدين.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ... هُمُ الظَّالِمُونَ... هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[3].

الاندماج فعل طوعِيٌّ، إقبال إرادي، استجابة وتلبية لطاعة من طاعات الدين. وهذا نصيب وازع القرآن.

والدمج فعل تفرضه قوة الوازع السلطاني. ولا بد منه.

وما يجمع الوازعيْن في بلاد المسلمين جامع خارجَ حظيرة الدين. لا أمل في ردم الهوتين، النفسية الفكرية العقدية والمعاشية الاجتماعية، خارجَ حظيرة الدين.

إن كانت الديمقراطية، الذكية بانفتاحها على تجربة غريمتها الاشتراكية، أضافت إلى حقوق المواطن مع سائر الحريات الديمقراطية حقه في كفالة الدولة لمعاشه فذاك كان حكمة لها أصالتها، ولها قواعد اقتصادية ثقافية سياسية بنت عليها.

فإذا جئتَ تلَفِّق للمسلمين اقتراحا مثيلاً تُقْحِمُ به على المسلمين ديمقراطية لازِمَتُها اللادينية، وتُمنيهِم بعدالةٍ اجتماعيةٍ وكفالةِ دَوْلَةٍ شرطها غائب فينا، وهو التنمية والثروة والازدهار الاقتصادي، فأنتَ من الحاطبين بليل.

(1) سورة الشورى، الآية: 38.
(2) سورة النساء، الآية: 58.
(3) سورة المائدة، الآية: 44-47.

الدمج المطلوب -ونستعمل الكلمة ريثما نَصل إلى تأصيل المفهوم- الممكن، الضروري، الذي يستجيب له المسلمون، ويتعبأ له المسلمون، ويوافق على ما يتطلبه من تضحيات وصبر المسلمون، هو الاندماج القرآني والدمج السلطاني. هو الكلمة القرآنية السواء : ﴿لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾. معناه نفيُ الطبقية المستكبرة بثقافتها الأجنبية، ونفي الطبقية المستكبرة بمتاعها وثروتها الحلال أو الحرام.

الدمج القرآني استجابة تُسعد في الدنيا، وطاعةُ أولي الأمر منا، أهل السلطانِ الوَرَعة بالسلطان، الوارثين السلطانَ عن الشورى لا عن آباء كان بيدهم سيف، تُسعد في الدنيا والآخرة بما هي من طاعة الله، وبما هي علاج ناجع لأمراضنا الاجتماعية المفرِّقَةِ الظالمة.

والدمج السلطاني رحمةٌ ورفق، فما التعانُف بين المسلمين بالتي يرضاها الله لعباده المسلمين.

معناه أن الخلاصة الديمقراطية التي تقول: لا ديمقراطية بدون تنمية هي حكمة أخرى علّمها الأساتذةُ الـمُنشِئون، وتعلّمها التلامذة المجتهدون.

معناه أنّ الشورى، كالديمقراطية، لاَ تنبت ولا تثبُت في أرض قاحلة يابسة. معناه أنْ لا بد من اقتصاد مزدهر لتثبيت الشورى والحكم الشوري. معناه أن الآلة الاقتصادية، ومواردَ الثروة، إن عنّفتها وأزعجْت الماسكين بها فهرّبوا الأموالَ إلى الملاجئ الآمنة، خربت القواعد المادية الضرورية للبناء، فما تستنبت أنت بديمقراطيتك الاشتراكية الطنانة بشعاراتها الثورية، ولا نحن بمطالبنا بالعدل إلا أشواك العنف والحرمان العام والخراب العام.

إن الدمج الاجتماعي السياسي إن جئت تفرضه على الناس قَسْراً، وإن جئت تتخطى إليه الحواجز النفسية، والخصوصيات الطبقية، وإن جئت تطعَن في خاصرة المحْظوظين، فلا وسيلة لك إلا العنف.

الدمج القومي

والعنف إن كان قوميا، وكانت الحواجز النفسية ولاءً لدولة قطرية، وكان المحظوظون عشيرة حاكمة وقبيلة، وكانت الطبقة المخصوصة تَحظَى بامتيازات العيش الهَنِيِّ، فقد جمعت كل شروط استحالة الدّمج المطلوب.

أليس صدام حسين، الطّاغوتُ القومي، أعلن، غداة هجومه على الكويت، أن ثورته وعساكره تريد دمج قطعة أرض مغصوبة، ودمج أشتات العروبة في بوتقة العروبة، واستخلاص أموال العرب من أيدي بعض العرب؟

لا ريب أن تفَرُّدَ قبيلة وعشيرة وأسرة بالسلطة والثروة منكر يرفضهُ الإسلام، وتكرهه الديمقراطية، وتعافه المروءة.

ولا ريب أن ذلك استكبارٌ في الأرض، وبغي سياسيٌّ، وهلَكةٌ اجتماعية يصْلَى بنارها «البِدُون» ويُتْرَفُ في نعيمها المحظوظون.

فإذا أتى استكبار في الأرض أعتى، وبغي سياسي أشنع، وهلَكة عشائرية مثيلة، يريد أن يغير منكرا وهو المنكر بعينه، فتلك قعقعة سلاح عنيفة سفكت دماءً وهتكت حُرَما، ثم ما لبثت قوات «عاصفة الصحراء» أن عصفت بعسكر الطالب وثروة المطلوب.

موانع الدمج في بلاد المسلمين نتتبّع أصولها فنجدها -من وراء مظاهر الاستعلاء الثقافي واحتواش الثروة- ترجع إلى أصل واحد، هو الاستكبار.

ولا يعالِج الاستكبارُ الاستكبار.

بل يتشبث شيوخ القبِيلة الفراعنة الصغار بالفراعنة الكبار. وتستنجد الكويت المتْخَمَةُ نفطا ودولارا بأم الفرعنة وأبيها. ويأتي الفرعون القومي ليفعل ماذا؟

ماذا كان برنامَج صدام حسين غيرَ تثبيتِ سُلالَته العشائرية في الحكم؟ هاج العرب، وهاج معهم المسلمون، وتظاهروا لنصرة قائد حزب البعث. وانخدع بعض المسلمين بشعار «الله أكبر» حين كُتِبَ على الألْوية. وظن بعض المسلمين يومَها أن الفراعِنة تسجد لله مع موسى تائبة خاشعة.

لا تجمعنا القومية، ولا يجمعنا العنف، ولا يجمعنا الكفر، ولا يجمعنا النفاق. فإن اجتمعت هذه كلها، وقاتلت تلك المفرقاتِ بهجمة عسكرية، وغضبة بعثية، فها أنتَ والطامَّةَ العامَّة!

القومية والعنف والغضبة الصامدة صمود الأغبياء رأيناها، وبرقَت علينا في شاشة التلفزيون بروق محرقة بغداد.

والكفر والنفاق قرأناهما في تاريخ حزب مشل عفلق، وفي تاريخ الكنيسة الصدامية، وعلى رايات «أم المعارك» الصدامية.

ما أعجبَ مهارة اللاعبين بالعقول والألْفاظ. أم الهزائم سميت أم المعارك. والتهب الحماس العاطفي في نفوس مشحونة وعقول تنسى وتنخدع للكلماتِ.

جاء مشِل عفلق النصراني القومي مؤسس حزب البعث لاجئا إلى بغداد بعد أن طرده تلامذته في دمشق. فكتبت الجرائد العراقية أيام مقدمه بالعناوين العريضة: «الإله العائد».

ومدح الشاعر العراقي القومي شفيق الكيالي معبوده صداماً قبل حرب الخليج الأولى التي سفكت دماء المسلمين، وقبل حرب الخليج الثانية التي أهانت تاريخ المسلمين. قال شفيق الشاعر يخاطب معبوده:

تبارك وجهك القُدسِيّ فينا كوجه الله ينضَح بالجلال

أستغفر الله العظيم. وهل بلغك أن صداما الذي صلّى بعد أم الهزائم على التلفزيون، عاقب الشاعر الكافر، أو أدبه، أو أنبه؟

كلا فالمدّاحون الكفرة عابدو الفراعنة أثيرون لدَى الفراعنة!

ويخرج العرب من «أم المعارك» وعقابيل «أم المعارك» أشدَّ ما كانوا تمزّقاً، وأشد ما كانوا تدابُرا وتنافراً، حتى أخذ شملهم يتجمع على هوان التطبيع مع اليهود، وذُل التصالح مع اليهود. بئس التَّجَمُّع!

الدرس التاريخي البليغ الأليم هو أن القومية لا تجمع، فإن كانت مع عُبِّيَّتها منافقة كافرة مدخولة العقيدة، وكانت رعْناء لا تَحسُب العواقب والممكن والضروري، فالعاقبة سوءٌ وهزيمة ومزيد من التشتت والضُّعف والمذلة.

ذلك أن الجنس يميل إلى جنسه، ويتحالفُ النُّظَراء في الاستكبار بعضُهم مع بعض. وما دام على مَقادَة هذه الأمة شخصيات ماؤها ومرعاها من نبتٍ غير نبتنا وماءٍ غير معيننا فالهزيمة والشتات والمذلة والتمزق مآلنا.

لن يدوموا إن شاء الله. الدائم الله ووعد الله سبحانه العزيز العلِيّ لهذه الأمة أن عدوّها لن يستأصلها، وأن طائفة من المؤمنين لن يزالوا ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. جاء الوعد العزيز في الأحاديث النبوية الصحيحة.

إعداد القوة

وليكون للوعدِ الإلهيِّ والتبليغ النبَويِّ على قدرتنا التعبَوِيّة فائدة، وعلى فقهنا لسنة الله في الكون والتاريخ عائدة، نستبصرُ فيما حِيالَنا وفي مواجهتنا من استكبار عالمي يتعاظم ظلمه، وتتعاظم كراهيته للإسلام والمسلمين: نظرة فيما حيالَنا لِنُعِدّ قوة الأسباب.

ونظرة أخرى لا تتم الفائدة والعائدة إلا بها، في ذاتنا الواهية.

إن الله عز وجل ينصر من ينصره، فتأييده للمستضعفين متى لجَأوا إليه، وأطاعوا أمره، وساروا وَفق سننه التي لا تتعطل، تأييد لا يتخلف. فإن أخل المستضعفون بالشرط المشروط، ونقضوا العقد المربوط، دارت عليهم الدائرة، واندثروا في الأقوام الغابرة.

شرطه تعالى وهو القوي العزيز في نصر المؤمنين المستضعفين نقرأه مُجملا في قوله عز من قائل: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[1].

ونقرأه مفصّلا في الآيات من سورة الأنفال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[2]. إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾[3].

جاء الأمر العزيز بإعداد القوة، وهو اتخاذ الأسباب المادية الاقتصادية العسكرية التسليحية التصنيعية، بعد الأمر الموَجّه

(1) سورة الحج، 40.
(2) سورة الأنفال، 45-46.
(3) سورة الأنفال، 60.

لمؤمنين ثبت إيمانهم أن يثبتوا في الميدان، وأن يذكروا الله كثيرا لعلهم يفلحون، وأن يطيعوا الله ورسوله، وأن لا يتنازعوا فيفشَلوا، وأن يصبروا ليكونوا في مَعيّة الله.

الثبات في الميدان، والصبر فيه، حركة جماعية، وسكونٌ واثق عازم، وإقبال مقتحم. لا ينفك ذلك عن ذكر الله الكثير. لا ينفك الدين والتعلّق بالله عن الصمود أمام العدو. ولا ينفك الصمود عن طاعة الله ورسوله. ولا ينفك الصبر، وهو مظهر شجاعة وقوة، عن الالتحام بين أفراد جماعة لا يتنازعون، بل يتناصرون.

الاندماج الجماعي مشروط بالوَلاءِ لله ورسوله، بطاعة الله ورسوله، بالوَلاء في الله بين المؤمنين، بالتحام الجسد الواحد المتناصر. من هذا الاندماج المعنويِّ الإيمانيِّ انبثقت القوة العملية الصامدة.

نستعرض «الصمود» البعثي الصدامي على شروط الله فنجدها غائبة، لا جرم تكون النتائج العمليةُ خذلانا من الله جلت عظمته. يُؤلِم أشَدّ الألَمَ ما أصاب الشعب العراقي من وَيلات، وما أصاب العرب والمسلمين من خسارة وهوان. لكن الدروس الإلهية من تأديب المستكبرين قاسية، كانت ولا تزال، ولن تَزال.

ما ذكر اللهَ صدامٌ وحزب عفلق. كيف وهما المستكبران على الله، المتألهان في أرض الله. ما أطاع اللهَ حزبٌ قوميّ زيّن له شيطان العروبة طرح الدين. أخْمد صدام وحزبه كل من نازعه الرئاسة فأحرق الأكراد في حلبْجة بالقنابل الفُسفورية. و«ثبت» صدام و«صبر» حزبهُ في مأمَن قصورهم حتى سقطت على ظهر المسلمين صواعق وبوائق.

دَرْسٌ أليمٌ كما يكون أخْذُ ربِّنا للقُرَى الظالِمِ أهلُها أليما. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ**

اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]. وقال عز من قائل: ﴿**كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ**﴾[2].

هل من كفر وتكذيب أحقَّ بلعنة الله وغضب الله من كفر المتألهين في الأرض المتفرعنين فيها. ذلك فِعله جل وعلا بفرعون وآل فرعون والذين من قبلهم، وذلك فعله، كان ويكون، بكل فرعون مستكبر.

لحظة تاريخية في حياة المسلمين نفحص فيها ذاتنا بمنظار قرآني، لنفهم الخذلان من أين جاءنا من باطن ذاتنا، ثم ننظر بعدها، وبعدها فقط، لعدوان المستكبرين في الأرض من غيرنا.

أسبقية الاعتبار بنقائص الذات، ونكوص الذات، وانمساخ الذات، تُعلِّمه الآية من سورة الأنفال في قوله تعالى بعد أن قص علينا ما فعله بفرعون وآل فرعون: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[3].

فعل وجزاء. نكون خفافيشَ عمشاواتٍ عَمْياواتٍ إن طفِقْنا نحلِّل موازين القوى، وحسابات الاستراتيجية، والسياسة النفطية، والاقتصاد العالمي المعتمِد على الطاقة، ومصالح الأمريكيين في الشرق الأوسط بلاد المسلمين، دون أن ننفُذَ ببصيرتنا إلى صنع الله الملِكِ القدوسِ العزيز الحكيم.

اعتبار المؤمنين بالتاريخ لا يقتصر على رصد تفاعلات القُوى صانعة التاريخ، وديناميكية الصراع بين أبناء آدم. ذلك الرصْدُ وما

(1) سورة الأنفال، 52.
(2) سورة الأنفال، 54.
(3) سورة الأنفال، 53.

يُلازمه من ذكاء وفطنة ومعرفة بالمعطياتِ الحاليّةِ وتسلسلِ النتائج عن الأسباب عَمَلُ أذْنٍ حسَّاسَةٍ بما يحدث وما يتقلب في اللَيل والنهار، وعمل عقل يحلل ويرَكّب ويتوقع ويستبق ويخطط، وعمل باصرة تستشرف الآفاق لتبْصر الظواهر.

ذلك الرصد، وعمل الأذن والباصرة والعقل يستوي فيه أبناء البشر. فغبيٌّ مُغْمىً على عقله، عشواءُ باصرتُه، صماءُ أذنه. وحاذق ماهر أعد لكل طارئة عُدّتَها.

اعتبار المؤمنين بالتاريخ يسترشد بقول الله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾.[1]

حكمة الله عز وجل، وسنتُه التي لا تتخلف ولا تُحابِي أحدا. على ميزانها رفعا وخفضا، فعلا وعقابا، بلاءً يمْتحن أوْ عطاءً يخرِق العادة، يترتب الكون وينسجم، وتترتب شؤون الأرض وشؤون أهلِ الأرض ولا تفسُدُ.

التفتنا ببصائر قلوبنا العاقلةِ عن الله، السامعةِ المطيعةِ لشروط الله، لكيلا ننصبغ بصبغة المادة ولا ننضبع، ولكيلا نزدَرد بضاعة الفِكر السطحيِّ ونندفِع ونقتنع.

ثم نتفرغ لمطالعة مظاهر الاستكبار في عصرنا، لنجد في عصرنا أرضا مقَسَّمةً قسمين، مقَسّماً ساكنوها متدافعين. شمالٍ غني، قوي، متعلم، مسلح، تائه بثقافته، حريص على ترويج بضاعتها، عامِلٍ على ترويض أسواق العالم، وعقول سُوقةِ العالمِ، وأموال فقراء العالم، وطاقاتِ المستضعفين في العالم، ليوجه كل ذَلك في خدمة سيطرته، وتأييد سيادته.

(1) سورة البقرة، الآية: 251.

وجَنُـوبٍ يسـكنه المسـتضعفون في الأرض، أكثـر كُتَلِـهِ البشريـة عددا المسـلمون.

غثاء السيل

المسلمون غُثاء كغثاء السيل. مَثَلٌ ضربهُ لنا من أوتي جوامع الكَلِمِ صلى الله عليه وسلم، ليعتبر منا من يعتبر. مثالٌ لاَ أبلغَ منه في تصوير انحلالنا، وخفة وزننا، وَهَوَان قيمتنا، وانسياحنا في مجاري التبعية الفكرية، ومطاوَعَةِ المنْحدَر الهاوي بنا إلى حيث تتراكم نُفايات التاريخ.

سيْل يجرف غثاءً. مثال مبَكِّتٌ، مستنهض للهمم، كاشفٌ عن مكامن الداء في نفوسنا التي أصبحت تبْنا مجروفا، والمطلوب إليها أن تثبتَ ولا تنصرفَ، وأن تَعِزّ ولا تذِلّ، وأن تعمل صالحا ولا يُفْعَل بها.

مَثل سيل وغثاء جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: «**يوشك الأمم أن تَداعى عليكم كما تداعى الأكَلَةُ إلى قَصعتها**» فقال قائل: ومِن قِلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاء السيل. ولينزِعَنّ من صدور عدوكم المهابة منكم. ولَيَقذفنّ الله في قلوبكم الوَهْن**». فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهْن؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**حب الدنيا وكراهية الموت**». أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما.

نقف عند كلمات هن مفاتيح الفهم. كثرة عددية، وعدو نزع الله مهابتنا من صدورهم. وقلوبنا قذف الله فيها الوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت.

أوصاف وأوضاع ناطقة عن حالنا، منطبقةٌ على ما تراه العين، وتنِمّ عنه الأفعال. بادٍ للعيان الضُّعف الغثائي، الكثرة الغثائية.

ولئن كابَر مُكابر في دخائل صدورِ أعدائنا ومُضمراتِ قلوبنا فهزيمتنا على كل الواجهات، خاصةً هزيمتنا الفكرية الخلقية شاهدة. واستخفاف أعدائنا بنا شاهد. لولا خَواء قُلوبنا بما قذف الله عز وجل فيها من وهن لمّا عصيناه وعصَيْنا رسوله، ولولا نزعه تعالى من صدور عدونا مهابتنا، لَمَا تخاذَلنا كل هذا التخاذلِ المتمثل في بسطِنا خدودنا ذِلّةً لِأعدائنا.

مكامن الداء الغثائيِّ في قلوبنا، ومظاهره في تشتتنا. فمن طبيعة الغثاء أنه نُثارٌ من الشظايا والتبن والزبد لا تماسك فيه، لا قوةَ فيه، لا قيام لَه من ذاته. لذلك فهو عاجز عن لقاء العدو بالثبات والصبر المذكورين في سورة الأنفال.

ومكامن استكبار عدوِّنا علينا في اعتداده بحضارته، وعقلانيته، واختراعيته، ونتائج كل ذلك. اعتدادٌ نحن أولُ المُسَلِّمين به، المنبهرين بمقوماته، اللاهثين وراءَ التلمذَةِ له «لنلحق بالركب الحضاري»، ولا حضارة غير حضارة الحداثة الديمقراطية اللاييكية.

ونتتلمذ نحن للمجاز النبوي لنضع أصبعنا على ما يجعلنا قَصعةً مأكولة، وما يؤهل عدوّنا ليكون آكلاً. ونقرأ في كتاب الله المخلوق الكوني لنتتبع على صفحاته، صفحاتِ الأيام، صفحات التاريخ، كيف نحن قصعةٌ، وكيف هم يأكلوننا. ما أبلغ المثَل النبوي في تشبيه انفعالنا وطواعيتنا لما يفعل بنا، بالقصعة. وما أبلغ تمثيل الفاعل بالآكل، من وَراءِ الكلمة شرَه، وجوعة، وتلهُّف، وتنازع بين الأكَلة، وهم جمعٌ، على محتوى القصعة!

قبل ذلك نتدبَّر الدرس من دأْب الله وسنته في عقاب من تكبر على طاعته وطاعة رسله.

قال عز وجل محذِّرا هذه الأمة أن تقع فيما وقع فيه قبلها ممن ناهضوا رسل الله، واستكبروا على الله، وعلى عباد الله فأذاقهم الله نَكال الدّنيا وخزْيَ الآخرة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾.[1]

يكره الموت ويحب الحياة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر أصلا، ومن لم يتجذّر في قلبه الإيمان حتى يتيقن بالآخرة فيعملَ لها، ومن هم هائمون على وجه الأرض سائحون طفيليون، لا ترتفع أبصارهم فوق زينة الحياة الدنيا، ولا تتعدى مطامحهم اللحاق بأبناء الدنيا، المتمتعين بالدنيا، القادرين على الدنيا، الباطشين فيها، المستكبرين.

قلوب لا يسكنها الإيمان بالله وباليوم الآخر خراب يُسرع إلى التعشيش فيه الوهن.

ووعد الله مفعول: عصى فرعون الرسول فأخذه الله أخذا وبيلا. العصيان الفرعوني استكبار على الله. قال لصدام شاعر صدام: أنت إله! وقال القدر ودأب الله في فرعون وآل فرعَوْن: أنت غُثاءٌ! لو كان يبنِي الفراعنة العصاة المستكبرون على أساس التقوى لكان لما جمعه صدامٌ من سلاح، وما دبّرَه من صناعات حربية، وما حرثه من معاهد تكنولوجية، وما درَّبه من علوميين خبراءَ، وما دربه من جيوش، أثرٌ عملي في «أم المعارك».

(1) سورة المزمل، الآيات: 15-18.

لكن الاستكبار الفرعوني القومي بنى ما بناه عُلُوّاً في الأرض وعنجهية عروبيَّةً قاتلت ثورة إيران الأبيَّةَ التي رفعت هامها بكلمة التوحيد.

خِذْلاَنٌ من الله استحق عقابَه نظامٌ أراد العزة في غير الإسلام، فأذله الله، وانكوى ثم انْشوَى شعب مسلم كان غثاء قبل حزب البعث، ولا يزال غثاءً بعد فضيحة القومية.

المسلمون أفرادا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك. لكنّ القَصعة تجمع المأكول، وتنادي بما هي مأكول جحافِل أوربا وأمريكا. وتنادي بما هي فرعونية عاصية دأب الله وسنته.

وصية الله سبحانه للأمة، وتذكيره وتحذيره، تربط أحداث الدنيا وفِعْلَ الله في الدنيا قَدَراً، وفعلَ الناس في الدنيا عصيانا وفَرْعنةً، بالمصير إلى يوم يجعل الولدان شيبا، يوم تنفَطر السماء من هوله. كان وعد الله مفعولا.

خطاب القرآن أهلَ القرآن خطابٌ منسجمٌ، جامع منجمع، الدنيا فيه سيرٌ إلى مصير هنا، سيرٌ يترتب على نوعيته مصيرُ الآخرة.

فمن أبصر الدنيا وتقلباتها، وأحبها، وعمِي عن الآخرة وجحدها وكفر بالله وطغى في الأرض فهو مأخوذ يوما من أيام التاريخ. وأخذه سبحانه الأخذ الوبيل قد نشاهده في جيل أو أجيال، وقد يتأخر قرنا أو قرنين، وقد يكون خذلانا محدودا في معركةٍ مثلِ «أم المعارك»، وقد يكون انخِساف حضارة وانحطاطها واندثارها في دورةٍ تاريخية يَرْقبُ مراحلها المؤرخ، ويقرأ قانونها السماوِيَّ المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾[1].

فهذا هذا.

(1) سورة آل عمران، الآية: 140.

القصعة والأَكَلَةُ

ونرجع إلى القصعة وكيف يأكلها الأَكَلَةُ في عصرنا. كانت الأمة في عصور مضت عُرْضَةً لداء الغثائية أطواراً. أكل المغول بغداد حين تبذخت. وأكل الصليبيون أطراف القصعة في الشرق حتى جمع الله شتات المسلمين وأبرأهم من غثائية ذلك الزمان على يد السلطانين محمود بن زَنْكِي وصلاح الدين الأيوبي رحمهما الله. وأكل نصارى أوربا قصعة الأندلس فذهب خبرها.

وتآكل المسلمون فيما بينهم منذ فجر تاريخ الإسلام في وقائع الجمل وصِفّين، أجّجَ نار تلك الوقائع في جسم الأمة أَوْشابٌ من المتفرعنين القبليِّينَ. وتآكل المسلمون بعد ذلك ما بين شعوبيين ثائرين وعرب حاكمين، وما بين قبائلَ عجمية مغيرة على حواضرَ ناعمة.

كل هذا داخل في سنة دفع الله الناسَ بعضَهم ببعض، وسنة ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[2].

لكنَّ غثائيةَ عصرنا و«قصعية» المسلمين في عصرنا، واستهانة العدو بنا لم يسبق لها مثيل.

إن كان الأَكَلَة من قبلُ طمِعوا منا في أسلاب وغنائم وأراضِيَ وممتلكات، فأَكَلَةُ عصرنا يطمعون في اجتثاثِ شجرتنا من فوق الأرض. ولا يقاوِم بعض أبناء المسلمين وبنات المسلمين الهجمة الشاملة على مبنانا ومعنانا، بل هم بعض أسلحة عدونا في الغزاة، هم بعض ملاعق الأكل، هم وكلاءُ إشهار يبشرون الخروفَ بأن المجدَ كلَّ المجد في أن يموت لتحيى حضارة الذئب.

(2) سورة آل عمران، الآية: 140.

يأكلنا في هذا العصر عدوُّنا بأساليب ووسائل أنكاها فينا بلا مُؤَاربَةٍ ولا ريب تدجين الاستعمار عقولَ أبنائنا وبناتنا واستِحمارها حتى أصبحت تَسْتَلِذّ السُّمَّ الزُّعَافَ، سقوهُ في قَوارير الثقافة المتنوِّرة الفيلسوفة التي من مبادئها حب الدنيا وكراهية الموت.

هؤلاء الذين يحبون الموت في سبيل الله، ويكرهون الذلّة لغير الله، ويحاربون الاستكبار الفرعوني، هم متطرفون إرهابيون، هم متخلفون عن العصر، هم المنغِّصون الطفيليون في مأدُبة يرضى بها الآكل والمأكول.

لا ريب ولا مؤاربة أنّ العقبة الكأداء دون هذا الإدماج الاجتماعي السياسي التوحيدي الذي نتحدث عنه في هذه الفقرة هي وجود جيل مخضرم قضَم الثقافة الغربية بأطراف أسنانه، ثم استساغها جيل بعدَهُ، ثم استمرأها واستطابها وبلعها وتَمَثّل طعامها وشرابها، فأصبحت مكوِّنا أساسيّا في دماء فكره، ومحركا وحيدا في آليات عقله، وصورة السعادة متألِّقة في خياله.

كان الاستعمار في القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى وصَدْرَ هذا القرنِ تنافساً بين الدوَلِ الآكلةِ على خيرات الأراضي، وتفاوضا لِقسمةِ الأرض ووضْعِ خرائطَ وسياجاتٍ لحيازةِ المأكول.

ولبث الاستعمار في بلاد المسلمين عقودا أدخل فيها عليهم نَمطا من الإدارة، ونمطا من الإهانة، ونمطا من قمع المتمردين ومكافأة المتعاونين. وأخمد بقوته العسكرية المتفوقة الباهرة الصنع المقاومة الفعلية المسلحة. وتجاهل المقاومة السَّلبيَّة، مقاومةَ من حلف لا يخرج من بيته ولا يرى وجهَ رومي أبدا. تجاهلها حتى مات من مات، وحتى تطبع الناس وألفوا معايشة الحاكم بكُرهٍ مكتوم.

استقلال ولا تحرير

ألفانا الاستعمار قصعة فأكل ونهب. ثم استجمع الشعب بقيادة علمائه المؤمنين بالله ورسوله قواه الوطنية، فطرد الاستعمار ناهِبَ الخيرات.

وفرح الناس بالاستقلال ظانين أن غياب وجه المستعمر الكافر المكروه وضع حدّاً لتاريخ مؤلم.كانت فرحة ساذجة تلك التي احتفلت بأبطال «التحرير». ساذجةً من حيث ظنت أننا تحررنا لمجرد خفقان راية وطنية على الإدارات، وتزمير نشيد وطني، وظهور رئيس دولة مطربش اسمه كاسمنا وسِحنته كسِحْنتنا ولغة حديثه إلى الشعب لغةٌ يفهم الشعب ألفاظها.

استقلال أبعدُ ما يكون عن معاني التحرير وشروط التحرير. استقلال فاوض عليه المستعمرَ وطنيون من جيل تعلّم لغة التفاوُضِ، ولغة التفاهم مع المفاوَض، في مدارس المفاوَض.

استقلال تخففت به فرنسا من عِبْءٍ مقاومة مسلحة مجيدة أُجْهِضَتْ. وشدت فرنسا رحالَها من المغرب لتتفرغَ لحرب الشعب الجزائري الجارِ. وذهبت أدراجَ الرياح عواطف رجالٍ وطنيين واسعي الأفق، عميقي الوعي بوحدة الأَمة عَبْرَ الأقطار التي اقتطعها الأوربيون في القرن التاسع عشر بتاريخهم.

وتبعثرت جهود الوحدة والمناصرة. وخرجت الجزائر من حرب تحريرها الوطنية منتصرة. وكان استقلالٌ آخرُ، لم يكن تحرير.

خلَّف فينا الاستعمار رابطتين شديدتَيْ الوَثاق، إحداهما أخزى من الأخرى.

كان الاقتصاد الاستعماري نزع ملكية الأرض من مالكي الأرض، وأردف في بعض معاملاته الرأسمالية المغربية التجارية في عربةٍ آخِرَ أوَاخِرِ القطار الفرنسي. ووجّه عمليّات إنتاج المعادن وتنقيتها وتعبئتها لتُصدَّر وتصَنَّع في فرنسا. وبدأ في توطين الإنتاج الفلاحي التصديري على حساب إنتاج الحبوب.

فلما انسحب المستعمرون، انسحبت جسومهم، بقي اقتصادنا مربوطا بحبل السرة، جنينا ضعيفا تُمْلَى عليه الشروط.

تبعيةٌ اقتصادية أدخلتنا، على كل حال، في حلبة الاقتصاد التبادلي. وشبت الرأسمالية الوطنية، واستَقْوَت بأجيال من الشباب المتعلم الخبير في فنون إدارة الأعمال، وفنون تدوير الأموال وتحويلها وتدبيرها. وازداد التحامُ الاقتصاد الوطني المكافح باقتصاد السوق العالمية التنافسية.

وتلك حداثةٌ حتمية زجّ بنا فيها الاستعمار، واقتضتها وتقتضيها طبيعة الأشياء وديناميكية التعامل مع العالَم السوق.

فتلك رابطةٌ ووَثاق، ما منها من فراق. بشروطها إلى أن يأذن الله بتوَحُّدِ المسلمين ليشكلوا الكتلة الاقتصادية التمويلية القادرة على المنازلة والمنافسة لتكون آكِلةً من حلالٍ، مستعصيَةً على الأكَلَةِ مِن حرام. رابطةٌ ووَثاقٌ بشروط القويِّ ما دمنا ضعفاء، ومن أسبابِ ضُعفنا الرئيسية في هذا الباب «لعنة» النفط، ورابطة النفط. ما كان النفط ليكون إلا طُعمةً حلالا للمسلمين لولا أن ضَخّ أموالَه في قنَواتِ الاستكبار تحالُفُ الاستكبار العشائري مع الاستكبار الاستعماري الجديد.

كانت هذه الرابطة الوَثاقُ الاقتصاديةُ تكون نوعاً من مرض الزُّكام، يُعالَج وتمُر أيامه ولو طالت، لولا الرابطة الأدهى الأخزى: ألا وهي رابطة الاستحمار، أي التبعية الفكرية، والاندماج الثقافي، وأَلْيَكَة الاستعداد، وأليكة الاستعداد والارتداد.

الفصل الرابع

الأرصدة التاريخية

- جيلٌ حُوِّل وغُرِّب
- الإِثْمِدُ الماركسي
- الأرصدة التاريخية
- هل من سبيل ؟
- المشاريع الاشتراكية
- طاشت كِفَّةٌ، ورجحَتْ كِفّةٌ
- لا عُمْقَ لكم في التاريخ!
- طاعة الله تُجَدِّع أنف الاستكبار
- الخطبة السيفية
- السيف وشراء الضمائر
- رؤوس الشهداء عند أقدام الملوك
- هَلَكَة الأمة
- الجُرأة على الدين
- ولنا «عمقنا التاريخي» وسلَفُنا الصالح
- آمال يانعة تذبل
- فِتن تهدد الروح
- في حواشي الساحة السياسية
- عن أي تغيير نتحدث وتتحدثون؟
- الدعوة مِهنتنا

جيلٌ حُوِّل وغُرِّبَ

حرث في أرضنا المستعمرُ على مدى عقودٍ بذور التفكير الغريب عنا، وبذورَ مناهج التعليم المخالِفةَ لمناهجنا، ومدارسَ التعليم يديرها رجالُهم وتعلم فيها نساؤهم.

تردد المسلمون في بعث أبنائهم إلى مَدارسِ الكفارِ لأن التَحَوُّلَ المقْترَحَ كان مفْزِعا. مَنْ مِن المسلمين تسمح مسؤوليته عن أبنائه أن يُودِعَ أبناءه مدرسةً بناها الكفار، وتُعلم فيها الكوافر؟

وكان المكرُ الاستعماريُّ، الـمُوازي للبطش العسكري الاستعماري، مما أَسَّسَ دواهيَه مُعَلِّم الاستعمار ليوطي أول مقيم عام للحماية الفرنسية في المغرب.

مكر وداهيةٌ استجلابُ ثقةِ الناس، وعطف الناس، واستجابةِ الناس إلى المدارس الحديثة، بتوظيف فقيهٍ مجلبَب مُسَلْهَم محترَم في المجتمع، يبكر إلى المدرسة ليعلم أبناء المسلمين القرآن، وليحَفِّظَهم الدعوات الطيبات، وليلقِّنهم مبادئ اللغة العربية.

مكرٌ أن يُبكِّرَ الفقيه كما ألف المسلمون أن يبكر تلامذة المدرسة القرآنية المألوفة.

وتطوّرت المدرسة الحديثة حالا على حال. استُؤْلفَ الأعيانُ مِن المتعاونين مع السلطة الحاكمة، ثم الأعيان مِن سائر الناس، ثم كافّة الناس.

وشُجّعَ النبهاء من التلامذة، وحبتْهم الإدارة بالمِنَح ليَلجُوا التعليم الثانوي الذي يتقدم بهم خطواتٍ بعيدا عن قرآن الفقيه المحترم، ثم

ليُبْعثوا ثُبَاتٍ وليُبعثوا جماعة إلى جامعات فرنسا فيبتعدوا خَطواتٍ أوْسَع عن القرآن وتعليم القرآن.

وهكذا صنَع الاستعمار نُخْبة متعلمة حديثة الفكر، لاييكية الفكر. صنعها تعليم مُبرمَج على تطويع النفوس وترويض العقول منذ نشأةِ الطفولة التي انغرز في أرض فطرتها نشيد «فريرُو جاكُو» (أي الراهب جاكو) لا سوَر القرآن. ويستمر التطويعُ والترويض والاستجلاب بالـمُغريات المتنوعة عندما يجد الشاب نفسه في «عاصمة الأنوار» باريس، في أرض غيرِ الأرضِ، وأحياءٍ غيرِ الأحياء، ونظافةٍ وحضارة، وناس يحترمونك ويسمونك بالمسيو عوضاً عن ناسِ البلد الذين يسميهم المستعمرون «بيكو» (أي حمار)، ويركلونهم، ويسبونهم.

أفليست هذه المعاملة، وهذا المناخ النظيف أشرف وأعزّ من لُبْثِي في هيْأةِ البلد، ولِباسِ البلد، وكلامِ البلد، ولغةِ البلد، وانحطاطِ أهل البلد!

إغْراء قويٌّ، وبرمجةٌ مُبَكِّرةٌ، وصناعةٌ في فَن التغريب متقنة مدروسة. سَمّى العمليّةَ مؤسِّسُ الاستعمار البريطاني في مصر اللورد كْرومَرْ في مذكراته مَطْحنةً. نقلت سخريته في كتاب «الإسلاميون والحكم»، فلا أعيدُ النقل رغم طرافَة السخرية ولَذْعها لو كان من يقْرأ حكم أعدائنا علينا.

إغراء قويٌّ تصدت له الحركة الوطنية تصَدِّيّاً أبِيّاً، فأسسَتْ مدارس حُرَّةً تعلم العربية، وتعلم الوطنية، وتعلم الاعتزاز بالذات.

وتجاذبت الحركةُ الوطنيةُ والمطحنةُ التغريبية الشبابَ المتعلم في أوربّا، فاستنفذت منه أفراداً لامِعينَ كانوا في مقدمة من نازل الاستعمار، وقاوم الاستعمار، وفاوض الاستعمار آخرَ الأمر، بشروطٍ

تنازعتها الذاتية الوطنية المجسّدة في مِلِك منفيّ مظلوم هو رمز الهُوَيّة، وتنازعتْها المصلحة السياسية، والمرونة الدبلوماسية، والتنازلات الدبلوماسية. وكلها فنون لا يتقنها المستعرِبون خريجو القرويّين، مؤسسو الحركة، الـمُصَلّون العلماء رحمهم الله.

تحوّلَ جيلٌ وتغَرّبَ، وتجاوزَ الركْبُ جيلاً أنهكه الصراع العظيم ضد الاستعمار. تجاوزه وعقّهُ وعقّ تعاليمه أبناءٌ وذراريٌّ استُحْمِرُوا وطُحِنَتْ فيهم معاقِد الإيمان فعادوا نوعا آخر من الغثاء، غيرَ الغثاء الموروث الذي كانت عبّأَتْ منه البقيّةُ الوطنيةُ الصالحةُ قوةً قهرت الاستعمار وألجأته إلى الانْسحاب الجسديِّ.

نوع من الغثائية جديد يبتعد بها سيلُ الحداثة إلى الشاطئ الغربي، فتتراكم من هناك في أفكارهم وعاداتهم، مع ما تلقنوه من علوم مفيدة، سخافات وتفاهات، وفلسفاتٌ وتُرّهاتٌ.

وانتُزِع الاستقلال، أو بالأحرى دُسَّ إلينا الاستقلال دسّاً، فوجب إدارة دولة، وتطويع شعبٍ ترتجف فيه نخوة المقاومة ويَرتَجّ فيه الغضب على المستعمر، وتنقشع فيه آمال مشرقة في غد كرامة وعزة.

كان جيش التحرير رجْفةَ قوة، وكانت المقاومة رجّةً زلزلت أركان دولة الاحتلال المنسحبة.

أعقبَ انسحابَ المحتَلِّ النصرانيِّ بروزُ الجيل الخلْف، خلْفٍ مسلِم أبا عن جَدٍّ، مسلِم بالاسم، مسلم ربما حتى بصلاة دربه عليها أبٌ مستقيم، وأم فاضلة، وبيئة مسلمة.

وتصدَّى هذا الجيل المسلم رسْماً، الغربيُّ كلا أو بعضا، لمهمات إدارة الدولة، وإخماد الرجفة الحرة، وتطويع روح المقاومة.

ما كان يدري المغاربةُ أن ملِكَهُم العائدَ الذي كانوا يرَوْن فيه رمز السيادة وأمل مستقبل شريف، رجلٌ كانتْ تغلي من تحت رِجليه، رحمه الله، قِدْرُ الصراعات المصيرية التي آلَت بالمغرب الحديث العهد بالاستقلال إلى المصير الذي نراقبه ونأسى له اليومَ بعد أربعين سنة من الاستقلال.

كان محمد بن يوسف رحمه الله من جيل علال الفاسي ومحمد المختار السوسي ورفاقِهم العلماءِ مؤسسي الحركة الوطنية. إن لم يكن هو عالما ولا مؤسسا فقد كانت ثقافته قرآنية، وكان إسلامه إسلام عَوَامّ المغاربة. تميز عن عوامِّ المسلمين بمنصبه السلطاني، نصبه الفرنسيون شابا صغيرا ضعيفا على أمل أن يكسبوه دُمْية تاريخية إلى جانب إدارتهم. فما لبث أن أصبح لهم عَدُوّاً وحزَنا، سَرَتْ إليه وتسرّبَتْ روحُ الوطنية التي كانت عند خاصة العلماء وعامة المسلمين دينا من الدين.

كان رحمه الله من الجيل / الجَسر، من الجيل المخضرم الذي عَبَر على جثته من ضفّة إلى ضفة جيلٌ ثانٍ مغرَّبٌ عاقٌّ.

جيلٌ تنصل من الدين دون أن ينْزِعَ ثياب المتَدينين، تنصل من الدين وحرّف الدين ولسانُه رَطبٌ بتمجيد الدين. جيل لَبِسَ لَبوسَ الدين وتلبس به. اللباس كلماتٌ وآيات قرآنية علِقت بالذاكرة منذ عهد فقيه الصبا، وجبة بيضاء وسلهام مخزني، واللاَّبسُ شخصية غربية مُمَحّضةٌ.

اللابس هَيْأته مغربية مسلمة لكن تربيتَه، وبيئتَهُ، وتقلبَه مع الأحداث، وتقليبَهُ لها، وصراعَه السياسيَّ، وتدليسَه باسم الإسلام، يجعل منه الأنموذج الأكمل للمغرَّبِ اللاييكيِّ المنفصلِ عن الشعب، المتكبّر عليه، الزّاعِم أنه من الشعب وإليه، بينما يشهد الحالُ أنه اللَّبِنَة التي لا تُمَثِّل في الجدَارِ إلا نُتوءاً، والتّبْنةُ الغثائية الجديدة التي لا تزيد

غثائية الأمة إلا تلوينا. بلى! زادتْها فداحةً ومنَعةً على الاندماج، وبُعدا عن دين الله بما ابتدعت، وبما اقترفت من آثام وظلم.

من العبث أن نتعرف على وسيلة إدماج مجتمع غثائي إن لم نتعرفْ على تاريخه، وندْرُسْ طبيعة العوائق النفسية والفكرية التي تحولُ دون تقريب مكوناته، وإصلاحِ ذات بينها، وإدماجها في كيانٍ موحد متناسق.

وبما أن تاريخ المغرب تاريخ قومٍ وأقوام مسلمين، فإن من الضروريِّ مراقبةُ التحول، بل التحويلِ، الذي نقل المغاربة من إسلام يَتَبرَّك بشرفاءَ من آل البيت، إلى إسلام ملوكية تتربع على عرش السيف، إلى إسلامٍ نائم في حِجر الانحطاط والخرافيةِ والحرب على القبائل «السيبة»، إلى إسلام هوجِم فدافع عن نفسه متشبثاً علماؤُه برمزية السلطان، إلى إسلام استقلالٍ طَعنَ المقاومة الحرة من خلف، إلى إسلامٍ تربع ملكُه على عرش الطاووسية الـمُرَيَّشَة بزينة الديمقراطية، تلك الديمقراطيةِ المعشوقةِ الممتنعةِ التي نحاوِر في شأنها فضلاء الأمة منذ حين.

إلى إسلام «متسامح» «معتدلٍ» هو «الإسلام الحقيقي»، وغيره تطرفٌ ومُروقٌ عن الدين. إسلامٍ رسمي هو المؤسسة المركزيَّةُ في نظامٍ معاقِدُ قوته وإرادته وإبرامه ونقضه في يد شخص متفرِّدٍ كلمتُه قانون، ونطقُه حكمةٌ، وتوجيههُ السياسي مرجعيةُ الكلِّ.

إسلامٍ له جذورٌ تبرُّكيةٌ منذ نَيِّفٍ وسبْعة قرون، وجذور مخزنية منذ نَيِّفٍ وثلاثة قرون، وله جذور أربعين سنة كان الشخص المركزي في مُعْظمِها هو اللاّعبُ الوحيد أمام الستار وخلف الستار.

شخصية وعقلية صنعت حاضرنا، كيف يمكننا استبصار مستقبلنا إن بقينا على وهْمِ أن الملكيةَ هي وحدَها الجامعةُ الدامجةُ وأن ذهابَها فيه انفراطُ العِقد، ونَقضُ الغَزْل، وهدمُ البيت. فماذا نحن فاعلون بعد الطوفان. الطوفان حتمية تاريخية، الطوفان سنةُ الله تجرف الاستكبارَ عندما يعتدي الاستكبار ويتعدّى وتأخذه العزة بالإثم.

نعم !جمعنا السيف قرونا، وانتُسجتْ في ذاتنا لَبَداً على لَبَدٍ، وطَبَقاً على طبق، وجيلاً بعد جيل، تبركية صوفية، ومخزنيّة سيفية، وقهريّة مخزنية، وسلفيَّةٌ مجددةٌ أسست دُولا عظيمة أمازيغية المحتِد على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين رحمهم الله، وجمعت جهود الشعب حتى طرد الاستعمار.

الإثْـمِدُ الماركسي

اكتحل بعض الأحرار المعاصرين بالإثْمِدِ الماركسيِّ فجَلَّى لهم صورة الإقطاعية، ودلهم على مرجعية لمقاومة الإقطاعية والثورة على الإقطاعية. ووجدوا في رسميات إسلام المخزن وفي سكوت علماء المخزن ومدَّاحي المخزن، وسائل إيضاح كما نقول نحنُ معلمي المدارس.

وعاشوا تحت وَطْأَةِ الإقطاعية فقامت فيهم قائمةُ الغَضب. ارتسمت الإقطاعية أمامهم متجسدة في ملكيةٍ مستبدّةٍ عتيقةِ المباني والمعاني، لابسَةٍ ثوْبَيْ زور. أحدهما جلباب مخزني والثاني بذلة ديمقراطية. لا الجِلبابُ، لباسُ عامة مغاربةِ أمس، يعدُو أن يكون تَذكارا وفلكلورا، ولا البِذلة الديمقراطية والدساتير المحررة داخل القصر تعدو أن تكون مما يتخذه المسرحيون من متاع.

وجد المناضلون اليساريون، الغاضبون على الظلم، المتشقون أسلحة الإديولوجية المحرَّرة، وسائل الإيضاح ماثِلَةً في تلفيقٍ متلوِّن يهرُبُ من الجلباب للبذلة، ويغيِّر البذْلة لحاجة الساعة، ويغيِّر الدستور، ويَعِدُ ثم لا يفي، ويمْهَرُ في ضرب النّخَب المثقفة بعضِها ببعض، ويصطفي الأدمغة الممتازة يغريها بالمال والجاه.

غضِبوا وناضلوا وكرهوا. وأدّوا الثمن غاليا. فلهم رصيدٌ نضالي هم بِه فرحون. هُمْ به في رأي أنفسهم المؤهِّلُ الذي لا يُسامَى، المؤهل الذي يرشحهم وحْدَهم دون الخشاشِ العامِّ ليدافعوا عن الوطن، وعن الحرية الضائعة، وعن حداثةٍ هم وحدَهم الخُبراءُ بها.

تراجعوا على استحياء من مواقع ثورية، وتراجعَ بعضهم عن شعاراتٍ كانت هي زادَهم إلى نادِي التقدمية الاشتراكية العلمية الأممية. لكنَّ الرصيد النضالِيَّ وزنازن السجن، وذكريات سراديب التعذيب، والفواجع الاجتماعية التي شتتت أُسَرا، وقتلت شبابا، وقضت على مستقبل كان واعدا، لا تزال هي الحجة، وهي جواز المرور، وهيَ المؤهِّلَ لدَوْر رئيسيّ في مستقبل المغرب.

آخرون من تلامذة الإديولوجية الغاضبة، منهم من زارَ زنازنَ حامي حِمَى الإسلام ومنهم من طَرأ على الساحة، ما تراجعوا عن شعار، وما تعلموا من تاريخ.

كانت كوبا إلى عهد قريب آخرَ معْقل للاشتراكية العلمية، وكان فديل كاسترو يصرخ بعقيرته في خطبه الـمَديدة: الاشتراكية أو الموت.

كان ثُوار الصين أذكى من «القائد الأعظم» الكوبي، إذ تراجعوا عن مذهب ماو في الاقتصاد، فازدهر اقتصادهم، وساقت اللبرالية الاقتصادية طوائف من أصحاب المبادرة الحرة إلى مواقِعِ الاعتزاز،

وأدى الاعتزاز إلى وعْيٍ وتمرد.فالصينيون يعالجون تحَوّلهم السياسي إلى الديمقراطية في الحكم، ويسيرون إليها من تصلب الحزب الوحيد، ذي الرصيد العتيد، بخُطىً أليمة.

وانقلبت شوارع هافانا، عاصمة كوبا، إلى سوق واحدة على طول أرصِفة الشوارع. جَفا الناس هناك شعار «القائد الأعظم» فهَمُّ كل واحِدٍ، بعد أن ارتخت عَضلاتُ الحزب الشيوعي، وهاجِسه وحديثه إلى نفسه وإلى الناس هو: ماذا يمكن أن أبيعَ؟ على الأرصفة الحلاقون نصبوا صالوناتهم على طاولة خشبية، وبائعو السيجارات وبائعات الأصباغ، وبائعو كل شيء.

رصيدُ ثورة ماوْ رصيدٌ عظيم في تاريخ الصين وفي مقاومة الاستكبار. رصيد كاسترو ونضاله وصمودهُ بطولات تاريخية.

الأرصدة التاريخية

أما أصحابُنا المناضلون الغاضبون على اللباس التقليدي لمّا كان لابِسُه هو الإقطاع مجسّداً، ولمّا كان اللباس التقليدي أيضا موروثا يلبسُهُ المسلمون، فقد كرهوا اللباس لكراهية اللابس، ونفروا من الدين جُمْلَةً لأنّ في كتبهم المقدسة أن الدين أفيونُ الشعوب، رصيدهم أنهم فهموا ذلك ولم يفهم الناس. كانت لهم وسائلُ الإيضاح حجةً قاطعة على رجاحة الفكرة الإديولوجية، وكانت في أجسامهم آثارُ التعذيب وفي أنفسهم ذكريات التعذيب والتشوهات الخَلْقية والنفسية التي يتركها التعذيب، الدليلَ الحاسمَ الـمُحَسَّ على أن الإسلامَ عدوّ الإنسان، وجلادُ الإنسان، وغامِطُ حقوق الإنسان، ومُهينُ المرأة، ومُيْتِم الأطفال. لا رصيدَ لهم غيرُ الوعي بذلك.

ليس لهؤلاء الثوار، العائدين من ثورة إلى توافق ديمقراطي على عِلاَّت الديمقراطية المخزنية، من رصيدٍ يُعتَدّ به سِوى أنهم ضَحّوْا أعظم التضحيات، والتضحيات عمقٌ تاريخي، والتضحيات شهادة تاريخية، والتضحيات هي الإيجابية الوحيدة التي يعرف بِها الأحرار الوطنيون النزهاء المقدسون.

وتأتي أنت تطلب إليهم توبةً إلى الله تجمع شتات الشعب، ويصطلح بها الناس مع ربهم، مَن أنت حتى تطعَن في الذين قاموا عندما قعدت، ونِمتَ وهم مُعَلّقون في مجازر أفقير؟

كتب أحدهم ممن لا رصيدَ لَه البتَّة أن هؤلاء الملتحين جرثومة يجب تعقيمها. وتساءَل من منبر قلمه الفياض عن العمق التاريخي لهؤلاء الدخلاء. لا برنامج لهم، ولا درَاية. فلعل اتصالهم بنا يعطيهم شرعية. وهذا ما يرفضه الرفيق.

كيف يلوث الرفيق الذي لا رصيدَ له البتَّةَ ماضِيَ سِربه بمد اليد إلى لُقطاءَ في البلد، لا تاريخ لهم ولا، ولا؟ الشرعية منه تستمد. الشرعية هو وسربه استمدوها من تصالح مع الإقطاع الأسود-كان. وتجيئون أنتم من لا أين، من الفراغ التاريخي، لتكسِبُوا شرفاً وتدخلوا الحظيرةَ المحرَّمة مُتسلقين علينا نحن أهلَ البلد!

وهكذا بدأ التاريخ في المغرب من عهد الانتفاضات الوطنية اليسارية الثورية التي تعُمُّ بَرَكَتُها كلَّ رفيق، وتعزلُ في رُكْنِ اللاّموجودِ طائفة المتطرفين الإرهابيين.

سَلْوَى منهزم في الميدان! تَمْنِيَةُ من بدأَ يرى المستقبَلَ بشيء من الموضوعية! مساهمَةٌ، في مؤخرة القافلة، تصبّ في الحملة الاستكبارية العالمية ضدّ إسلام من لا يركعون إلا لله!

قَبْلَ الرفاق -برصيد أو بلا رصيد- كان العدَم، كان الظلام! إن كان للحركة الوطنية أن تنشد -والزمان زمان، والاستعمار جاثم على صدر البلد- نشيد الحرية: المغرب لنا لا لغيرنا، فذلك كان صوت الحرية يدفع به المسلمون الـمُستعمَرُون في صدْر الكفار المستعمِرين.

وكانت الكلمةُ سِلاحا، وكانت الكلمة نداء عبّأ الشعب المسلم.

أما كلمة الرفيق فتدل على أن الحقائق انقلبت عنده رأسا على عَقِبٍ، فأصبح المسلمون الـمُصَلون دخلاءَ لا تاريخ لهم، ولا، ولا. وأصبح الجيل الثالث، الذي استقى شرعيته من غضب ونضال تضحية، أو من مجرّد لَوْك الشتائم في حقِّ الإسلاميين الدخلاء في كل بلد، الإرهابيين الذين يهددون استقرار العالم.

طارئون على التاريخ وأصَلاء. طفيليات يجب تعقيمها.

هل من سبيل؟

إن سألته عن حقيقة إسلامه ارتكبتَ خطيئة الإقصاء، وهي من الكبائر في دين الديمقراطية، والديمقراطية لدى الرفيق مكتسَبٌ قال الناسُ إنه لا رجوع عنه. أما أنت فمسؤول عن طُرُوئك في الساحة، وعن تَسلقِك على المراتبِ السياسية.

إن سأل غيْرُنا: ما يجمع يسارا ويمينا غير الديمقراطية والتعددية الديمقراطية؟ فنحن نسأل: هل من سبيل في بلاد المسلمين إلى تفاهم وتقارب بين مسلمين لا ينازع أحد منهم أحدا في إسلاميته غيرُ التوبة العامة، غير الميثاق الإسلامي، غير الاستجابة المندمجة لنداء

الرب الواحد والقرآن الواحد: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1].

ميثاق له هيأة قانون يتعامل بمقتضاه نُخَبٌ متشاكسةٌ على السطح. وبحر الرمال الذي يزلزل خطوات الدّخلاء هو الأمة المسلمة السّائرة إلى وحدتها، الزاحفة إلى وَلايَةٍ إيمانية تُدمج النفوس والعقول وتُبرئ الغثاءَ القديمَ التقليديّ، والطارئَ المغَرب، والثائر المستند إلى فكر تهدَّم، من داء الغثائية.

هل في الإسلام مُعتمَدٌ نستند إليه، ونقطةُ ارتكازٍ تعطينا القوة لنهدم ونَبْنِيَ؟

غضِب من غضبَ وثار من ثار بوعي مستعار لأن الإسلام الذي رآه وكرِههُ وصَلِيَ بناره استعبادٌ وخنوعٌ وإقطاعيةٌ.

وفهم الماضي والحاضرَ والمستقبل مَنْ فَهِمَ بِتَنْوِيرِ وافد لأنّ الإسلام الذي لم يُعلِّمُوهُ إيّاه صغيرا، ولا انتَشط لتعلُّمه كبيرا، ولا تيقظت فيه نباهةٌ ليتحرر من أحكام المستشرقين وأصناف الملحدين، إنما هو عنده ظلامية وتخلف حضاري وأسطورة عفَّى عليها الزمن منذ خرجت الإنسانية من خرافات القرون الوسطى.

قطيعة مع الإسلام، كل إسلام، لأن الوجهَ الباردَ الغاشمَ الذي عرفوا منه الإسلام لم يكن مشرِّفاً ولا قابلاً أن يعتمده حر. ولأن الزاد الثقافيَّ الواسعةَ رَوافِدُه الغربية صورت تاريخ الإسلام صراعا طبقيّاً أَخْلَتْه مِن معاني الإيمان. فالإسلام عند الأستاذ اليهودي المستشرق رودنسُون وعند الأستاذ المسلم أصلُه حسين مروة يمين ويسار منذ عهد الصحابة (أقول رضي الله عنهم).

---

(1) سورة النور، الآية: 31.

قيل إن حسين مروة تاب من بعد ظلمه وطلق أفكاره قبل موته. والذي لا نزال نشاهدهُ ونسمعه ونقرأه عنادُ الرفاق وإصرارهم على سندهم الإديولوجي الماركسي في فهم الإسلام. ما يبقى في يد الإنسان إن طرح من يده عُمْدَته الفكرية ومُسْتَمسكه!

في سعيِنا لجمع المسلمين ودمجِهم والتماسِ معابرَ وجسورٍ للحوار والتقارب لا غِنى لنَا عن بحث الدعائم الفكرية والمرتكزات المذهبية، لنرى ما يفرق وما يقرب. فمعرفة فكر الناس في حد ذاتها عنصر قوة. الوضوح عنصر قوة. والغموض الـمُعرِض الرافضُ النَّاسَ جملةً مُناخٌ تترعرع فيه عوامل العنف.

هل نغْمِطُ نضالية الرفاق حقها، وهم بها معتزون، رصيدُهم زُبدَةُ حياتهم، وخلاصة عُمْرهم؟

أم نقلل من أهمية وطنية الوطنيين فنكونَ حمقَى ظالمين؟ فضلُ الكفاح الوطني في توعية الشعب وتعبئته كالشمس لا يحجبها غربالٌ.

لا نغمط ولا نقلل، لكنَّ نقدَ الفكر مقدمة ضرورية لنقد العمل. والنقدان ضرورتَان تتقدمان بين يدي هدم فبناء يكون سندهما من ذات ديننا، لا من خارج.

نقد فكر الناس ونقد عملهم، وتوضيح الغامض، وتجلية طريق المستقبل بكشف ضباب النسيان والجهل وتشويه الحقائق، هو حق الأجيال الصاعدة الواعدة البارئة بحول الله من داء الغثائية. لا نريد لهذه الأجيال أن تدخل في صراع دموي مع بقايا ماض، وأطلال فكر، وشيوخ سياسة، نمسح فيهم ما نعانيه من كوارث دون أن ننقِّب عن المبدإِ، والمسار، والباعثِ والـمُنعَرَج، والمؤثراتِ.

هل في إسلامنا ما يجمع الأحرار والمسلمين على مناهضة الظلم كما فيه ما يجمع المسلمين على رفض الكفر والإلحاد؟ هل في مرجعيتنا

الفكرية المذهبية، الشرعية أوّلَ شيء، والتاريخية ثانيَ شيء، ما يمكن أن نجتمع عليه ونتخذه معتمَدا لفهم حاضرنا وماضينا والخطِّ الصحيح السالكِ لمستقبلنا السياسي؟

ما تفصيل «كلمة السواء» فيما يخص تغييرَ النظام المكروهِ من الجميع، وبناءِ نظام يتنازع عليه ديمقراطيون عن اقتناع، وديمقراطيون عن اضطرار بعد انهدام الكنيسة الإديولوجية، وشوريون يُسائلهم الناس عن طبيعة الشورى، وعن آلياتٍ لتحكيم الشورى، وعن مؤسسات لتثبيت الشورى، في عصر الآليات والمؤسسات؟

إذا كانت حساسية الفضلاء الديمقراطيين الوطنيين، والرصيدُ العتيد من تضحية الأحرار التقدميين، يقفان حاجزا نفسيا عقليا مَوْقعيّاً دفاعيا بينهم وبين دعوتنا إلى توبة عامة وكلمة سواء، فلا يبقى إلاَّ كشفُ المبادئ والمسارات لنخبر الأجيال الإسلامية الصاعدةَ البارئةَ إن شاء الله كيف انفرجتْ بالناس الطريق، ولِمَ انفرجتْ، وإلى أيْن يُؤدي سير هؤلاء وهؤلاء، لو كانَ لهؤلاء وهؤلاء منفذ من الطريق المسدود الذي أدتهم إليه نياتٌ وصراعات، وآثامٌ قديمات وجديدات.

المشاريع الاشتراكية

بقيت المشاريعُ الاشتراكيةُ في المغرب مطامحَ وأحْلاماً، ومغامراتٍ بطولية وتضحيات أغدَقت على الصدور الثورية نياشين الافتخار.

كتَبْت «المشاريع» بالجمع لأن الثوريات المرجعية أشكال وألوان ومدارسُ، لم يَخلُصْ لمدرسة منها الجوّ لوجود القمع المخزنيّ الأليم الفظيع، ولتناقضات الرفاق وصراعاتهم وانشقاقاتهم في الأركان المظلمةِ للسجون، ثم على صفحات الجرائد كلما وجدت الجرائد

متنفساً. الرّفاق منهم الماركسي اللينيني، ومنهم الماركسي التروتسكيُّ، ومنهم الماوي، والكفاري، والنّصيُّ، والعرُوبي الماركسي، والاشتراكي القومي، وما لست أدري.

لَمْ تنجح الاشتراكيات في المغرب، وبَقيت مشاريع، وبقيت ذكرى بطولات، منها الحقيقية التاريخية، ومنها الوهميةُ المعطّرةُ بعبير الشعر والأشواق. لذا فما بأيدينا إلا أن نقيس الغائب على الحاضر، وأن نجازف قليلا باستطلاع النيات.

ماذا كان الاشتراكيون الثوريون فاعلين لو نجحوا؟

كانوا فاعلين بطبيعة الأشياء ما فعله غيرهم في بلاد العرب. كانوا يقيمون دولة اشتراكيةً قوميةً يتنازع السلطةَ فيها بربرٌ هم أهل البلد الأصليون، وعربٌ هم ماذا؟ هُمْ مكتشفو القارة الجديدة. القومية الاشتراكية.

أو كانوا يقيمونها اشتراكيةً مُصَنِّعَةً لها طموحٌ عالٍ تستثمر في الصناعات الثقيلةِ المصَنِّعةِ لتتحطَّم، آخرَ المطاف، على صخرة عدم الجدوَى، ولتنحاز إلى رُكن متواضِعٍ في طابور الدُّوَل المتسوِّلةِ قرضاً ومساعدةً وخِبرة في عالمِ التَّحَوُّل من اشتراكية الفخامة السماوية إلى رأسماليةٍ على وجه التراب، تسأل كما يسأل الكوبيون: ماذا يمكن أن أبيع؟

كانوا يقيمونها بورجوازيةَ دَولةٍ كما فعل بنبلا وبومدين في الجزائر، بورجوازية فاسدة مفسدة مزّقت أوصال الشعب وبذّرت أموالَه الهائلة في مؤسسات جنونية فاشلة.

كانوا يفعلون مِثل ذلك، نوعا من ذلك، بروح معادية للإسلام، أو بـ«إسلام حقيقي» اشتراكي يصحح انحراف إسلام المخزن، لأنهم

خَبَروا إسلام الاستبداد، وطردوا مخزنا ظالما فاسدا مفسدا باسم الإسلام. وكانت طريقُنا إلى الحرب الأهلية تكونُ أفظع من طريق إخواننا الممزّقين في الجزائر، المتناحرين في الجزائر.

أستغفر الله من «لو» فإنَّ لَوْ تسْتبق القَدَرَ، فتفتح عمل الشيطان. وأسأل الله لشعب الجزائر المسلم مخرجا من غثائيةٍ مُمَزِّقةٍ طاحنة ليلتئِم شملُهم وشملُنا على الوحدة الجامعة، وليس إلا الكلمةَ السواء، وليسَ إلا الإسلامَ.

طاشت كِفَّةٌ، ورجَحَتْ كِفّةٌ

نيَّة الوطنيينَ في منطلَقهم كانت نُصرَة الإسلام.

أخبرني وجهٌ من الوجوه البارزة في مراحل التأسيس رحمه الله أن الوطنيين كانوا لا يقبلون في صفوفهم أحدا إلا بعد استيثاقهم من أنه يصَلِّي، وأخذِهم العَهْدَ عليه والقسمَ على المصحفِ الشريف أن يبقى مخلصا لله وللوطن.

عامل الزمن والظروف وطبيعة الخصم العدوِّ، وخاصةً عامِلُ سطحيةِ الفهمِ للمزالق التاريخية ولأصول الدين، أقحمت في الـمُعادلَة عُنْصرا دَخيلا في أصول الدين. إذا أقسَمتُ أن أخلِص لله وللوطن فقد جعلت مع الله شريكا.

إفراد الله عز وجل بالعبودية، والإخلاصُ له ولرسوله ولشريعته، يتضمن فيما يتضمّن الدفاع عن حوزة الوطن. وهذا اقتضاء شرعي ليس له من العائدات الوخيمة ما لإقحام الوطن في العقيدة.

ثغرةٌ لم تظهر فداحتها إلا بعد الاستقلال عندما انتهى الصراع بين المقاومين والقصر إلى سَطوِ القصر على العقيدة الوطنية المدخولة،

فأصبح شعار الدولة شعارا ثالوثيا شِركيا محضا، بنية سياسية تسطو على تاريخ للوطنيين المقاومين مجيد.

أصبح شعارُ الدولة: «الله، الوطن، الملك»! شعارٌ شكْلِيٌّ لفظي، والواقع أن المتألِّهَ واحد. لم يتعجب أحدٌ، ولم يثُر أحَدٌ، ولم يمُت أحد حسرة على الإسلام يومَ قال الشاعر في حضرة الملك:

وإذا نطقت فقولك القرآن!

ألف الناس أن يضحوا بالغالي والنفيس من أجل الوطن، فما راعهم أن يضاف إلى الوطن معبودٌ جديد.

وهو الاستكبار، أينما راقبتَ وجدت الفرعونية تصطاد الشعاراتِ المموِّهةَ لتقول بلسان الحال ما قال فرعون بلسان المقال يوم أعلن لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[1] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[2].

واستقل وطن، وتقلد وطنيون مناصِب في الدولة، واستغنى وطنيون، وتموّلَ وطنيون من حلال أو حرام. ومن يسأل عن حلال، ويتورّع في لقمة حلال وقد اندرست معالم الحلال والحرام.

أصبح بعض وطنيي أمس ممن كانتْ لهم أصول ثراءٍ نجوما في سماء الاقتصاد الوطني. وكدس بعض الوطنيين ممن لم تكن لهم أصول ثراء مكاسب ومعايب.

واحتدم النزاع بين المخزن والوطنيين على كل المستويات، خصوصاً لاستقطاب الأدمغة الـمُكونة ذات الكفاءات اللازمة لتسيير دواليب الدولة. كان المرجِّحُ الـمُمِيلُ هو إغراءَ صاحب الدولة الناس بالمنْصب والمال والامتيازات.

(1) سورة النازعات، الآية: 24.

(2) سورة القصص، الآية: 38.

طاشت كِفَّةُ الوطنيين على الصعيد السياسي، لكنها لم تطشْ على الصعيد الاقتصادي المالي. وتوحدت بورجوازيةٌ مخزنيةٌ وطنيةٌ طائشةٌ أو مُستمالةٌ فأصبحت جسما واحدا -يكاد- بالمصاهرة، ونمَط العيش.

وافتقر وطنيون مقاومون -كانوا- فنشأت طبقية شنيعة مفرقة هي من أعتى عوامِل التشتيت الغثائي.

قانونُ «من أين لك هذا» كان شعارا عقيما ولا يزال. والاشتراكية رأينا ما فعلت في بلاد النّمِنْكلتورا، وفي الجزائر الجريحة، وحيثما أتاحت السلطة الاشتراكية فرصةً للتصرّفِ الثوريِّ في الأرواح والأموال.

من معاني «الكلمة السواء» العدل. فهل نظلُّ نقتفي آثار الإديولوجيات الثورية ولم يظهر فينا رجالٌ أسطورةٌ نزهاء كما يتخيل الثوريون الطبقةَ البرولتارية المنقِذةَ؟ أم نردد على مسامع الشعب المطالبةَ المعارِضةَ بقانون مُطهِّرٍ ما فتِئنا نردده منذ الاستقلال؟

أم نجتمع على «الكلمة السواء» وهي عدل؟

كتب الوطنيون والمقاومون صفحة رائعة في تاريخ البلد. وسجل المناضلون الثوريون صمودات وتضحيات لا يتجاهل قيمتها التاريخية إلا مكابر. لكننا نرى النتائج تأتي على عكس ما مات من أجله أبطال الاستقلال وشهداء المقاومة، وعلى عكس رغْبةِ أبطال النضال الثوري.

التفتتُ عملية مستمرة، والظلم الاجتماعي الطبقي عملية مستمرة. والأفراد المتميزون النزهاء من الرعيلِ الوطني ومن النضال الثوري هم أوّل من يرفع عقيرته استفظاعا لِما يشاهدونه من تَرَدٍّ اجتماعي، وتفتت غثائي.

قبل أن نُنِيطَ المسؤولية بالنظام الحاكم ينبغي أن نحدد مسؤوليات من اندمَجَ في المخزن، ومن اصطلى بنارِ المخزن المدفئة المنعشة

وكان قبْلُ مقْرورا، ومن احترق بلَهب المخزن في سراديب المخزن وتزمامارات المخزن.

حيثياتٌ مشدِّدةٌ تسوّدُ وجه المخزن، ذلك أن الحاكم من السلالة النبوية الشريفة، ولا يطعن مسلم في أنساب الناس كما يفعل الجاهلون والسفهاء.

لو لَعِبَ بالدين رجل من عامة الناس كما يلعبُ ملك المغرب لكان فعله مدعاة للاشمئزاز والاهتزار، ولكان حقا على الأحرار أن يعملوا على طرده.

أمّا أن يلعبَ بالدين مُنتَم للسلالة الشريفة فالحيثيات مشدّدة، وقَمِنٌ بالمسلمين أن يقطعوا دابِرَ ظُلم يتقنع بأقنعة إمارة المؤمنين.

أقسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيدٍ رضي الله عنه لما جاء يتشفع لامرأة سَرَقت. قال صلى الله عليه وسلم: «**لو فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها**». وفي رواية: «**وَايْمُ الله! لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقَت لقطع محمد يدها**».

احتمالات «لو» في حق الـمُطهَّرَةِ رضي الله عنها أوْرَدَها الرسول المعلِّم لترسيخ درس. وما في أعمال صاحبنا وأقواله من احتمال. لو تستَّر لكان واجبُ ستْر المسلم تُرْساً شرعيا. لكنه ما ترك مظهرا من مظاهر استفزاز الإسلام والمسلمين إلاَّ تبرج به. ناهيكَ أنّ يتمثل أحبارُ اليهود بكتبهم المقدسة لديهم يخطبون في تمجيد الملك، ويستفتحون للملك، ويشيدون ويباركون.

«بركة» اليهود.

كان المسلمون يتبركون بآل البيت ويأتون بالأسلاف المطهَّرين في ركب الحجيج إلى نخل تافلالت، وها هو سليل المطهرين يتبرك بأحبار اليهود. عَلَناً واستفزازا، أو غباءً سياسيا، أو احتقارا لمشاعر المسلمين.

أترك لك تحليل الأسباب الاقتصادية التي تجعل حاكما مسلما يتزلّف إلى الصهيونية العالميَّةِ المرضيِّ عنها أمريكيا وأوربّياً.

وأتحسر مع المسلمين للمذلة، وللاستهتار بالدين. بعد التألُّه في الشعار الوطني الثالوثي، دوسُ مقدساتِ الأمة تحت أقدام اليهود.

من حيثما أقبلَ الوطنيون وأقبلنا، ومن حيثما نطق الثوريون ونطقنا، فلِقاؤنا على كُرهِ نظام متعفن، وعلى ضرورة قطع دابِر نظام متعفن.

ثم ماذا بعدُ؟

لا عُمْقَ لكم في التاريخ!

ماذا بعدُ إن كانت «الكلمة السواء» مرفوضةً عند هؤلاء وأولئك؟

اعتدّ الملك بنسبه الشريف و«عمقه التاريخي» العريق في الملك المخزني، واستكبر، وتأله، واستفز، ولعب بالدين.

وللوطنيين والمناضلين ما به يعتدون. إن لَمْ تسوِّ ما بيننا الكلمة السواء، وتجمعنا الكلمة السواء، فماذا بعد الطوفان؟

الكلمة السواء أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فإن تمسك الوطني بأمجاده وخدماته، وعيّـرَنا، نحن المساكينَ الطارئين في الدنيا، المتطفلين فيها، ذلك المناضلُ الذي تعذب لَه رفاقُه في السراديب وخُلدوا في السجون بأننا لاَ عُمْقَ لنا في التاريخ، وبأن سيادته يخشى إن جلَس إلينا رهطه وحاورونا أن نتسلق على أكتاف نضالهم الخالد، فما العمل؟

للوطنيين الذين حاربوا الاستعمار، وللمناضلين الذين حاربوا أذنابَ الاستعمار، ما به يعتدون.

كتَبوا بدمائهم وحياتهم وتضحياتهم صكُوكاً على أجيال هذا الشعب، يتقاضونَ من رَيْعها أرباحا مؤبّدَة كما يتقاضى الـمُرابي على دينه أرباحا مضاعفة.

حيثياتٌ مشَدِّدة تُغلظُ مسؤوليةَ الحاكم. ونخشى أن يَتحول الرصيد الوطني والنضالي مِنصة لاستكبارٍ جديدٍ يخلُفُ الاستكبار التقليدي بعد الطوفان، ويزجّ بالشعب في ظلماتٍ مستأنفةٍ.

الاعتداد بماضي خدمة وجهاد مُبطلٌ لماضي الخدمة والجهاد. هو مَنٌّ واستكبار، والله تعالى يكرهُ لعباده أن يمُنّوا عليه وعلى عباده بنصيبٍ من هداية كانت منه. قال تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن المنافقين: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

هل بدأ التاريخ من مظاهرة المناضل الثوري، فنكونُ نحنُ المساكينَ لقطاء في التاريخ؟

طاعة الله تُجَدِّع أنف الاستكبار

هل الإسلام دين استكانة للظالمين، حتى علّمَنا النخوةَ والشهامةَ وقتالَ الظالمين معلمون أسسوا التاريخ وكان قبل ذلك العدمُ؟

إن الله تعالى رسم للدولة الإسلامية هدفها وواجبها، وحرم على المسلمين الحاكمين أن يحكموا بغير ما أنزل الله وإلا كانوا كافرين ظالمين فاسقين.

(1) سورة الحجرات، الآية: 17.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾.[2]

نظام الحكم الإسلامي واجبه الأول إقامة الصلاة. الحاكم والمحكومون يركعون لله ويسجدون، سَواسيَة في ذلك، لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله. واجبه الثاني الزكاة لتسوية المسلمين في المعايش قدر المستطاع. واجبها الثالث توزيع المسؤوليات على كل مسلم ومسلمة، فكل مسلم ومسلمة راع مسؤول عن رعيته، واجب كل مسلم ومسلمة أن يشارك بيقظة وعزْم وقوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

صلاة لله تُجَدِّع أنف الاستكبار، زكاة هي الركن الركين للعدل الاجتماعي، مسؤولة عامة وخاصة، ومشاركة، وتطويق لعوامل الفساد.

هذا بلغة العصر إدماج نفسي فكري، إدماج اقتصادي اجتماعي، إدماج سياسي جهادي.

إدماج له روح، له غاية سامية، له وازع أخلاقي مصيري. وذلك ما تخْتِم به الآية الكريمة: ﴿**وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[3].

نظام الحكم الإسلامي لا ينفصل مبدأً وعملاً عن باقي فروض الدين. الحكم الإسلامي عُرْوة الدين ومستمسكه وجامعه.

نظام الحكم الإسلامي القرآني النبويّ هو نظام الشورى، مؤسَّسَتُهُ في القمة الخِلافة. وللخليفة حقوق وواجبات. حقهُ أنْ يطاع فتجتمع

---

(2) سورة الحج، الآية: 41.

(3) سورة الحج، الآية: 41.

كلمة الأمة، وتلتَفّ جهود الأمة. واجبه أن يخضع للشورى، وواجب المسلمين أن لا يُوَلُّوا أحدا أمرهم إلا عن شورى.

الطاعة للخليفة الشرعي، أي المختار عن شورى، مشروطة، ليست عمياء. روى الشيخان وأصحاب السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية. فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**».

من يأمر بمعصية من الحكام فاسق خلَعتْهُ المرتبة وطردَتْهُ ووجب عصيانه ومقاتلته كما يُقاتل كلّ منكر. لكن ما الحيلة إذا كان الحاكمُ شرسا قويّاً؟

نقرأ في تاريخنا، إذْ لنا عمقٌ تاريخي، لنتابع تدهور نظام الحكم حتى وصلنا إلى عصر النضال اللاييكي.

اختار المسلمون بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه. فقال في أول خطبة له: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

برنامَجٌ مطابق لأمر الله ورسوله. وسار أول الخلفاء الراشدين رضي الله عنه على منهاج القرآن، وأعلن قائلا: «من وَلِي من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً فلم يقم فيهم بكتاب الله فعليه بَهْلَةُ الله» (أي لعنته).

مات رضي الله عنه مرضيّاً ونصح قبل وفاته المسلمين بعُمر، واستخلفه عليهم حتى ينظروا في أمرهم. ويكرر عُمر الإعلان الصّدِّيقي بعبارة واضحة فيقول: «لا خلافة إلا عن مَشْوَرَة». ويقول: «من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحلّ لكم أن لا تقتلوهُ».

وضوح وصرامة. ويبدأ عهد الاضطرابات باغتيال عمر. رضي الله عن عمر.

ثم يدخل المجتمع المسلم في دوّامة من الفتن بعد صَدْرٍ من خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه. وتستفحل الفتنة بحصاره رضي الله عنه واستشهاده.

وبذهاب سيدنا عثمان رضي الله عنه في الصالحين، تستيقظ العصبية القبَلية، ويفتَتِن الصحابةُ في أمرهم لما يرَوْن مِن تغير الأحوال. فينازع الزبيرُ وطلحةُ وعائشةُ رضي الله عنهم الخليفةَ الراشدَ الرابعَ مولانا عليا ابن أبي طالب، فيتقاتل المسلمون وينهض معاوية ومعه عُصْبة بني أمية، ومعه صنائعه في الشام -وكان واليا عليها مدة عشرين سنة تمكن فيها بدهائه- فيطالب عليا بدم عثمان. ويتصادم جيشا عليٍّ الخليفة ومعاويةَ طالِبِ الـمُلْك في صِفِّينَ، فينفصم بين المسلمين ما كان يجمعهم، ويبدأ الانحلال في وشائِج جماعة المسلمين انحداراً، قرناً بعد قرن، إلى ما نشاهده من غثائية وتمزق.

أمر مرّاً سريعا مُقْتضَباً على مسيرة مُؤلمة، فما قصدي بسط الوقائع، وإنما قصدي أن أضع أصبُع الفاضل الذي يجهل تاريخ المسلمين، والمناضل الذي يقرأ تاريخ المسلمين في كتب التحليل المادي للتاريخ، على مواطِنِ العِبْرةِ حين قتلت العصبيةُ القبليةُ الجامعةَ الإيمانية، وحين وُلِد الاستكبارُ الـمُلوكيّ، وحين ماتت الشورى وقُبرتْ، وحين أصبحت الطاعة للسيف لا لله ورسوله.

الملابسات الاقتصادية الاجتماعية عواملُ ظاهرة، ومؤثراتٌ لها وزنها الثقيلُ وضغطها الغليظ على المجتمعات البشرية. ما كانت الملابسات الاقتصادية والسياسية الاجتماعية أشدَّ وَقعا، وأحْرى أن تثبط العزائم، وتقطعَ الأواصر، من حالتها عند ميلاد الدعوة

المحمدية. على نبيّنا أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ومع ذلك ففِعل الله عز وجل بالنفوس، وتغييره للنفوس بالهداية الإسلامية، خرقَ كل الملابسات الظاهرة، والمؤثرات الوازنة الثقيلة، وانطلقت القوة الإسلامية في مسارها التاريخي بقوة الرابطة الإيمانية في عهد النبوة والخلافة الراشدة حتى قام معاوية بالسيف، فارتبط المسلمون منذُئذٍ بطاعة الغالب حامل السيف. ولا يزال المسلمون تحت طائلة القوة الحاكمة المستبدة، لا يجمعهم تحتها رابطٌ من دين، بل يبحث أبناء المسلمين وبنات المسلمين عن رابط جامع اسمُهُ «المجتمع المدني» وعن ميثاق يسمى «الدستور» لا يخضع لقرآن ولا لسنة، وعن نظام حكم هو الديمقراطية لا غير، هو الديمقراطية الوجه المشرق للشورى.

اغترب أبناء المسلمين وبنات المسلمين عن دينهم وعن تاريخهم. ولعل نظرتنا للتاريخ، ووقوفَنا عند التحولات النفسية الفكرية دون ربطها بالتفصيل والأرقام بما يجري على الصعيد الاقتصادي الاجتماعي، مما يزهِّدُ بعضَهم في متابعة التحليل «المثالي» الذي أكل الدهر عليه وشرب، في زعمهم، منذ تطورت مناهج البحثِ السوسيولوجية السابحة -كانت ولا تزال- في فلَك الإديولوجية المادية، في مَرَقَة الإديولوجية المادية.

برزت قوةُ المسلمين، وظهرت وانتصرت بفعل الله القوي العزيز الهادي، المتمثّلِ في رابطةٍ إيمانية، وطاعةٍ واجبَةٍ لوَليٍّ أمر مختارٍ عن شورى. وبدأ انتِثارُ شمل المسلمين بخذلانٍ من الله تعالى -لما توَلّى الناس وعصَوْا واستكبروا- متمثِّلٍ في ملكيّة عاضّة، فحكمٍ جبْريٍّ، فديمقراطية منشودةٍ معشوقة ممتنعةٍ تنقذنا من تاريخنا، وتربطنا بقاطرة جديدة، وتُلحِقنا بالركب الحضاري.

مطلبنا، نحن المساكينَ الغرباءَ، أن يُلحقنا ربّنا بالصالحين في جنات النعيم. وأن يفتح عيون عقولنا وقلوبنا لنعتبر بتاريخ تفكك، وأسبابِ تفكك. ثم لنبصر طريقنا إلى اقتحامٍ للعقبة بزاد من معرفة ما صنع الله ويصنع في كونه لنعمل صالحا، وزادٍ من التقوى ليكون لعملنا قَبول عند المولى.

خرج معاوية بن أبي سفيان بالسيف والبطش والقوة. فغير مَجْرى تاريخ المسلمين. ونقض أعلى عُرَا الإسلام.

أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ينتظر المسلمين من نقض العُرا ومن الفتن السابقة واللاحقة لنقض العُرَا. فهو صلى الله عليه وسلم رسول الله علمه الله من غيبه ما شاء. فإخباره بما يجري بعده معجزة من معجزاته الكثيرة الغزيرة المباركة.

روى الإمام أحمد والطبراني من حديث أبي أمامةَ الباهليِّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لتُنْقضَنّ عُرا الإسلام عُرْوَةً عُرْوةً، فكلما انتُقِضَتْ عُروةٌ تشبث الناس بالتي تليها. وأولهن نقضاً الحُكم، وآخرهن الصلاة**».

نستبصِر في معاني الحديث الشريف المخبر عن المستقبل يومَ إخبار الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، ثم نستعرض العملية النّقضية بسيف معاوية ومن تبع سنته السيئة، لتنجلي أمام أعيننا المحجة التي زاغ عنها الزائغون، ولنهتدي بالحديث الشريف في عملية البناء. ما القصد من إخباره صلى الله عليه وسلم بحوادِثَ تطرأ على الأمة أن يطلِع الناس على ما يدفعهم الفضولُ البشريُّ للتطلّع إليه، لكنّ القصد أن يتدبّرَ متدبِّرٌ ليعلَمَ مَواطِن الانكسارِ الذي حدث في تاريخ المسلمين، وأسبابه، وفاعليه، وما اقترفوه، وما أورثوه من سنةٍ سوداءَ،

وما يَصْلُح به الإسلام، وهو إعادةُ الكيَان السياسي ونظام الحكم إلى نصابه الشرعي.

النقضُ الهدم. والعُرْوةُ ما يتعلق به الناس ويستمسكون به، وما يُمْسِك الأشياء ويُمَكِّن من التحكُّم فيها مثلَ عُرْوَةِ الإبريق، أي مِقبضه، وما يربِط المتفرِّقَ مِثلَ عُرَا أزرار الثوب، وهي الفتحاتُ الممسكة للأزرار.

مثّل الرسول صلى الله عليه وسلم شَمْلَ المسلمين، وجماعة المسلمين، ووحدة المسلمين، ونظام حكم المسلمين، بجسم ملتَئِم متماسك. ومثّل انفصام وحدتهم، وتشتت رأيهم، وانتِقاص دينهم، وانحرافهم عن المنهاج القويم الشرعي في الحكم بعُراً تُنْقَضُ.

أوّلُ ما ينْقَضُ الحكم ونظامهُ. أيّ هَدْم أبعدُ أثراً وأعمقُ دلالةً من تحطيم البنيان الجماعي الذي كان قائما على ائتلاف بين إرادات حُرّةٍ أعطتْ ولاءَها لله، يأتي الاستكبارُ القبليّ وفي يده السيف ليُعيدَ المؤتلفين الأحرار من عبادة الله إلى عبادة جبابرةٍ يرثون الحكم كما يورثُ المتاع؟

كان مع سيف مُعاويَةَ لَهَجٌ بالشريعة وسيادتها. وكان أمام معاويَة مؤمنون أقوياء، إن سكتوا عن النقضِ مِن أعلى البناء لهوْلِ الخطَر فما كانوا ليسكتوا عن نقض سائر العُرا.

وينحدرُ إلينا على مَدَى قرونٍ التقليدُ الملوكي وفي حِجرهِ إسلام مستسلِمٌ، ومسلمون ضعفاء، فلا يصل إلينا من آثار النقض التاريخي المتلاحق إلا صلاةٌ يصليها الملوك الوارثون العشائريون أو العشائريون المؤسسون مثل صدام العراق على شاشة التلفزيون ليطَمْئنوا الناس أن إمامهم مسْلم.

كانت خلافة عُمدَتُها الشورى، ومؤسِّسها الشورى، فأسسَ الـمُلْكَ السيْفُ والقهرُ. وذلك ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم قال: «**الخلافة ثلاثون سنة، ثم تكونُ ملكا**».

بعد ثلاثين سنة من موته صلى الله عليه وسلم قال معاوية: أنا أول ملك!

تُحسب لَه صراحتُه هذه. وما كان لَه أن يقولَ غيرَ ما قال.

قُتِل الإمام علي كرّم الله وجهَه، فاجتمع الناس على ابنه سِبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسَنِ، فزحف إليه معاوية في جَيشٍ كثيف. وكان مع الحسَن جيش مثلُهُ. فرأى الإمام الحسنُ أن يَحقِن دماءَ المسلمين، وقد رأى من تصميم أصحابه وأصحاب معاوية ما يُؤذنُ بقتالٍ يُفني قوة المسلمين. فتنازل عن حقه، بَلْ عن التكليف الخطير الذي كلفه به المسلمون حين بايعوهُ بعد قتل أبيه رضِي الله عنهما.

ولم يَلْبَثْ أن سَمُّوه فمات رحمه الله.

الخطبة السيفية

ما صَفَت الساحة لمعاوية بن أبي سفيان حين أراد إرغام المسلمين على بيعة ابنه يزيد. فقد بايعه على ولاية يزيدَ أهل الشام وأهل العراق والوِلايات الأخرى، وأبى أن يبايعه أربعة نفَرٍ كانوا هُمْ خيارَ المؤمنين يومئذ: الحسين ابن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عُمر، وعبد الرحمن بنُ أبي بكر.

جاءهم معاوية إلى المدينة يطلب إليهم مبايعته، فأغلظ لهم القول وهددهم، فخرجوا إلى مكة، فلحقهم وراوَدهُم على البيعة مُتلطّفا متحبّباً. وعيد لم ينفع، ووعود لا تَشتري ضمائر المؤمنين.

شرطوا عليه أن يجعل الأمر شورى بين المسلمين وكانوا في جمع حاشد. فخطب معاوية الناس، بعد أن أمر رئيس حرسه قائلا: «أَقِم على رأس كل رجل من هؤلاء [الأربعة المعارضين] رجلين، ومع كل واحد منهما سيف. فإن ذهب رجل منهم يرُدّ علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بالسيف».

السيوف مُنْتَضَاةٌ على الأربعة الرؤوسِ، ومعاوية يَخطبُ الناس ويقول مُهَدداً مُرْعِداً: «إنه من أعْذر فقد أَنْذَر! كنتُ أخطبُ فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن رَدّ عليّ أحدُكم كلمةً في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيفُ إلى رأسه. فلا يُبْقِيَنّ رجلٌ إلا على نفسه!».

هكذا روى المشهدَ ابن الأثير رحمه الله.

كانوا أحرارا يقوم أحدُهم فيرد على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. واتّبَع الناس سنّةَ ممارستِهم لحق المعارضة في عهد معاوية ظنا أنَّ ما كان حِلْماً وسياسةً ومرونةً امتاز بها معاويةُ هي مظاهرُ انقيادِ الحاكم وسكونِه إلى شرع الله الذي لا يعطي الحاكمَ حقّ استعباد الناس، وإسكاتِ الناس.

فقطعت الخطبة السيفيّة ما بين عهدين، واستوَتْ الملَكية الوراثية على عرشها، وبايع الناس معاويةَ والسيف يتكلم، والأربعة الأحرار على رأس كلِّ واحدٍ منهم سيفان وأمرٌ بالقتل ناجزٌ.

ختم معاوية خطبته مشيراً إلى الأربعة، وقال: «إن هؤلاءِ الرّهْطَ سادةُ المسلمين وخيارُهم، لا يُبْتَرُ أمر دونهم، ولا يُقضَى إلا عن مَشورتهم. وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيدَ. فبايِعوا على اسم الله».

هل ينفصل الإكراه والعنف عن الكذب والتلفيق؟

هل القِرانُ المكيفيليّ إلا غريزةٌ من غرائز الاستبداد؟

كان حليف القرينين التملقُ. حيثما ترْتكز السلطةُ يلازمها الكذب، ويزدحم على بابها المنافقون والعيّارون.

خطب مروان بن الحكم، وكان واليَ معاوية على المدينة، في المسجد النبوي قبل بيعة يزيد، ممهدا لها، باثا الدعايةَ لها كما نعبر في زماننا. قال: «إنّ الله أرَى أمير المؤمنين في يزيد رأيا حسنا. وإن يستخلفه فقد استخْلف أبو بكر وعمر».

كان السيف لمّا يخطبْ قولا وفعلا في الجمع الحاشد. فقام أحد الأربعة عبدُ الرحمن بن أبي بكر وقال: «يا مروان. كذبتَ وكذَب معاوية. ما الخِيارَ أرَدتما لأمة محمد. ولكنكم تريدون أن تجعلوها هِرقليّةً. كلما مات هرقلٌ قام هرقلٌ. إن أبا بكر، والله، ما جعلها في أحد من وَلَده ولا من أهل بيته».

كان المغيرة بن شعبة قد اقترح على معاوية توريثَ الملك ابنه يزيد. وتكفّل لَه أن يكفيه أهل الكوفة –وكان واليَه عليها– وكفاه زيادٌ بن سمَيّةَ أهل البصرة. وتكفّل هو بأهل الحجاز كما رأينا.

السيف وشراء الضمائر

كان الإكراه والكذب والنفاق مُناخا اجتمعت فيه شرائط الفساد والإفساد. وما يُنتظَر غير الفساد والإفساد إن كُمَّت الأفواه الحرة الصادقة، وخطب السيف.

كان في الكوفة عشرة رجال هم شيوخ العشائر وقادة الرأي العام كما نعبر في زماننا. اشترى ضمائرهم المغيرة بثلاثين ألف درهم

وبعثهم مع ابنه موسى إلى معاوية ليقترحوا عليه توليةَ يزيد ابنه العهد من بعده. حاشية تتزلفُ والمتزَلِّفُ إليه ماهر في معرفة اللعبة. فسأل معاويةُ موسى: «بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينَهم؟» قال موسى: «بثلاثين ألف درهم». قال معاوية: «لقد هان عليهم دينهم».[1]

أرسل معاوية إلى عبد الله بن عمر مائةَ ألف درهم ليبايع يزيدا. قال عبد الله: «إن ديني عندي إذاً لرخيصٌ!».

كان الأتقياء شحيحين بدينهم، وكان المنافقون يُتاجرون في الدين، وكان الملك بين ذلك على بينة من المعاملة الـمُريبة. لكنها العصبية الأمويّة تقوَّتْ بوسائلَ ظالِمَةٍ. العنف وسفك الدماء والكذب والنفاق وشراءُ الدين. ولا تزال هذه الرذَالة حليفة للملك الوِراثي حيثما كان وأيَّانَ كان.

يتورّع بعض علماء المسلمين عن التعرض لما فعله معاوية وحاشيته مخافة الوقوع في أعراض الصحابة. ويكتب القاضي أبو بكر بن العربي كتاب «العواصم من القواصم» لتبرئة معاويةَ وتنزيهِ يزيد.

بل يذهَبُ ابن تيمية إلى أبعد من ذلك أثناء خصامه وحجاجِه للشيعة الروافض. كره بعض الشيعة الفَعْلة الأمويَّة فاستمعوا إلى روايات بالغَثْ في تمجيد «الإسلام الحقيقي» إسلام الدولة الأمويّةِ، فبالغوا من الجانب الآخرِ، وشتموا الخلفاء الراشدين – على من يشْتِم الخلفاء الراشدين وأصحاب خاتم النبيئين بَهْلَة الله.

خاصم ابن تيمية الروافض المتغالين في حب الإمام عليٍّ كرم الله وجهه وفي الكمَد الحزين على مقتل حسين، فغالى ابن تيمية وحطّ من الإمام علي، فزعم أنه كان يقاتل على الرئاسة، وأن رايته كانت مخذولةً

(1) ابن الأثير وغيره.

مهزومة، وأن قتاله معاوية لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا مفيدا. «اجتهادات» مسائل ابن تيمية، عفا الله عنا وعنه، الشاذة. طعنُه في جهاد الإمام أفظعها.

لا بد للمسلمين من الوقوف عندَ هذه المحطة التاريخية التي انكسرت فيها وحدة المسلمين، بل كُسِرتْ وانتُهِكَت ومُزقت. ذلك أدْنَى أن يعتبروا بتاريخهم. ذلك أدنى أن يعلَم المناضلون التقدميون اللاييكيون ما هي أصولنا التي نعتمد، وما هي نكباتُنا التاريخية التي تُكرِّهُ إلينا الاستبداد. نكباتٌ توالدتْ بِدْعةً عن بدعةٍ، وتوارث مُسَعِّرو فتنها وسائلَ إخمادِ حرية الأمة من كذب وعنف ونفاق وتملّقٍ وتزييف. توارثُوها استكباريةً قاتلةً ماكرةً.

كان الإمام الحسن البصريُّ، وهو من كبار التابعين عاصَر الوثبة الأموية وما جناه على الإسلام بنو أمية، بصيراً بها حدث حكيما صريحا.

روى ابن الأثير مقالة الإمام، قال: «أربع خصال كنّ في معاويَة لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقَةً: انتِزاؤه (أي وثوبه) على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذَوُو الفضيلة. واستخلافه بعدَه ابنه سِكِّيرا خِمِّيرا يلبس الحرير ويضرب الطنابير. وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الوَلَد للفراش وللعاهر الحجَرُ**». وقتْله حُجراً وأصحابَ حُجْرٍ. ويا ويلاً له من حجْرٍ وأصحاب حُجر!».

حُجْر بن عُدَي كان صحابيا وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاهد مع الخلفاء الراشدين. وكان عبدا صالحا عابدا رضي الله عنه. لم يخضع لمعاوية فأمر بقتله وقتل أصحابه لمّا امتنعوا عن لعن الإمام علي كرم الله وجهه. أحدهم -عبد الرحمن بن حسان- دفنه زيادٌ حيّاً. واسم حُجْر رضي الله عنه راية رمزية في المذكرة التاريخية

لإخواننا الشيعة، يذكر مع الإمام الحسين رضي الله عنه ومع الشهداء من آل البيت في كَرْبَلاَءَ، وبعد كَرْبَلاَءَ.

أما زيادٌ فقد كان من قواد جيش الإمام علي كرم الله وجهه. استدرجه معاوية بعد مقتل الإمام واصطنعه واشتراه.

كان زياد داهية من دهاة العرب شجاعة وفصاحة وسدَادَ رَأيٍ. ولم يكن ليبيع دينَه وكَفاءته بدراهم ودنانير. فأتاه الأدْهى منه من جانب ضَعفه، وهو أنه ابن أمَةٍ لا أبا له. شهِدَ شهداءُ، من نوع من يشهد للغالب الراشي، أن أبَا سفيانَ، أبُ معاويةَ، كان وَقع زمَن الجاهلية على سميَّة وزنَى بها. وأن زياداً ابنه من الزنى.

فاستلحقه معاوية بنسبه، وأمّرهُ على البصرةِ ثمّ الكوفة. وكان من دعائم الدولة الأموية هو وابنُه عبيدُ الله من بعده.

خزيُ الزنَى، وخِزيُ أبناء الزنى، وخزي اصطناع أبناء الزنَى لدَعم عرش مَلَكيّ.

لم يذكر الإمام حسن البصري مخزاةً أخْرى تُسوِّد وجه بني أميةَ أبَدَ الدهر: ألا وهي أمرُ معاويةَ خطباءَه أن يَسُبّوا عليا كرم الله وجهه على المنابر. فَسُبّ الإمام في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي مكة، وسائر مساجد المسلمين على مَدَى ستين سنةً، حتى أبطل هذه الأوامِرَ الخسيسةَ الرجل الصالحُ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أحد مفاخر المسلمين. وأمر ابن عبد العزيز أن يُتلَى على المنابر بدَلَ السب واللعن قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى**﴾[1].

ما نشاهده اليَوْمَ من حَميّةٍ وغضبيّةٍ عند إخواننا الشيعة، إن هو إلا انفجار لما بقي يغْلِي في صدور المسلمين من غيظ على ما فعله بنو أميةَ

(1) سورة النحل، الآية: 90.

بآل البيت. رفض الروافض شناعة وكفْر، أعنِي سبهم الخلفاءَ الثلاثة الأولينَ وتكفيرَهم. لكن الجهلَ بما ابْتُلِيَ به المسلمون، ثم تحريف المؤرخين، ثم الغليان الغضبي في الشعب المسلم على مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه، وسب الإمام المكرَّم علي ستين سنة ولعنه، كلها عوامِلُ إن لم تمنح الروافضَ عذراً فهي تفسِّر تاريخنا، وتدلّنا على مفاتيح تاريخنا.

رؤوس الشهداء عند أقدام الملوك

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الصحابي عمّار بنْ ياسِرٍ رضي الله عنه أنه تقتُله الفئة الباغيَة. وبالفعل قُتِل وهو يقاتل مع الإمام علي في معركةِ صِفِّينَ. فكانت رأسُه أوّل رأسٍ قُطعتْ في الإسلام، والإسلام تنهَى شريعتُه عن الـمُثْلة بِجُثَت القتلى. ثم قطع بنو أميّة رأس محمد بن أبي بكر، وكان واليا للإمام علي رضي الله عنه على مصر.

في عهد مرْوان بن الحكم قُتِل الصحابي الجليل النعمانُ بنُ بشير وألقِيتْ رأسُه في حجر زوجته. وقطعت رأسُ مُصْعبٍ بن الزبير. وقطعت قبل ذلك رأسُ أخيه عبد الله الأسَد الثائر علىً حُكم بني أمية، ورأسُ عبد الله بن صَفوان وعُمارةَ بنِ حِزام.

وصار قطع الرؤوس، والطواف بها في المدن، وصَلْب الجثث بدعةً أمويّة ما زال الملوك يقلدونهم فيها.

يشتغل السيْفُ شغْلَهُ، وتشتغل الرشوة، وتشتغل الدعاية الـمُرْهبة، ويشتغل التخويف بأشلاء القتلى.

صار قطعُ الرؤوسِ وعرضُها على الناس وتخزينها في الخزائن دورة مألوفة في عهد بني أَمية. روَى عبد الملك بن عمير قال: «دخلت قصر الإمارة بالكوفةِ على ابن زِياد، والناس عنده سماطان (أي

صفان) ورأسُ الحسين على تُرس عن يمينه. ثم دخلت على المختار فيه، فوجدت رأس ابنِ زيادٍ وعنده الناس كذلك، ثم دخلت على مُصْعب بن الزبير فوجدت رأس المختار عنده كذلك، ثم دخلت على عبد الملك بن مروان فيه فوجدت عنده رأس مُصْعب كذلك فأخبرته بذلك فقال: لا أراك الله الخامس!».

هَلَكَة الأمة

كان قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما هلاكا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. كان هلاكاً من الهلاك، ما قطع الرؤوس، ودورة قطع الرؤوس، إلا وجها من وجوه الإهلاك. الهلاك الكلي تمثل في كسْر بناء الإسلام، في نقض عُرْوته، في جعل نظام الحكم هرقلية وراثية بعد أن كانت شورى.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن صِبياناً من قريش سفهاءَ سيكونون سبب هلاك الأمة. روى ذلك البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت الصادق المصدوق يقول: «**هَلكَة أمتي على يديْ غِلْمَةٍ من قريش**». وكان أبو هريرة رضي الله عنه يمشي في الأسواق ويقول. اللهم لا تدْركني سنةُ ستّينَ ولا إمارة الصبيان!

كانت سنةُ ستين للهجرة هي السنةَ التي مات فيها معاوية شيخُ العصبية القبلية الأمويّة القُرشية، وقعد فيها على عرش الهرقلية الأموية مُقَدَّم صبيان قريش الذين دشنوا هلَكة الأمة.

دشّنوا الهلَكة غلمة قُرَيش، فكانوا الإسوة الخبيثة لكل من أقلّهُ على رِقاب المسلمين عرشٌ أو عُريش.

قطعَ جيشُ يزيدَ الرأس الكريمة رأس الحسين رضي الله عنه. خرج الحسين إلى العراق رافِضاً وِلاية الصبيان السفهاء. كان وَاليا على

العراق لصيق في قُريش بن لقيط من لُقطاء قريش: مات زِياد داهيةُ قريش فوَلَّى بنو أمية ابنه عبيدَ الله سفاكَ كَرْبلاء.

في كَرْبلاء حبس جيش ابن زياد مولانا الحسين ابن مولانا علي رضي الله عنهما. كان قوامُ الجيش تسعة عشر ألفا، أحاطوا بالحسين وآل الحسين وعشيرة الحسين من العِترة الطاهرة، وهم كانوا واحدا وثمانين رجلا معهم الحُرَمُ من نساء وأطفال.

قاتل الإمام الحسين بشجاعة بعد أن قُتِلَ رجاله. فرموهُ بالسهام وأثخنوه بالجراح حتى سقط. فكان سقوطهُ رمزا لسقوط الشرف. تقدم شقِيٌّ اسمه شِمَّر فوَطِئ الجسد الشريف بحوافِر فرسه، ثم حَزَّ رأسه وذهب به إلى لصيق قريش ليأخذ الجائزة.

نكثَ الشقيُّ ابن زياد بقضيب في ثنايا الرأسِ الشريفة متعجبا من بياض الأسنان متشفيّاً. وفعل مثل ذلك يزيد بن معاوية.

وبقيت الرأس الكريمة في خزانة يزيدَ إلى عهد سليمانَ بن عبد الملك.

قتل الحسين رضي الله عنه والعبث برأسه بعد دَوْسِ جثته تحت سنابك الخيل كان رفْساً لرَمزِ الإسلام، واستهانةً بمقدساته. كانت أمَّ الهلَكات، إذ وطِئ الغلمان السفهاء تحت الأقدام حرمةَ النبوءة.

قبل كربلاءَ اشتغل يزيد بن معاوية شغلته الشنيعة الفظيعة في قطع أوصال الدين، وهتْك حُرَمه، ونقض عراه.

قامَ عليه علماء المدينة وأشرافها، فَبعث إليهم جيشاً لَجِباً. قتلوا سبعة آلافٍ من أشراف الناس، منهم ثلاثمائة صحابي، وقتلوا عشرة آلافٍ من عامة المسلمين.

وإمعاناً في الجُرْأة على الله أمر يزيد جيشه إذا دخلوا المدينة أن يستبيحوها ثلاثا. شريعة الله تقول: «**المسلم على المسلم حرامٌ. دمُه ومالُه وعِرْضه**». والفاسق العِربيد أمر أن تُستباح ثلاثة أيام أموال المسلمين ودماؤهم وأعراضهم. وهكذا حَبَلت ألْف امرأةٍ من اغتصاب الجيش الهمجيّ الفاتك.

وثالثةُ الموبِقاتِ التي رصّع بها يزيد عهده القصير في السلطة (فإنه هلَك بعد ثلاث سنوات)، القذِرِ في الجرائم، هي غزوُه الكعبَةَ المشرفة البَلدَ الحَرَام في شهر حرام. أمر قائد جيشه أن يرميها بحجارة المنجنيق، وكان عبد الله بن الزبير تحصن في المسجد الحرام.

وعالج صبيان بني أميّةَ ما بقي من حُرَم المسلمين بالمذهبية التي علَّمها شيخ بني أميّة معاوية: السيف.

قال معاوية في إحدى خطبه وقدْ أنِسَ من المسلمين كراهيّة وِلايته: «أما بعد، فإني والله ولِيتُ أمرَكم حينَ وليتُه وأنا أعلم أنكم لا تُسَرّونَ بوِلايتي ولا تحبونها. وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك. ولكني خالَسْتكم بسيفي هذا مخالسةً».[1]

الاختلاس سَرِقة، والمخالسة حيلة في السرقة. سُرِقَتْ أمةٌ لَمّا سُرِق نظام الحكم فيها.

وكان عبد الملك بن مروان في مثل صراحة معاوية يومَ خطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إني لن أداويَ أمراض هذه الأمة إلا بالسيف... والله لا يأمرني أحد بعد مَقامي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه!».[2]

(1) البداية والنهاية لابن كثير.
(2) ابن الأثير.

الجُرأة على الدين

كنا في صفحات مَضت نهوّنُ ما أصابه الاستعمار من خيرات بلادنا ويُصيب، مُقارنَة بما أصابَ من عقول أبنائنا وبناتنا، وما أورثتهم معاشرةُ فلسفته اللاييكية وثقافته الإباحية الدوابية من استخفاف بالدين وهتك حُرَم الدين.

كذلك ما أصاب بنو أميّة من دماءٍ سفكها يزيد والحجاج وسائر الغلمة السفهاء لا تُنْكي في الإسلام والمسلمين ما أَنْكَتْهُ الجُرأةُ على الدين والاستخفاف برموز الدين، واستباحة ما حَرّمه الدين.

من سفهاء بني أمية من كان يؤُم بالناس في صلاة الصبح وهو سكران، فيسَلّمُ ويلتفت إلى الصف مستهزئا معربِداً قائلا: إن شئتُم أن أزيدَكمْ فعلت!

ومنهم من كان يبيت مع جارية سكرانين فيُخرجها لتصلي بالناس صلاة الفجر.

تلك كانت زندقَةً سافرةً يحميها سيف بتّارٌ معه حُجته: الرؤوس الطوّافة. ما صلاة المنافقين من الحكام على رقاب المسلمين على عصرنا في التلفزيون إلا مَلَقٌ لِدين الجماهير ضعيفٌ منافق إذا قورنَ بتَهتُّكِ الغِلمة السفهاءِ.

ولكل مستكبرٍ ما يُتيحه عصرهُ من وسائل، وما تتيحه وسائلُه في العصر، مِن قوة طغيان وجرأة على الله.

هذه كانت وحشية الغلمان في سفك الدماء، واجتراء الغلمان على حُرم الله وحُرَم رسول الله.

جرْأةٌ كرّهت المسلمين في شيوخ بني أمية وصبيانهم. رأت الشعوب المسلمة ما يفعل العرب بدين حمله إلى الناس العرب، فوُلدَتْ الشعوبيَّةُ قَبَليَّاتٍ وعصبيات واجَهتْ العصبية الأمويّةَ بالسلاح الوحيد الفصيح في الصراعات العصَبية: السيف.

ورأت طبقات من المسلمين استهانةَ وُلاة المسلمين بالدين، فأحيتْ موْروثاتٍ فلسفيةً إباحيَّةً تزندقتْ بها حين تزندق حَمَلةُ السيْف كما يَهْوَوْن وتهْوَى خباثتهم.

ولنا «عمقنا التاريخي» وسلَفُنا الصالح

كانت الفِتنةُ عارمةً، وكان الأتقياءُ الذين هددهم عبد الملك أن يداويهم بالسيف إن أمروه بتقوى الله يُعِدّون القوة لمقاومة الظلم الظّالم والفِسق الفاسق والكفر الماحق.

رُقَعاءُ سفهاءُ لقطاءُ على رأس السلطة يعيثون في الدماء والأعراض والأموال فسادا. وأتقياء أقوياء في الدين قاموا «وضحَّوْا» و«ناضلوا» أشرف ما يكون الجهادُ في سبيل الله.

هؤلاء الأتقياء هم مرجعيتنا، هم «عمقنا التاريخي». إمامُهم الحسين بنُ علي رضي الله عنهما. بعدهُ قام حفيده زيد بن علي زين العابدين. كان علي صبيّاً صغيرا حضر كربلاء، وشاهد مقتل أبيه الحسين.

هؤلاء الأتقياء هم مرجعية كل مؤمن ومؤمنة يقاوم الظلم والكفر والفسق. هم مرجعيّتك وشرفك و«عمقك التاريخي» لو صححت إيمانك وحققت إسلامك. هم شرفك وسلفك لا «تشي كفارا» ولا «هوشي منه». وهذا محمد بن عبد الكريم الخطابي مجاهدنا العظيم

الأصيل رحمه الله. تتلمذ أنت لهوشي منه، وهوشي منه أستاذه في الرجولة شرفك محمد بن عبد الكريم الخطابي رحمه الله.

قتِل زيد وصُلب رحمه الله ورضي عنه.

وتسلسلت البطولات في آل البيت الأطهار.فقام محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن بن علي رضي الله عنهم. قام من المدينة المنورة في قِلة من المؤمنين.

نقول «قام» ولا نقول «ثار»، فالمصطَلح الإسلامي يميّز بين قائم بحق وثائر يطلب الرئاسة والغلبة.

شجع الإمام مالك بن أنس قومة الإمام محمدٍ الـمُلقبِ بالنفس الزكية لزكاوَة أخلاقه وشرفِ مَحْتِده، وأفتى الناس بالخروج معه.

كان أبو جعفر المنصور العباسي قد سجن والد محمد في بضعةَ عشَرَ رجلا من أهل بيته، وطَيّنَ عليهم في بيْت طرحهم فيه حتى ماتوا.

طـيَّن عليهـم: أي بنـى عليهـم جـدارا فقبَرهـم أحيـاء. عنـف السـيف الأمـوي ورثهُ بنـو العبـاس، وطـوّروا أسـاليب التعذيب وفنون التقتيـل.

كان المنصور وأخوه السفاح من قبله يدعون الناس قبل سقوط الدولة الأموية إلى مبايعة محمد النفس الزكية ابن عمهم لِما كان له من مكانة في تقدير المسلمين. كانوا يرَوْن من كمال خُلُقِه وحسن سيرته وخصال الفضل فيه ما لو جاز أن يبعث الله نبِيّاً بعد محمد صلى الله عليه وسلم لكان هو.

تحصن محمد في المدينة، وقد بايعهُ أهلها طَوْعاً وكرْها، فزحف عليه جيش المنصور في أربعة آلاف، وخذله الناس فقاتل بنفسه قتالا شديدا

بعد أن اغتسل وتحنّط وتكفّن، وقاتل معه ثمانون رجلا لا غير. فقُتل وحُزّت رأسه وصُلبت جثته زمانا منكوسةً.

خرج بعده بالبصرة أخوه إبراهيم، وخرج معه كثير من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة ويزيد بن هارون وهشيم أبو خالد الأحمر وعيسى بن يونس. وكان الإمام أبو حنيفة يجاهر في أمره، ويحثُّ الناس على الخروج معه. بعد مقتل إبراهيم جاء أبو إسحق الفزاري إلى أبي حنيفة فقال: «أما تتّقي الله حيث حَثَثْتَ أخي على الخروج مع إبراهيمَ حتى قُتِل معه؟» قال الإمام: «إنه كما لو قتل يومَ بدر».

وقال شعبةُ -وهو من كبار علماء وقته-: «والله لهي عندي بدر الصغرى».

بعد إبراهيم خرج أخوه يحيى فقتل أيضا.

وهرب أخوهم الرابع المولى إدريسُ بعد واقعة «فخ» حتى وصل إلى المغرب، فاستقبله الأمازيغ من قبيلة أَوْربةَ. فبايعوهُ أميرا عليهم، وزوجوه، وانتسَل من ذريته النسل الطيب. بعث إليه هرون الرشيد رجلا يُسمى الشماخ فسمَّه. وبايع الناس ابنَه المولى إدريس الأزهر الذي نشر الإسلام في المغرب نشرا واسعا، وأبلَى في ذلك البلاء الحسن. رحمهما الله. وحَمَى الله آل البيت الأدارسةَ من الوقوع في التسلْسل الملوكي. فبعد وفاة إدريس بن إدريس توزع بنوه في أطراف المملكة. فما لبثَ أن قضَى على إمارتهم موسى ابن أبي العافية.

آمال يانعة تذبل

وظهر في المغرب رجالٌ أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وحاربوا الكفر والزندقة والفسق والظلم. وأسّسُوا ممالك عظيمة وِراثية، تخِرُّ

الواحدة منها بعد الأخرى لِمَا ينْخَر في كيانِ الـمُلك الوِراثيّ، طبيعَةً من طبائعه، ولازمةً من لوازمه. وإن شئْتَ، وكنت المؤرّخَ العبقرِيّ كما كان ابن خلدون رحمه الله، فقل: كانت دوراتٍ تأسست على دعوة دينية، ولَقِفَ الدعوة الدينية عصبيةٌ قبَلية، وتفتّتَتْ العصبية بعوامل الترف، وعوامل الهرم.

دعواتٌ مجددةٌ يانِعةٌ تذبُل. تجدد في الناس الثقة، وتكونُ مناط الأمانة. ثم يسوقُها منطِقٌ لا يَنفكُّ من دَوْرِهِ أيّ بلاطٍ ملوكي: اغتباط بالسلطة، واستبداد بالسلطة يرى المؤسسون الأقوياء الأتقياء أنه الوسيلةُ لإصلاح الفاسد، وإقامة العدل، وتقويم المعوج.

ويرث جيل ناعِمٌ المال والجاه والقوة، فيستشري الفساد في الجيل الثالث والرابع، ثم يعشش الباطل في أوكار القصور، ويفَرِّخُ الاستكبارُ، وتفرض الأزمة ظهور أقوياء أتقياء يعيدون الدورة التي لا مخرج منها منذ انفلات الحكم من سياق الشورى.

هؤلاء المجاهدون القائمون ضد الظلم كان مطلبُهم بناءَ ما نُقِض من عُرا الإسلام. كان مطلبُهم إقامةَ الشورى في سياق الشورى.

وهؤلاء الأئمة الذين نصروا القائمين من آل البيت ما كانوا ينصرون أشخاصاً لهم ميزاتٌ نادرةٌ ونسبٌ شريف، وإنما كانوا ينصرونَ رموزاً قويّةً يأتلف حولها المسلمون، رجاءَ أن تنتَصِفَ الشريعة من الهَوَى الملوكي الذي كانت فيه، ولا تزال، هلَكَةُ الأمة.

يانِعةً كانت الآمال في عين أبي حنيفة وشعبةَ لما مثّلوا خروج الإمامين محمد وإبراهيم ببدر.

يانعةً تتجدد الآمالُ كلما حزب الأمة أزْمة. فينهض قائم بالسيفِ مجاهدٌ يقف إلى جانبه علماء أعياهم الصبْرُ على منكرٍ لا قِبَلَ لهم

بمقاومته. أو ثَبَّط عزائِمهم ما يرون من اصطدام الجاهرين بالحق، الناطقين بالصدق عند السلاطين الجائرينَ، بجدار السلاطين الناكبين عن الحق.

تاريخ المسلمين حافل، منذ قومة الحسين بن علي رضي الله عنهما، بأصناف الرجال التّقاة. منهم من أسس دَولة فعَجز مَنْ بَعدَه عن تسييرها المسار الشرعيّ، وهو الشورى بسياقها، ومنهم من تحطمت آماله على صخرة الواقع فاستشهد في سبيل الله.

كل أولئك تقرأ عنهم في تاريخنا. كتبوا تاريخ الجهاد بدمائهم كما كتبوه بعلمهم واجتهادهم. ما كان من الذريَّة المستنبتة مَن يعيّرهُم أنهم ليس لهم عمق تاريخي. ما كان ليكونَ ولا ليصدّقَ أو يُلتَفَتَ إليه، لأنهم كانوا هم أملَ الأمة في كل أزمة. وكانت نماذج الرجال يقرأون عنها في كتبهم، لا في كتب غيرهم. وكانتْ فروض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المذهبيّةَ التي تنير طريقَهم، بل الدين الذي يدينون الله تعالى به.

كان لهم اجتهاد، وكانت لهم أولويات. لئن نهض بعضهم وقام وقاوم، فآخرون حبَسوا فِكرهم عن الجموح، وعاطِفتَهم عن الفَوَران، وحَسَبوا حساب الظروفِ، وحسابَ الممكن.

بعضُ المتخاذلين من علماء المسلمين التمَسوا التّقِيّةَ لاجتناب المواقف الصعبة. والأقوياءُ ساوَمَتْهم الرجولَةُ فشرَوا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾.[1]

من الأقوياءِ الحكماءِ، على طول تاريخنا، من قدّروا قدر الواقِع من عُدّةٍ للإسلام فبذلوا الجُهد ومنحُوا التأييد والتسديد. وهكذا نجدُ

(1) سورة التوبة، الآية: 111.

سلطان العلماء عِزَّ الدين بن عبد السلام عبَّأ المسلمين ليخرجوا مع المملوك قُطُزَ والمملوك بَيْبَرْسَ إلى قتال العدو المغير التتارِ الذين أبادوا البلاد والعباد وخربوا مُلْكَ بغداد. وقاتَل معهم في عين جالوتَ المعركة المجيدَةِ التي أوقفت غارة الجراد التتري.

وتجد علماءَ أجلاءَ وقفوا مع الدولة العثمانيةِ، شوكةِ الإسلامِ الفاضِلَة التي أعز الله بها الإسلام ستةَ قرون. حتى جاء تَتَارٌ عصريونَ بقيادة «مناضل» كافر قضى على آل عثمان ومُلْكِ آل عثمان. رحم الله الصالحين من آل عثمان.

أهي دعوةٌ للتصالح مع الحكم الوراثي، نزعم لكل حامل سيف أنه شوكة الإسلام وهو يهدم الإسلام أمام أعيننا؟

كلا!

نحن بحاجة لصياغة جديدة، نحن بحَاجة لِلِحام جديد يجمعنا ويدمجنا في وحدة إسلامية تَعبُرُ بنا الحواجزَ التمزيقيّةَ القطريةَ، والحواجزَ النفسيةَ والعرقيةَ، والحواجزَ الفكريةَ المذهبيةَ الغريبةَ عن ترابِ أرضنا وهواءِ جونا.

إن قاوم الأئمة العظام، مثل الحسين ومحمد رضي الله عنهما، الحكم الهرقليّ فإنّما عالجوا وجها واحداً من وجوه الفتنة. عانَوْا وحاولوا معالجةً. عانوا من فساد الحكم وحاولوا معالجة السيف وفعل السيف بالسيف وفعل السيف. سيف الهرقلية انتزع بيعاتٍ وقطف رؤوسا، وأسكت كلمة الحق. وسيف الأئمة القائمين بالحق حاولَ إحقاق الحق بحماية الناس من جبروت الإكراه والكذب والنفاق.

وإن صانع علماءُ أجلاءُ الـمُلْكَ العاضّ بعد أن تأصل على جذوره الأموية فأصبح مشهدا عاديا في الحياة، فإنما حافظوا على شوكة

المسلمين في زمن أحدقت فيه بهم المخاطر، ولا شوكة لهم غيرُ المألوف والموروث، ولاَ أُفُقَ غيرُ شهامة المماليك قطُزَ وبيبَرْسَ وجندهما، ولا رجُل يُسامِي الملِكَ العثمانيّ محُمّداً الفاتِحَ إيمانا وثِقةً بالله وتَمكُّناً في الأرض.

فِتن تهدد الروح

تلك كانت فتناً أصابت الرأسَ، لم تُصِبْ المقتَل. أصابت نظامَ الحكم والجِسم سليمٌ في الجملة، له من المنَعَةِ ما يُحيِّدُ عنفوان الظالمين. عروة نُقضَت وبقيت عُراً تمسك وتشُد وتجمع.

في زمننا الفتنة عامة. الخطرُ يهدد الروح. الخطر يهدد وجود أمة تسمى أمة الإسلام.

الأمة هشيمٌ تذروه الرياح من أثر غثائية موروثةٍ. غثائيّة صُمَاتِ الأمراض المزمنة، وترهُّل الأمراض المزمنة، وتفتت أجسام طاوَلَتْها أسقام.

إن كان تطبيب الموروثِ من أدوائنا يُفيد فيه ويُهيِّءُ له النقدُ التفكيكي التّأمُّليُّ التاريخي، فإن الطاعونَ الحادَّ القاتل الذي يخاتِلنا ليقتلنا القِتْلة النهائيّة يريد نقدا عمليا جهاديا لجُشائه حين يتجشّأ علينا رجيع تُخمته، وتَعَوُّذاً من سحره حين ينفُث في الصدور والعقُول، وتَرْياقاً لسمومه حين تفرزها مَسامّ ثقافته الملحدة الكافرة.

فتنة عارمة عامة حادة. فتنةٌ داهمةٌ تجرّعناها على مَهَلٍ كأساً كأساً. فألِفها الجِسم بعد الصدمة الاستعمارية الأولى. أخطَرُ أخطارها اليومَ أن الجِسم لا تصيبه الحُمّى الدافعةُ المانعة. الجسمُ مستَرخٍ على سرير احتضارِه المعنوي، ومنْ حوله نفاثاتٌ في العُقَد من جراثِيم الإلحاد.

كان «مناضِلٌ» ماركسيٌّ من أصحاب الأرصدة الصفْرِ وصف للجراثيم الإسلامية، الإسلاموية في تعبيره، علاجاً حاسما. عبّر بلغته الفرنكفونية فقال ما معناه: يجب تعقيم هذه الجراثيم.

نحن لنا عدُوٌّ واحِد. الإلحادُ، وجرثومته البشرية تنخر في جسمنا. لست أدري هل بقي في ذاكرة الماركسي ذي «العمق التاريخي» في النضال ضد الإسلام بعضُ أدوات التعقيم التي استعملها أسلافه الثوريون الملحدون. ولست أدري ما كان يفعلُ لو استسلمت له الجراثيم الإسلامية.

أما نحن فنيّتُنا خِلْوٌ من مُبَيَّتاتِ الانتقام والتعقيم. الأمر أعظم من مطاردة بعوضة هنا وبعوضةٍ هناك. الأمر مصير أمة.

في حواشي الساحة السياسية

مثالٌ سُقتُه مِن حواشِي الساحة السياسية لأقول لنفسي ولِمَنْ يُؤرِّقه هَمّ مصيره إلى الله وهم مصير أمته كلـمَةً ترفع حوارنا من السفساف الذي يفوه به المنفيّون عن ذات الأمّة في لغةِ قوم آخرين.

كلمةً ترفع حوارنا فوق غبار الصراعات السياسية الوقتية.

معرفتنا نحن أن من أبناء الأمةِ وبناتِها مُلْحدين لا يستفزنا لما نعلَم أنّ كلّ دعوةٍ غيرِ دعوة لا إله إلا الله محمد رسول الله شجرةٌ خبيثة لا تَنبُت في ديار المسلمين. لا تنبتُ إنْ قامت الأمة من أعماقِ كيانها وتعبأت وتحصَّنَتْ.

الصراعات السياسية الوقتيَّة وَقودُها الحِقد والتسابق إلى السلطة، وَقودُها في أحسن حالاتها وطنيةٌ تريد حرية، ونضالية تريدُ عدلا

اجتماعيا وديمقراطية. وأحزاب تناطح أحزابا، وبرامِجُ تُضاهي برامِج. ولكل رهانُه وشِعاره وعِيَارُه.

ما حارتْ البَرِيّة في توظيف حزب سياسي لأهداف سياسية. وما غيّر مَسارَ الأمّةِ برامِجُ أحزاب، ولا جمعَ أمةً تعددية ديمقراطية.

ينظر الناقد من خارج إلى الحركة الإسلامية فيتصورها أحْزابا سياسية. وتَنْشُدُ التغييرَ أحزابٌ سياسية كما تستعملُ الكلمةَ نفسَها الحركة الإسلامية. وينتقد المراقبُ من خارج الحركةَ الإسلاميةَ لأنها لا تتوَحَّدُ، بينما التعددية في الفكر والتنظيم هي عنده سِدْرةُ المنتهى في الانفتاح الديمقراطيّ.

نحن حريصون على حوار مع الفضلاء الديمقراطيين لو كان بعضهم يُفرِّق بين التنابُزِ في الصحف وبَيْن الكلمةِ المسؤولة. وإن سوء التفاهم بيننا وبين بعضهم ناتج عن أننا نتكلم من مواقِع مختلفة، ومن مُستوَيَيْن اثنين. ومن يُراد منه أن يبذلَ مجهودا ليسمع ويتأمل ويقَدِّر الحاضر والمستقبَلَ منهمك في الحاضِر لا يَلْوي على شيء.

وثبةٌ فوق التاريخ، وطَيٌّ مراحلِ التاريخ، واقتطاف الثمار وأنت لَمَّا تغرس الشجرة. أوهامٌ قد تداعب من ينشدون تغييرا من موقع سياسي، لأهداف سياسية، بوسائل السلطةِ والبرنامج والمؤسسات الحُكمية. أوهامٌ سياسية لتغيير سياسي.

أما نحن فعمقنا التاريخي، وعبرتُنا بالتاريخ، وإدْراكنا لمفاصِل التفكك وأسباب التفكك وعاهات الغثائية، وانفتاح أعيننا على حاضِرٍ ينذر بمُستقبَل، تُزهِّدُنا في لغة السياسة، ووسائل السياسة، وبرامج السياسة المحدودة الأفق.

تزهِّدُنا تلك المؤهلات في اللغة والوسائل وانحداد الأفق، لكن موقعنا في الساحة السياسية يَزُجّ بنا في وطيس المعركة شئنا أم أبينا. ونحن نشاء لأن السُّلطان خذل القرآن وخاصمه في تاريخنا منذ بُكوره، فلا يَنْصلح أمر الأمة ولا ينجمع إلا برأبِ الصّدْع بين شريعة القرآن ووازع السلطان.

حضورنا يزُجّ بنا في الوطيس، وتشتبه لغتُنا بلغة أهل المكان، فيَخَال بعضُ أهل المكانِ أننا طلاب رئاسة، وأننا ريحٌ عابرة، وعجاجُ رِمالٍ. ويخالُ بعضُهم، لِمَا تتيه به الساحة من حضورات مرخّصٍ بها، أننا يتامَى يحسُن أن يعاملوا بلطف، ويعمل بعضهم، لا يَأْلو، على إبَادة الجراثيم وتعقيمها.

عن أي تغيير نتحدث وتتحدثون؟

إن الأمةَ يا إخواني الفضلاء -وصدقوني أنْ لا سخريّة ولا نفاق في لهجتي- على رأس مُنعَطفٍ تاريخي. وأنتم جزءٌ لا يتجزأ من الأمة. والقفز على حضوركم وكأنكم عدمٌ وهمٌ لا يساوِرُ عقولنا. فلا مناص من التعامل بيننا.

فلا يبقى، إن لم يستجبْ بَعْضكم للكلمة السواء، والتوبة العامة، والميثاق الإسلامي، إلا أن تُعيرونا آذانكم وبعض وقتكم تنتزعونهُ من المهام السياسية المتزاحمة.

إن لم يستجب بعضكم للكلمة السواء ويُشاركْ في بناء ما هدمته الفتنة، فلا أقلّ مِن أن يكونَ ذكيّاً ليقِفَ في الشارع العام موقفا مُشْرِفاً يخوّلُه مشاهدة موكبِ التاريخ مارّا بسَكينةٍ واثقة بالله عز وجل.

أو يكونَ بصيرا بشؤون آخرته، مِمّن يستمعون القول فيتبعون أحسنَه. أحسنُ القوْل ما دلَّك على مصيرك إلى الله، وعلى أقوم السبُل لتعبدَ الله، وتجاهدَ في سبيل الله جهاداً هو سنَامُ الإسلام، وسنامُ الجهاد -وأستغفر الله- هو إبرامُ ما نقض مِن عُرا الإسلام.

نحن على وَشْك أن نستخلصَ زُبْدَة ما تمخَّض عنه هذا الحوار، فنحبّ أن نُسمِع أنْفسنا ومَنْ حولنا مِمّن يَسمع أنه مُنعطَف تاريخيٌّ في حياة الأمة، وأنّ التغيير على لساننا ليس مُجرَّد تعاقب على السلطة تعاقبا ديمقراطيا، ولا خلوداً في السلطة خلوداً ثوريا، ولاَ استعمالاً للسلطةِ مَحْضِ السلطة، ولا إقصاءً لأيٍّ كان من كفاءات الأمة ورجال الأمة ونساء الأمة.

لا، وليس التغيير الذي نقول به ونعمل عليه مشروعَ تنمية يقف عند التنمية، أو مشروعَ عدالة اجتماعية ينْحَدُّ في إدماج اجتماعي يُقارب بين طبقات الناس في المعاش، أو مشروعَ حضارة مهدّدةٍ تدافع عن وجودها وبقائها يكون بقاؤها غايةَ الـمُنى وازدهارُها النصرَ الـمُبين، ولا مشروعَ هُوَيّة يُخْشى عليها أن تذوب وتضمحلّ في الهُوَيَّات الغالبةِ ويكون الحِفاظُ عليها من الاندثارِ أقصى ما تصبُو إليه الأمة.

التنميةُ وشروطها، والتميّز الحضاري ولوازمه، والعدالة الاجتماعية وما تُقرب وما تدمج، والهُوَيّة الخاصَّةُ وما تحافظ، كل هذه مجالاتٌ للتغيير الذي ننشُدُه، جسمٌ ومظهَرٌ. الروح المحرِّكة التي بها تحيى التنمية، وتتأتّى العدالة، وتتألق الحضارة، وتتميز الهوية، إن لم تكن روح الإيمان بالله ورسوله، وشريعةَ الإسلام فإنما نحن ناس من الناس. لا نكون خير أمة أخرجت للناس كما يريد الله تعالى لنا.

نكون بجهود تنفُخُ فيها روحٌ غيرُ روحنا ناسا من الناس، لا نكون الأمة حاملة الرسالة للعالمين.

يَحْيى الإنسان منا، ومن غيرنا، ويموتُ وهو لا يعرف معنى بعثِ الله تعالى الرسلَ إلى الإنسان والجانّ، ومغزى الرحمة التي جاء بها للإنسان والجان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يحيى ويموتُ ولم يسمع النبأَ العظيم، نبأ الآخرةِ والسعادة والشقاءِ الأبديَّيْن في الآخرةِ، لأنّ المناخ الاجتماعي، والجو الثقافي، والهوية الحضارية، والتنمية البشرية الاقتصادية، أشكال بلا مضمون، وكلمات جوفاءَ في العالَم، لأنها انسلخت من دينها، وتخلّت عن الإنسان، وخذلت الإنسان، وغدَرَت بالإنسان، لما تخلت عن الدين الرحمةِ للإنسان والجان.

ما يُقيم أَوَدَ الجِسم والشكل والوجودِ الماديِّ المعاشيِّ في الدنيا أمر نلتقي عليه مع الأحزاب السياسية. والدولة، ونظام الحكم، والسلطة، والتحكم في الأرزاق، وإنتاج الأرزاق، وتوزيع الأرزاق، موضوعات الرهان السياسي، ونحن فيه والأحْزاب السياسية في حَلْبةٍ واحدة. وسيلتنا ووسيلة الأحزاب السياسية من حقيبة تشبه الحقائبَ السياسية شرقا وغربا. والديمقراطية، كلمةُ العصرِ السحرية، أمثَلُ ما هو مُتاحٌ من بين ما يُداعب آمالَ الأحزاب السياسية.

أما ما يقيمُ أَوَدَ الإنسان الراكع بين يديْ هواه وأوثانه وشهواته وجهله بالله وبمصيره إلى الله، فهو أمرٌ لا خبَر للأحزاب السياسية عنه، فإن كان لها خبرٌ في ماضي وطنيتها فقد طُوِيتْ تلك الصفحة، والدنيا اليومَ لاييكية تُفرّغُ السياسيَّ وحزبَه من شؤون الدين، وتُنسيه شؤون الدين، وتشجعه ليَنْفُضَ يده من شؤون الدين. فالدين في ركن المسجد مَقيلُهُ ومبيتُهُ.

الدعوة مِهنتنا

ونحن الدعوةُ مِهْنتُنا. والدعوةُ وسيلتُها التربيةُ، وسيلتُها التذكيرُ، وسيلتُها الإنذارُ، وسيلتُها التبشيرُ، وسيلتها الوعظُ، وسيلتُها التعليمُ، وسيلتُها الإقناعُ، وسيلتُها التي هي أحسنُ.

من الناس مَن يُنادَوْنَ من مكان بعيد، أَوْغلُوا إيغالاً في الفكر المادي الأجنبي عنا، ووجدوا بُغيَتَهم في حياةٍ ولُغةٍ وفلسفَةٍ وثقافةٍ. فنِداؤنَا إليهم لا يُسمع.

ومن الناسِ من يَسمع نداءَنا بأُذنٍ أَلِفتْ أن تَقْرَعها شعارات السياسيين، فتتميّزُ له في ندائنا نَبْرةُ صِدق يرتاح إليها، لا يزيده الملَل من الشعارات السياسية إلا إصغاءً لكلمة «الإسلام هو الحل». ولا يفهم من ندائنا إلا أنّه وعْدٌ ناجِزٌ بالخبز للجائع، والعملِ للعاطل، والكرامةِ للعائل، والعزةِ للـمُذَل.

حرصُنا على أن يُسمع لنا نداءٌ، أشدُّ منه حرصُنا على أن لا يُفهم نِداؤُنا فهما مبتورا.

حوارنا مع عُمّار الساحة السياسية ضرورة سياسية، وتبليغُنا مقالَة الإيمان واجبٌ دعويٌّ. فالمرجو مِن العُمّار الفضلاء أن يبذلوا جُهدا -حدا أدنى من الجُهد- لكي يستبينوا من خطابٍ دعَويٍّ أصلا، سياسيٍّ ضرورةً، كلمةَ الوعظِ متشابكةً مع كلمةِ السياسة. العِداء للإلحاد والكفْرِ لا تُقِرُّه أخلاقيَّة الحوار الديمقراطيّ الذي يَفترِضُ احْترامَ رأيِ الغيْر مهما كان رأي الغير ساخرا بالدين، ويفرض على المؤمن إيمانُه أن يتبَرّأَ من الإلحاد والكفر لكيلا يُحشر مع المنافقين إلى الدَّرَك الأسفل من النار.

الفصل الخامس

للإنسان مساق

- سياق ومساق
- مقدمات المساق
- مساق الإنسان الديمقراطي
- الشكل غير الشكل
- ما الرابطة الجامعة؟
- ارفعْ رأسك!
- «الشورى نظام استبداد!»
- الشورى والآليات الديمقراطية
- مثالية، ذلَّ من لا مثالية له من ذاته!
- «نهج إسلامي للديمقراطية»
- نستوردها زنيمةً
- أقلية طافية عافية
- الوَلاية
- الولاية الإيمانية رحمة أفقية أيضا
- مُحادَّة الله ورسوله فيْصَلٌ
- تسامح!
- تربية وتربية
- التربية الإيمانية أخْذٌ رفيق مُحِبٌّ باليد
- كنا نظن!

سياق ومساق

صيغَتْ «مساق» مَصاغ المصدر الميمي. وتحمِل الصيغَةُ الدَّلالةَ على اسم المكان واسم الزمان.

وردت الكلمة في سورة القيامة، في آياتٍ تذْكر أين يُساق الإنسان، وإلى مَن يُساق. وتذكُر صفات الإنسان الـمَسُوق إلى ربنا عز وجل بعد الموت.

استعملنا في الفصل الأول في هذا الكتاب كلمة «سياق» لَدَى حديثنا عن الشورى وسياقها. ذلك لنوازن بين سياق ومساق، ولنُحمِّل المفهومين ما تُحمّلهما اللغة وما يحملهما الكَلِمُ الحق: القرآن الكريم.

«سياق» على وزن «فِعالٍ» صيغةِ التبادُل في الفعل. تساوقت الإبِلُ: تتابعت. ساوقه: تابعه.

وهكذا تكون بنودُ الشورى وشروطها المذكورةُ في سورة الشورى نسقاً متتابعا يشد بعضه بعضا، ويلْزَم من وجودِ بعضِه وجودُ بعض، ومن فقدِه فقْدُه. لا يكتمل النسق ولا يُسَمّى النظامُ شورى إلاَّ باكتمال السياق، وتناسُق الصفاتِ النفسية القلبية العملية الإيمانية في ذات العاملين على الشورى جماعةً، وفي ذات المشارك في الشورى فردا.

كذلك المساقُ. وردت في سورة القيامة مَسْرَدَةٌ من صفات الأشقياء أهلِ النار -أعاذنا الله من النار- يُشكِّل مجموعها نسَقاً متكاملا من صفاتِ الإنسان الغُفْلِ عن الإيمان، الكافِر أصلا، أو المرتدِّ عن دينه، أو المنافق في الدين، أو الغاطِس في غفلات الكبائر والفواحش.

قال الله تعالى بعد أن وصف أهوال يوم القيامة: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[1].

إلى أن قال جلّ من قائل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[2].

ويأتي وصْفُ الإنسان الغُفْل عن الإيمان، الجاحدِ الكافرِ، أو الجاهلِ بدينه المرتدِّ، أو المنافقِ المكذِّبِ.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[3].

الديمقراطية قانون طبيعي استقام لأهله على دعائمَ من فلسفة الحق الطبيعي التنويرية، ومن ثورات الأرستقراطية الإنجليزية على الملك، وثورة البرجوازية الفرنسية على الكنيسة والملكية.

هذا انتسالُها التاريخي الفلسفي. فهي تتويجٌ لنضال، وتحريرٌ لإنسان. لا ينبغي فكرا ولا يُحتَملُ أنفةً وعِشقا للحرية أن يضامَ الإنسان، ويظلم الإنسان، وتقيّد حرية الإنسان بأي قيد لا تفرضه

(1) سورة القيامة، الآيات: 10 - 14.
(2) سورة القيامة، الآيات: 20 - 30.
(3) سورة التوبة، الآيات: 10-40.

الديمقراطية على نفسها، بوسائلَ توافُقِيَّةٍ أو أغلبِيَّةٍ تَجْمع رأي الناسَ من حيثُ كونهم ناسا.

نقول من جانبنا، ومن مَرْقبِنا للديمقراطية، وبمعيارنا القرآني: الديمقراطية تُلائِمُ الإنسانَ من حيثُ هو إنسان في مجتمع طبيعي تواضَعَ الناس فيه واتفقوا على ما يجْمع رأيهم ويصون حقوقهم كما يحددون هم الحقوقَ.

ونقول: إن الإنسانَ الديمقراطيّ الذي يتبنى نظام الحكم الديمقراطي عقيدةَ حياةٍ، وضمانةَ حياة، ويرفُضُ إقْحام الدين في السياسة، لا ينبغي لَهُ أن يُشِيحَ بوجهه وأن يُعرِض عن تأمُّل صُورته في مِرآة القرآن. لأن صورته في القرآن -في سورة القيامة مثلا- لا تُؤْذِي تصورَه لنفسه، ولا تَخْدش مُرْتضاهُ لنفسه.

إن كان مسلما نام في قلبه الإيمان فقَدْ تصدِمه الصورة، وذلك ما نبغي. وإن كان الإسلام على لسانه ولباسه واسمه عَارياتٍ ومُخَلفاتٍ وموروثاتٍ فلا داعيَ أن يتَّهمنا بتشويه صورة الإنسان وإلصاقِ التشويه بنظامٍ ارتضاهُ الإنسان.

الآيات من سورة القيامة تقدم لنا الإنسان ماثِلاً بين يدي الموت، بلغت روحه الحنجرة، وعجز الطبّ عن إسعافه، وحان موعد فراقه الدنيا، واشتد الكَرْبُ به.

يُخبره القرآن الكريم أنّ ما بعد مشهد الاحتضار، وانتظارِ الموت، وخروج الروح، هناك المساق إلى ربك. مَساق أولُ إلى البرزخ، يتلوهُ سَوْقٌ آخرُ بعد البعث إلى دار القرار الأبديِّ في الجنة أو النار، كما قال تعالى في سورة ق: ﴿**وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[4].

(4) سورة ق، الآيات: 21-22.

هذا الجزءُ من المساق، هذه المرحلة النهائية، لا يُحب الإنسانُ الطبيعيّ، المتدينُ بقانون طبيعيٍّ، أن يسمعَ عنه، لأنه انتهى معلموه منذ عهود من مسألة الموت، ومن التخرّصاتِ الميتافزيقية الفارغة. ثم إن هذه المنغصاتِ للحياة لا مدخل لها في الديمقراطية. فهل نحن في المقابر أو في أنظمة الحكم؟

مقدمات المساق

أما مقدمة المساق الذي يتحدث عن صفات الإنسان الطبيعي النفسية، وعاداته، في حياته الدنيا، ومعتقداته، وفلسفته في الحياة، وأفكاره، فما فيها إلا ما يتطابقُ والفلسفَةَ الوضعيّةَ الطبيعيةَ.

1- ﴿**تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾: نعم! حبّ الدنيا، والصراع من أجل الحياة، واغتنام ملذات الحياة. لهذا أنا موجودٌ.

2- ﴿**وتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾: أيّة آخرةٍ ولم يرجع إلينا أحد ليُخبرنا، ولم تنفُذْ وسائِلُنا العلمية الدقيقة المتطورةُ لكشف أية علامةِ حياة بعد الموت. إن هي إلا جثث تتعفّن، أو يكون المرءُ محْظوظا ثريّاً فيكتري بمائة مليون دولار خزانةً مُبَرّدة تحفظُ جثته في درجة حرارية الصِّفْرِ المطلق إلى أن يتقدم العِلْمُ ويُطوِّر العُلَماء وسيلة لإحياء الموتى وإعطائهم الخلود.

3- ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ : تلك سعادة غائبة عني، لا أستبدلها بحياتي الملموسةِ الـمُحَسّةِ. لا يبيعُ حاضرا مؤكدا بغائبٍ مشكوكٍ في وجوده إلاّ مغبونٌ.

4- ﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾ : ذلك مشهَد يُخوّف به رجال الدين الناسَ، يُلقحونهم بأفيون الشعوب ويخدّرون حِسّهم السياسي الاجتماعي.

5- ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ ، فسر بعض العلماء صدّق بمعنى تصدق: في عقيدة الديمقراطية لا صلاة ولا زكاة. لماذا تدخلون الدين في السياسة؟

6- ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾: ألا تعلَم أن الشك المبدئيَّ هو أب العلوم المضبوطة، وأن المنهجية العلمية التجريبية ما حققت للإنسان كل ما تراه وتسمعه وتُحسه من معجزات الاختراع إلا باعتمادها مبدأ الشك المنهجي؟ ألا تعلم أن التَوَلِّيَ عن تصديق كلِّ خبر دليل ذكاء وفطنة؟

7- ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾. تمطَّى: أي مشَى الـمُطَيْطَاء، وهي مشية تبختُر وتكبُّر كان يمشيها بنو مخزوم قَوْمُ أبي جَهْل.

وفي أبي جهل نزلت الآية لأنه كان يتكبّر على الناس ويمشي بينهم تلك المشية.

لا يَرى الإنسان الطبيعي أيّة غضاضة في الاعتزاز بنفسه وبمنجزات عقله. بل فخرهُ وغايةُ وجوده الفرديِّ إظهارُ قوته وتفوقه، إن لم يكن في ميدان العلوم والأدبِ والفن والزعامة حيث يترك لاسمه صَدىً في التاريخ وفي ذاكرة الإنسانية، فلا أقل من التفوق في الملاكمة وسباق السيارات والدراجاتِ والقفز والكرة.

مجد الإنسان الطبيعي أن عقلَه تمطَّى في حركة حاسِمة منذ القرن الثامن عشر، عصر الأنوار، فالقرنِ التاسعَ عشَرَ، قرن العلوم، فالقرن العشرين قرن المعجزات العلمية.

مجد العقل الإنسانيِّ الطبيعيِّ أنه تمطّى في فلسفة نِيتشه، واستعلى، وطمَح في عَرش الألوهية، وأعلن في ثقةٍ وجرأةٍ نادرةٍ أن الله مات. فالمجدُ والخلود للعقل. وللسُّوبِرْمان قاهِرِ الأكوان!

8- ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾. كلمة تهديد، سمعها أبو جهل فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أتُوعدني يا محمد! والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا! وإنّي أعزُّ من مشى بين جبليها!

الغرُّ البليدُ أبُو جهل! كان يعتقد أن هنالك ربّاً! ما جهلُهُ ومُطَيْطَاؤه الكئيبةُ إلا مُناورةُ صِبيان، بعقول صبيان!

﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾:كأنك لا تعلم أن الإنسان يصنع نفسه بأعماله، وإن المدارسَ الفلسفية القديمة والحديثة على مدى قرون أيسَتْ من مَعْرِفة شيء زائدٍ على ما ترى وتسمع وتعمل.

9- ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾: ويكونُ ماذا إن كَشف لنا النص العَتيق عن جزءٍ من ألف جُزءٍ مما نعرفه اليوم عن تكوُّن الأجنّة، وعن الحيوانات المنوية، وعن عملية التخصيب، وعن العوامل الوراثية التي أفْشَتْ أسرارها لعلمائنا المجَهزين بالمجاهر الإلكترونية ! ثم إن العِلم الحديث، وما أحدثَه وَيُحدثه من تطويرات مذهلة في الهندسة الوراثية، صائر بنا إلى التحكّم المطلق في إنجاب الأطفال بالمواصفات المرغوبة. نحن مرتاحون أمام «خلَق فسوّى».

10- ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾: هذه هي النقطة الحساسة في الموضوع كله. ما تفعلون أنتم الظلاميين بالمرأة؟ ما فعلتم بها وتفعلون؟ هي زهرة الحياة، فلم تسَوِّرونها خلف الجدرانِ بينما الأليق بها أن تعْرِضَ في مِزْهريّات من ثياب مُوضة، وأصباغ تجميل، وعطور جذابة؟ المرأة ضحية ظلاميّتكم. قهرتموها وفرضتم عليها

إرادتكم الذكورية الغاشمة. لا يكفي في الحديث عن جرائمكم نحو المرأة كتاب.

11 - ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾: عندما يرجع أحدٌ من بعد موته. وتأتون بالأدلة العلمية على أنه مات بالفعل، نثير هذا الموضوع الحزين. كم يروق لكم أن تنغصُوا علينا الحياة بذكر الفناء والعدم. كأنكم نبّاشو قبُور تربطكم علاقة مَرَضية بالحنوط والجثث!

لو عرضنا الأحَدَ عشر عنواناً من المساق على إنسان طبيعي غُفْل من الدين أصلا، أو معرضٍ عن الدين فلسفةَ حياة، أو متخَلٍّ عن الدين إلحاداً، أو لاعبٍ بالدين والعقيدةِ نفاقاً، لَمَا أنْكر من صِفاته شيئا. بل ربما اعتبر الصورةَ مبالِغَةً في الإشادةِ بحريته الفكرية، وقوة شخصيته، واستقلالِه الفكري عن الموروث من مُخلفات الأساطير.

مساق الإنسان الديمقراطي

ما من صفَةٍ في السياق إلاّ وتشير إلى تمَفْصُلٍ بين الإنسان الحر وبين النظام الحر اللائق به: الديمقراطية.

ما للديمقراطية شأن بالزهد في الدينا. بل الزهد في الدنيا والتسلِّي بأسطورة المعاد خمولٌ وشعوذة قامت اللاييكية الثورية والثورية الاشتراكية بمحاربتها ومحاربة مؤسساتها الكنسية.

الديمقراطية، حقَّ الديمقراطيةِ، لبراليّةٌ مطلقة تكافئ المجهود الفرديّ، والمبادرةَ الفردية، وتشجع على التنافُس الحرُ. فكلّ التفاتٍ إلى أعمالٍ مجّانية تنتظر جزاءً ميتافزيقيا إنما هو إهدار للطاقات ناتجٌ عن عقلية لا تصلُح لحساب المردودية والإنتاجية والنجاعة.

لا نعود في الهذَر الذي ضيعنا معه أربَع صفحات. فصورة الإنسان في المساق لا تتطابق إلاّ مع نظام حكم يعكس طموحاتها، ويحقّق أهدافها في الحياة. وليس إلا الديمقراطيةُ اللبراليةُ، وما يسير في ركابِها من فِكرٍ حُرٍّ من كل قيدٍ، وممارسةٍ منفعية لذاتِيّة، ونظام اجتماعي مدنيٍّ متفتّح الأجواء على عالَمٍ ما فيه عاجلة وآجلَةٌ، ما عدا إن تخلفتَ عن الركب الحضاري وبقيتَ في اليُبوسات الفكرية.

يُرصِّع اللاييكيون كتاباتهم بقطوفاتٍ تُغْدِقُ الثناء على الديمقراطية. نورد بعضها لنحكم على الناس بما يرى الناسُ لأنفسهم من رأي، وبما يصورون لأنفسهم ونظامهم من صورة.

كتب كاتبهم: «الديمقراطية كبعد سياسي مفهوم مرتبط أشدّ الارتباط بلحظة متقدِّمةٍ في تاريخ تطور وعي وفكر العنصر البشري. لحظة تخطي المرحلة الخرافية والأسطورية، وبداية بناء تصورات شموليةٍ عن العالم (ميتافزيقية ومادية) وصل فيها الإنسان إلى بناء الدولة المدنية على الصعيد السياسي».

لا فائدة من التعليق. فالفلسفة الوُضعيَّة ومراحل الأسطورة والدين تتلوها مرحلة المجتمع المدني والدولة المدنية واضحة المعالم.

ويكتب كاتب باحث: «إن الديمقراطية بما تحمله من حكم حر نقديٍّ حديث ومجدد، وبما تجسده من حريات التفكير والتعبير والاعتقاد والصحافة، وبما تضمنه من مشاركة سياسية واسعة، وتنظيم حر للمجتمع المدني تتناقض مع المشروع الثيوقراطي الشمولي الإسلامَوي الذي يعوض مفهوم التعدد بالإجماع، والمجتمع المدني بجماعة «المسلمين»، والحريةَ بالحيرة، ويهدف إلى الشطب بجرة قلم على كل القوانين «الوضعية» وتطبيق القوانين «الإلهية». ومعنى ذلك: لا معارضةَ، ولا تَداوُل للسلطة، ولا انتخابات، ولا جمعيات،

ولا كتاب أحرار أو صحافة مستقلة، ولا حق المواطنة (العودة إلى مفهوم أهل الذمة والجزية ودونية المرأة) ولا مؤسسات دستورية أو ممثلين منتخبين».

حرية الاعتقاد ورفض القانون الإلهي مطالبة صريحة بحق الديمقراطي الكاتب (ولا حاجة بذكر المراجع فالكلام مكرر معروف متداول) في أن يعيش عيشته حرا من كل اعتقاد ومن كل شريعة وحَيْرة.

بعضهم يلمِّحُ إلى حقه في الإلحاد من بعيد لحذقه السياسي. نقول بلغة القرآن: لنفاقه.

وبعضهم كصاحب النص السابق يستعين على إثبات حقه في التفكير الحر (أي الإلحاد) بتسويد صورة «الإسلامويين» كما صاغوا هذه الكلمةَ الهجينة. فعنده أن الدعاةَ إلى حكم الشريعة لا يفقهون شيئا في الدنيا وإدارةِ الدولةِ المدنية، والتفكير في المتشابك المتداخل من شؤون السياسة والاقتصاد والاستراتيجية الاجتماعية لأنهم لا يفقهون في القانون الوضعي الطبيعي.

معنى ذلك كما يقول: أن لا معارضة، ولا تداول، ولا، ولا. إنما هي العدمِيّة والجمود.

الشكل غير الشكل

لو استدعينا أحدَ النّافِرين عن دينهم لتأمُّلِ حياةٍ في ظل الشريعة وسياق الشورى لاختنق لمجرد التأمّل. فما بالُك لو أخرجناهُ من مناخه الطبيعي المتحرر من كل قيد!

السياق الشوري يحتمله ويتعايش فيه ناس يتنفسون هواءً غيرَ الهواء الذي ينتعش فيه الطبيعيون. ويفكرون بعقولٍ يختلِف تركبُ مفاهيمها اختلافاً جوهريا ولو كان أصلُ العقل المعاشي الجامع واحدا.

الشريعة والسياق الشوري نسَقٌ مخالف للنسق الآخر المسَاقيِّ. لا نقول مضادٌّ لوجود نقط التقاء. فالضد ما في ضده ما يماثله. ما في السواد ما يماثل البياض غيرَ أن هذا لَوْن وهذا لَون.

لا توجد فوضَى في خيالِ «الإسلامويين» كما قال، ولا جمودٌ في عقليتهم. وقد بسطنا مزايا الديمقراطية وما نلتقي فيه مع الديمقراطية وما نفترق.

اجتمعنـــا لمعـــان وافترقنـــا لمعـــان

من التهريج «السياسوي» -نستعمل ركاكتهم لنُفْهَمَ- أن يدّعي بعضُهم الانفراد بالصرامة الفكرية، والنزاهة الفكرية. وأنْ يزعُم أنّ الجهاز التفكيريَّ الإسلامي صَدِئٌ، معطل، عاجز عن التفاعل المرِن مع مستحدثات الساحة.

من التهريج والمراوغَة اللفظية الحاذقة أن نتهم الإسلاميين بأنهم عقائديون متحجرون على تقليد بالٍ، وأننا نحن التلامذة الأذكياء نفتح صدورنا وعقولنا للتعددية، و«للرأي الآخر».

الإسلاميون يؤمنون بالله واليوم الآخر، والملحدون الجبناءُ سياسيا، أو الحاذقون سياسيا، يتنصّلون من موقفهم المعادي للقانون الإلهي بإلصاق التهمة المرفوضة في العقيدة الديمقراطية بالإسلاميين، من كونهم ينصِبون حواجزَ إرهابيةً أمام التفكير الحر. فالممنوع التفكير فيه، والمستحيل التفكير فيه، حِمًى لا يقدر أحد أن يحوم حوله.

تُعْرَفُ درجة تحجّرِك وتخلفِك الفكريِّ وإرهابيتك الفكرية بحجم كُتلة الممنوع التفكير فيه التي تفرضها، وباتساع مساحة المستحيل التفكير فيه.

لـو فتحـت ذراعيـك لتعانـق الأفكار الحـرة بـدون تحفظ، ولو دخلـتَ في معقوليّـةِ أن لا حقيقة هنـاك مطلقةً، وأنّ الآراءَ نسـبية -مـن جملـة الآراء قولـك إن الله خلقنـا، ويبعثنـا بعـد الموت- إذا لكنـتَ الـبَريءَ مـن التشـنج العصبـي الـذي يسـتعمل كلـماتٍ لا تُعْـرف في ديـن الديمقراطيـة مثـل: توبـة، قربـة، معصيـة، آخـرة، رب، رسـول، ملَك.

لَو غَمَسْتَ قلمك في مدادٍ ديمقراطي، وغرَفت من قاموس اللسان الديمقراطي، واستعملت المصطلحات الديمقراطية، لكان لنا معك حِوار ولقاءُ جِوارٍ. وإذاً لانفتحت على التطور البشري، ولتعلمتَ بالاحتكاكِ والمعاشرةِ الأنيسةِ أن الديمقراطية هي الطريق الوحيد للتعايش السلمي بين المواطنين.

اطرَحْ سلاحَك الذي يصنف الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق.

لنكف عن المهاترات. فالشكل غيرُ الشكل، والشاكلة تعمل على شاكلتها، وللشورى سياق، وللديمقراطية مساق. ولكل منطقه في سماءِ الفكر، ولكلٍّ سعيُه في الدنيا على الأرض، وجزاؤه في الأرض وفي دار القرار.

ونسأل الله الهداية لأبناء المسلمين وبنات المسلمين.

ولا وزْن عند الله والناس إلا لكلمةٍ تقترحُ معروفا من الدين وتنكر منكرا في الدين.

ما الرابطة الجامعة؟

فماذا يقترح الإسلام لجمع الشمل، وإدماج المتفرق، ولَمِّ شَعَثِ الغثاءِ؟

ما هو الرباط الإسلامي الإيماني المفقود والمطلوب؟ المطلوب لرأْب الصدع بين إسلام موروث عتيق وإسلام متجدد، بين شباب أَيِسَ من العبثية الحياتية، واكتوى برمْضاء البِطالة، واهتدى بدعوة الإسلام، وبين جماعة المحظوظين ممن لهم رصيدٌ وممن لا رصيد لهم.

ما الرابطة لردم الهوّة في الفكر والعمل والسياسة والوجود الاستراتيجي على الخارطة بين حداثةٍ ما هي؟ وبين أصالةٍ يحمل كلٌّ لافِتَتَها على شاكلته، أو يطرحها مع الشيء البالي المتجاوَز؟

الرابطة الشريعة الإسلامية. عندما ينادي المؤمنون بتطبيق الشريعة يسبق إلى الأذهان الحدود الشرعية الصارمة من قطع يد السارق وجلد الزنَاة والقاذفين، والتعزير البدني.

إن الحدود الشرعية سياج يحمي الشريعة من أن تنتهك حُرمتها، ويعاقب العاتين. لا يشكل قانون العقوبات الإسلامية إلا حمايَةً لعالم متكامل، لجسم حيٍّ لا يستمِدّ حياتَه من النّفْيِ والسلب والمنع، بل من إيجابيات تبني، وتوطّد، وتعطي.

تغطي الشريعة كل مجالات الحياة وجزئيات التعايش بين المسلمين. ولسلاستها ومرونتها واكتمالها، بل لـمَصدرِها الإلهي قبل كل اعتبار، فهي لا تُكوّنُ طَوْقَ استعبادٍ، ووسيلة زَجر، بل هي طَوْق نجاة لمبْحرين في لُجَج الحياة الدنيا، تهديهم إلى ساحل السعادة الأبدية.

نعْلَم أن الإنسان مطيع لله، مستجيب له، من حِرصه على تطبيق أوامر الله التي تفصلها شريعة الله حرصَهُ على نَجاته الأخروية كما يحرصُ مُصارعُ الموتِ وسَط البحر الهائج على طوق نجاته.

ونعلم أن مجتمعاً ما مجتمعٌ مطيعٌ لله، مستجيب له، من سَهَرِ أفراده، وسهَرِ مؤسساته، وسهَر كل راع في رعيته، على أن تسودَ الشريعة وقانونُها الباني الـمُعطي الجامع المانع.

لجماعة المسلمين معيار واحد هو شريعة الله، كما للمجتمع المدني معيار واحد هو الديمقراطية اللبرالية.

سؤال يطرحه بعض المسلمين في عصرنا على بعضهم. هل يمكن أن تتعايش الديمقراطية والشريعة؟ بعبارة تُسايِر ما مهّدنا له في الفصلين السابقين من هذا الكتاب: هل تجمعنا الديمقراطية، أو يجمعنا الإسلام؟ هل يمكن أن يحصل في الأمة اندماج اجتماعي، كما هي مندمجةٌ المجتمعات الغربية الديمقراطية، بديمقراطية على لَوْنِنا نقتبسها ونُطوِّعها ونمَدِّنها بخصوصيات مدَنيتنا. أم نحَدِّثُ الإسلام بحداثةٍ هي الديمقراطية، بحداثة لبها الديمقراطية، وروحها الديمقراطية؟

أتجمعنا وتدمجنا حداثة أم إسلام؟

هل الحداثة نقيض الإسلام؟

هذه الأسئلة وأمثالها تروج على صعيد الفكر، يسبِقها في الواقع هجومٌ حَدَاثِيٌّ على الإسلام وشريعته.

لعل السُّؤالَ الصحيحَ الذي يلخصُ الأسئلة الـمُلحةَ المتخلفة عن الواقع هو: هل تختارُ الأمة، يوم تكون لها حرية الاختيار والوعي الواضح بطرفي الاختيار، أن تعيش بنصف إسلام ونصفِ ديمقراطية. هل تختار الأمة أن نستعير نظام الحكم من الديمقراطية ونكون

مسلمين فيما عدا ذلك؟ أي أن نكون مسلمين لاييكيين بالاختيار، كما نحن مسلمون لاييكيون بحكم الواقع.

ماذا يبقى من الإسلام إن وضعت شريعة الإسلام تحت نَظر حكمٍ أجنبي عن الإسلام؟ وتحت مِعيار أجنبي عن معيار الشريعة؟

جسمٌ مريض بالشلَل النصفيِّ أيُّ حياة له؟

أو نخادع أنفسنا. ونكون من «المتحضرين» القابلين للحوار، المحترمين لرأي الآخَر، رأيك أن الله موجود ورأيي أن الله خرافةٌ أو، وإن كان ولا بُدَّ، فالله خبز وحُريّةٌ.

ما مثَل الهُراءِ الحِواريِّ الذي يتعاقب فيه على المنصة أنصار الحداثة وأنصار الإسلام، ويبحثون عن مَزْجَةٍ مقبولة من الطرفين، إلا كمتَطبِّبٍ يجهل أصولَ المِهنة، ويجهل مقابض المرض ونوابضَه، ومَرابضه وعوارضه، ويصرُّ على حقن المريض وجرحه وفتح بطنه، لا عليه إن مات المريض.

إننا إما أن نكون مسلمين خُلّصاً تجمعنا شريعة الله، وإمَّا أن نبقى غُثاءً منقادا للحكم المستبد -وهذا لا يقبله حر- وإما أن نتدَقرط دقرطة خالصةً فنُريحَ ونستريح.

لا يمنع المسلمين الخلَّصَ مانعٌ من اقتباسِ آلياتٍ وحِكمَة وترتيباتٍ وإدارة وأشكال مؤسساتية من الديمقراطية المتطورة. نفعل ذلك ونحنُ ذاتُنا وروحُنا وعقلنا منا لا من غيرنا.

نفعل ذلك بعين ناقدةٍ تستفيد من كتاب الله المبسوط في الكون لكل قارئ آياتِ الله، وبلاءَ الله العبادَ، وسنةَ الله في العباد.

لا نكون البُلْهَ في حلْقَةِ التهريج فنرضى -كما قال مُفكر إفريقي- أن يكون مستقبلُنا هو ماضي غيرنا. يُخلّفونَ وراءَهم فكرا وترتيبا

لأنهم سعَوا إلى أفضلَ منه، ونجيءُ نحنُ كلُقَطاءَ في مجاهل التاريخ البشري نتقمَّمُ البواقِيَ من النّفايات الفكرية المذهبية، كما يفعل أبطالٌ مناضلون لا يزالون يهتفون بهتاف ماركس ولينين.

وغداً تخرج الديمقراطية الغربية من مخاضها التوحيدي في أوربا بأفكار جديدة تلائم مرحلتهم الجديدة، وطموحاتِهم القومية المتنافرةَ طبعا وتاريخا، المتآلفَةَ المتكتلةَ المتحفزَةَ لمناجزة تحدّيات عملاقةٍ.

أيتعلم الناس من ماضيهم وحاضرهم وحسابات مستقبلهم ونركد نَحن في ركن التلميذ البليد عاقبوهُ فاستكان، وزجروهُ فانزجر، ودربوه فقلَّدَ؟

هذا حظ العقل المعاشي، على مستوى هَمِّ البقاء في مُعتَرَك الحضارات.

ارفعْ رأسك!

السؤال على مستوى الأمةِ حاملةِ الرسالةِ، الأمينةِ على النبإ العظيم، الـمُسْتَحفَظَةِ على كلمةٍ تُبَلغُها الإنسانَ هو: من يَقول للإنسان - لإنساننا أولا ثم لغيرنا: ارفع رأسَك! ما أنتَ قردٌ سليل قردة! ما أنت دودَةٌ أرضية نهايتُها حفرةٌ قذرة! ما أنت عُلبةُ غِذاءٍ، وجهازُ هضم، وآلة لذة! أنت مخلوق! أنت ميتٌ ثم مبعوث! أنت صائر إلى جَنة أو نار في دار القرار!

أنتَ كائن فريدٌ جاءهُ من ربه رسول ورسالة.

كلمة لا نجرُؤ على قولها، ولا نؤتمن على تبليغها، ولا نبلغها إن فعلنا إلا مُشوَّهَةً مُزوَّرةً. أولُ مظاهر زورها ما نلفِّقُه من فكر الآخرين، وما نمضغُه من فتات الآخرين كما يفعل الوَغْدُ اللئيم ساقط الهمة.

ولا نؤتمَن على كلمة الله إن تزيّنّا بهُوَيّةٍ إسلامية فلبسنا لحية وخِمارا ونقرناها صلاة الغافلين. لا نؤتمن على كلمة الله إن تزيّنا في المحافِل بزينة أبّهة «إسلامية» وشيدنا أجمل المساجد وأفخمها.

يقول الناس: مسلمون! ونُبعث إلى سقَرَ! أعاذنا الله.

كل هذا الحديث عن الأصالة والمعاصرة، المتخلفِ عن واقع يركضُ ركضا سريعا إلى أحضان معاصَرة لا تروج في سوقِها الأصالات إلا فلكلوراتٍ في أفلام هوليوود، لا يُقربنا من جوهريتنا الإسلامية، بل يبعدنا أو يضبِّب المنظر من خلفنا ومن أمامنا.

يضبب من خلفنا تاريخاً افتَتَن، فلا ندري على أي أساس نبني. على أمَويّة سيْفية منا من يتغنّى بأمجاد حضارتها دون أن يشير إلى مكان السيف فوق الرؤوس. حضارةً عظيمةً كانت حضارة المسلمين على عهد بني أمية. من عظمتها أن انتقاض عروة الحكم فيها لم يقض عليها.

بَقيت العُرا الأخرى ماسكة جامعةً. العُرَا الأخرى شريعة، بعض الشريعة. الوعي بهذا غائب عند بعضنا.

أم نبني على قواعد النبوة والخلافة الراشدة، ونحن لا وُضُوحَ عندنا. وَإذْ لا وُضُوحَ، فالعشواءُ لا تسافِر قاصدةً، إنما تخبِط وتدور.

كثُر القائل، فاحتار العاقل. نترك الحيرَة لغيرنا ممن يقيمون بينهم وبين كلام الله وحديثِ رسول الله سدودا وركاما ونُقَطَ تفتيشٍ.

الشورى نظام استبداد!

كثُر القائل، واحتار، وتَمَطّى. ثم زعم أن الشورى نظام استبداد.

بل هي استبداد بلا نظام. لأنها من مكارم الأخلاق. للحاكم إن شاء أن يستشير ولا يستشير. له أن يستشير من شاء، إن شاء، متى شاء، ويأخذ أو يترك. وهذا عين الاستبداد.

العَصَى المستقيمة، بلْ تكون معيار الاستقامة، تَغطسها في مائك فتراها مُعْوَجَّةً. الاعوجاج في مائك وعينك. الاعوجاج في عَكْس مَائِك على عينك أشعةً مستقيمةً لِعَصىً مستقيمة.

أخلاطٌ وأمشاج في أدمغة بعض مثقفينا، كما كان يُعبر حكماء اليونان الأطباء. فدمَوي، وبلغمي، وصفراوي، وسوداوي. طبائع مَرْضَى الجسوم: يَطغَى البلغم على البدَن ويكيفُه برطوبات ولزوجات، وتُيَبّسهُ السوداء، وتُبَلّدُه الصفراء، ويهيجه الدم.

أدمغة متشاكسةٌ فيها الطبائعُ والأمزجةُ والأخلاطُ، تقرأ التاريخ الإسلامي باشمئزاز المناضِل المتحيز، وتُقَنّعُ الانحياز بموضوعية مَضغ الكلام، وتقترحُ أن نُلقي خلف ظهورنا الشورى/ الاستبداد لنعانِق الديمقراطية/ الحرية المقدسة.

تقترح أن نحقن في شرايين الأمة دماءً تنعش مريضنا، وما ثَمَّ إلا دماء الديمقراطية. وتخنُق البلاغم الفكرية القائل، فتمنعه أن يصرِّح بما يعرفه حقا ويجحده عنادا، وهو أن لا ديمقراطية حقيقية إلا لاييكية بمعنى ما من معاني اللاييكية. أصفاها جوهرا لاييكية لادينية مناضلة مقاتلة للدين مثل لاييكية مصطفى كمال وبورقيبة.

بعدَ أن أطلنا في الصفحات الماضية القولَ عن مُواءمَةِ الديمقراطية -وهي شريعة طبيعية- للإنسان الطبيعي، وعن مواءمةِ الشورى -وهي شريعة إلهية- لمن يؤمنون بالله واليوم الآخر، نلقي نظرة لنرى هل كان أسلوب تطبيق الشورى على عهد الخلفاء الراشدين مذهبا استبداديا ظالماً.

كنا نبحث على مستوى المبادِئِ والصلاحية النفسية، فننزل إلى مستوى التاريخ والواقع والرجال، إلى مُستوى أخلاق

رجال بأعيانهم، إلى مُستوى وعي مجتمع بعيْنه في زمانه ومكانه بمسؤولياته الإيمانية الخلقية أمام الله، ومسؤولياتِه الحقوقية بين الناس، وواجباتِه يؤدِّيها أمانةً يسألُه عنها التآمر العام بالمعروف، والتناهي العامُّ عن المنكر، ويسأله عنها ربه يوم الحساب.

إن ركّبت على عينيك نظارتي سوء الظن، وسبق إلى فكرك المتنوّرِ بفلسفة الشك المبدئي العلمي وكنت مثقفا أسيراً لموقعك السياسي لا تجد مخرجا من ربقة ماضيك وحاضرك وسمعتك، وتربيتَ على عقيدة أنّ الإسلاميين ظلاميون، فما يمكنك أن تقرأ في تاريخ المسلمين، وشورى الخلفاء الراشدين، وفي تاريخ الديمقراطية عقيدتِك الراسخة، غيرَ ما ركّبْتَ وسبّقت!

كثُر القائل «المجتهد» في الدين، المفتي في الدين، بخلفية ومُصطلحٍ ولُغَةٍ هي مُفردةً غموض، وهي مجموعةً ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها. فكيف يرى اللطائفَ من وَرَع أبي بكر، وخشية عمر، وطهارة عثمان، ووِلاية علي!

وكيف يرى غير صورةِ ما في نفسه وعقله ونياته إن قرأ عن صدقِ الصحابة، وشجاعةِ الصحابة، ويقينِ الصحابة، ووقوفِ الصحابة معَ الحق بالحق! رضي الله عن الصحابة، وعمّن يحب الصحابة، ويوقر الصحابة.

ضع بينك وبين التاريخ الراشدي مكتسباتِك الفكريّة، وتصوراتِك المنهجيّة، ونماذجَك المعتقدَة المقلّدَة -ومنها نظام الدولة الحديثة، ومؤسسات الدولة الحديثة، ومهمات الدولة الحديثة- فماذا ترى؟

ترى جِمالا وأحمالاً، وصلاةً وخياما، وعقْلاً بدائيا، وشورى هي عين الاستبداد، بل قانون الاستبداد.

وتُسعفُك «أمانتك العلمية» وتسعفك آلياتُك المنهجية المقارِنَة بين عقل وعقل، تنظر إليها جميعا من علياءِ اطِّلاعِك المناضِلِ، فتؤوِّل ما وقع في سقيفة بني ساعدة، وما خطب به أبو بكر حين دعا الناسَ أن يقوموه بسيوفهم إن رأوا منه اعوجاجا، وما أُجيبَ به، وما قال عمر وما قيل له، وما عانى عثمان، وما ساس علي. رضي الله عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعمن يحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليا.

لا نتْرُكْ سطْحية الفكر تصورُ لنا الدولةَ الإسلاميَّة على عهد الخلفاء الراشدين كأنها قلعةٌ مشيدةُ الأبراج، مغلقةُ الأبوابِ، متفرعةُ السراديبِ، مُحصّنَةٌ متطاولَةُ البنيان.

الدولة الحديثة أشبه شيء بالقلعةِ المركزيَّة، وبمقَرِّ القيادة، فيها غرفة عمليات تمتد منها أذرعٌ إداريّة أخطبوطية، ومنها وإليها تصدر أوامِرُ وترد معلوماتٌ، وحولها وتحتها مؤسسات ذات اختصاصاتٍ وصلاحياتٍ، وفي خدمتها أجهزة اتصالات واستخبارات ووزارات. وتكتظُّ الدولة الحديثة بمسؤولياتها فتسعى لحَدَاثة تُسمَّى اللامركزية وتُسمَّى التهويةَ الإداريّة أو توزيعَ السلطة ومراكز القرارِ على الأقاليم قريبا من المواطنين.

نظامُ سلطةٍ معقدٌ لمجتمعاتٍ معقدةِ التركيب. نظام إدارة لا تنتهي تفرعاته لخدمة مجتمعات لا تنتهي حاجاتها. نظام قضاء لَجَاجِيٍّ له مِسطراتٌ متأنيّة وملفات وإضبارات وخبراء ومحامُون وقضايا يكتسي التافهُ منها أهميةً إعلامية سيَاسيَّة فإذا هو حديث الناس ومشغلة الوقت.

نظام استشاريّ برلماني من مجلس أو مجلسين لتداول وتقَاوُلٍ ومُجابهاتٍ ومشاتَمَاتٍ. البرلمان الأكثرُ ديمقراطية هو ذاك الذي يسمح للخصوماتِ بين حكومة ومعارضة، وللمعاركات بالأيدي

والمقاعد، أن تُعرض على الجمهور ليطمئن كلٌّ أن هناك حريّةً، وأن النائبَ الشجاعَ ما قصّر في جَرِّ الوزير بتلابيبِ سمعتِه وقصورِه وفضيحته الأخلاقية.

إذا طغت الصورةُ المعقدة على خيالنا وأسقطناها على شورى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وحاكمنا صورة الشورى على ذلك العهد المبارك إلى صورتِها الحالية، فقد ارتكبنا شَططاً في التقدير، أو نَفَثَتْ النياتُ السيئات نُفاثاتِها في ضمائرنا.

كانت حياة المسلمين في العهد المبارَك هي البساطة بعينها وكانت حاجيات الناس يقضيها الناس بأنفسهم. وكان اللَّجاجُ في الخصومة مسْتَقْذرا. وكان القاضي نزيها والشهود يخافون من كبيرة الكبائر: شهادة الزور.

اقتصادٌ فلاحي رعويٌّ بسيطٌ، لم يكن أحد بحاجة إلى خبراءِ الدولة ليساعدوهُ بتوجيه.

بداوَةٌ غالبةٌ المعتَمَدُ فيها إن نزلَتْ نازلة أو أصيب مريض أو مات جار على شهامة المسلمين وتكافلهم.

القاضي كان عاطِلا لأن الناس يتراضون فيما بينهم ويَتصالحون طلبا لرضى الله. القاضي كان قريباً معروفاً مشهوداً بعدالته.

لم تكن أنانيةُ الفرد وكزازةُ نفسِه وعدوانيتُه وظلمهُ تفرض جهازا من جهاز استخبارات.

كان المسلمون كلُّهم جُنداً معبّأً متطوِّعاً، ينفر الناس إذا استُنْفِروا.

كانت قِسمة الأعطيات من الفيء أهمَّ مَا تضطلع به الدولةُ. كان خازنُ بيت المال الموظَّفَ المتخصصَ من بين موظفين أكثرهم متطوعون.

إن كان وُلاة بعض الأقاليم تشكلوا بشكل المجتمع المحلي وتَلَوَّنوا، فالهيْئة البسيطةُ لرئيس الدولة تأتي لتفرِض السَّمتَ الإسلاميَّ الـمُسَوِّيَ في المعاش بين الناس. عمرُ رضي الله عنه يأتي راكبا جملَه ليُعَاهِد قساوسة القدس، معه أصحابُه لا يتميز عنهم في لباس، ولا تتبعه حاشية، ولا تُرفعُ أمامه غاشية.

كتب التاريخ حافلة بالأمثلة لو كان من يُنصف ويَقرأ.

ثم إنّ رئيس الدولة الخليفة كان عالما مجتهدا متقيا لله مطيعا له حارثاً لآخرته. كان رَبَّتْهُ اليدُ النبوية ونزل الوحي وهو مشارك.

تقواه وطاعته لله وما تلَقّى من تربية وما تَعلّم من المعلِّم الرسولِ جعلت عِلـمَهُ عَمَلاً، يعمل بما يعلَم، يحرص على العلم ليعمل. كان أهمَّ ما يتداولُ فيه مع مستشاريه تصحيحُ حديث أو سابقةِ حُكْمٍ قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الشورى والآليات الديمقراطية

إن لم تتخذ الشورى شكلا مؤسَّسيا فلبساطة الحياة وعِفة الناس وتقوى الناس. ثم لأن المسلمين -قبل أن يُذِلّهُم سيف بني أمية ويُحنِي منهم رِقابا لم يقطُفْها ابن زياد والحجاجُ- ما كانوا ليسكتوا عن حيْف واستبداد.

وخلاصَةُ المسألةِ أن الله عز وجل ما تعبّدنا بشكل من أشكال الشورى، ولا ألزمنا بتشكيل حياتنا لتطابق حياةَ جيلٍ غير جيلنا. بل أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالأسُس الأخلاقية الإيمانية التي لا تكون الشورى شورى إلا باكتمالها في المتشاورين. وترك الشكلَ والتنظيم لفطنتنَا واجتهادنا ومُكتسباتِ تعَلّمنا من حكمة الحكماء العقلاء كانوا من كانوا.

وبعدُ، فهل في التنظيمات الديمقراطية ومؤسسات الدولة الحديثة ما نتعلم منه، ونتبناه أو نطوّره؟ نعم بالتأكيد. وما يحقق أهداف الشورى من شكلٍ وإدارة دون أن ينزل بها عن مستوى سِياقها فهو لها درس. وقد بسطنا القول فيما نجتمع فيه ونفترق مع الديمقراطية ونظامها ومبادئها وأهدافها.

إن كثافة المشاكل، وثِقْلَ الأعباء التي تُقِلّها الدولة الحديثة، وتناقشها البرلمانات الحديثة، وتنفذها الحكومات الحديثة لا تَمُتُّ بصِلة للشفافية التي تعامل بها الخلفاء الراشدون مع مشاكل عصرهم، ولا يُقارَن الشعور العظيم بالمسؤولية لدى الخلفاء الراشدين بالنكوص العظيم عن المسؤوليات الأخلاقية لدى الرؤساء الحديثين. وإن عِلْمَ المسلمين على ذلك العهد المبارَك -عِلْمَ قادة المسلمين من كبار الصحابة رضي الله عنهم- وصلابَةَ قناتهم في الحق، واستقامةَ ضمائرهم، ويقَظَتهم أن لا تمُرَّ فعلة منكَرَة أو كلِمةٌ ظالمة دون أن يشُنّوا عليها حربا، جعل المناقشةَ والمشاورة والاهتمام الدائم بأمور المسلمين قضية كلّ المؤمنين في حضرة الخلافة.

منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه كبار الصحابة من مغادرة المدينة مدة خلافته، فحافظت المدينةُ على صبْغتِها وشفافيتها كما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان المناخُ العامّ، وسذاجةُ العيش، وقرب

الخليفة من الناسِ واحداً منْهم لا يتميز، بمثابة مجلس دائم للشورى. شارك في الشورى كل كبار الصحابة بصفةٍ دورية، كلٌّ يُطلَب إليه الرأي والاجتهاد فيما هو أدرى به.

كبار الصحابة رضي الله عنهم، الحاضرون الناظرون المشاركون، رَأوا أن ما يفعلُه الخلفاء الراشدون من تدبير أمر الشورى يطابق ما جاء به القرآن وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ما أنكر منهم منكر. ويجيء مفكر مغرب ليطعنَ في شورى الخلافة الراشدة بعد أربعة عشر قرنا من الزمن، وأربعين سنة ضوئية من ابتعاد المفكرين -هُوِيّاً مُضِيّاً ولا يرجعون- عن علم الصحابة وإيمان الصحابة وصدق الصحابة.

على شكل الدولة من السذاجة والبساطة والعفوية كانت الشورى. الخليفة عمر بدرَّتِه يقوم بوظيفة المحتسِب في السوق، وبوظيفة العَسس، يأخذ معه رجلا ليَعُسَّا في الليل.

يقول المفكرون من هُوَاةِ الاستخفاف بما عظمه الله ورسوله: إن تصوير العهد الراشدي بالألوان المضيئةِ ثم الإشارة بها هو الـمُضِيّ في التأريخ الأسطوري الذي ينصِب مثالياتٍ تداعب المخيالَ الشعبي، وتُحرِّضُ، وتهيج، وتُمَني. ولا علاقة لها بالتاريخ الواقعي.

دخلنا في جدَلٍ منذ هذه الصفحات، وجِدال العقلاءِ أُمِرْنَا أن نتبع فيه التي هي أحسن. أما المتجَهّمُون لدينهم فمذهبنا معهم الكلمة البليغة التي أمر الله أن نقولها لمن يعلَمُ الله ما في قلوبهم، وتبدو لنا مِن ترهاتهم وتغْرِيداتِهم الحبيسة في حظيرة ثقافة هاوية ماضية نبرات السخرية مما نحْنُ نعظّمُ، واللمز في أعراض نحن نجلّ أصحابها. ومذهبنا معهم مذهب علمائنا القدماء: فإن قُلْتَ قلنا. كانوا رحمهم

الله يجَرِّدون محاورا مخالفا. أما في عصرنا فالمحاور المخالف رجل من لحم ودمٍ، رجل ورجال وامرأة ونساء، يتساءلون عن هؤلاء الملتحين والمحجبات من أين هبطوا؟

نعم! ما كان الصحابة رضيَ الله عنهم، وما كانت خلافتهم الراشدة، وما كانت شوراهم تلك البسيطةُ العفويةُ في شكلها العالمةُ التقيةُ المراقبة للحفيظ العليم سبحانه، إلا بشرا يخطئون ويصيبون. وأفضل الخطائين التوابون.

مثالية، ذلَّ من لا مثالية له من ذاته!

لكن أجيالا مِثلَ التي نعيشُها اختلطت فيها الأمشاجُ، ونعقَ فيها كل غراب بوَقْوَقَةِ سربه، يُرْجع صَدَى النعيق المبثوث من بَرِّ غير بَرِّنا، بحاجة إلى تَجْليَةِ مثالية ناصعةِ التميُّزِ لتسقط على ظلام الكفر ودُخان النفاق وظِلالِ الشك أنوار كاشفة، وليخترق شعاع المثالية النبوية الراشدية ضبابَ الترجمةِ المحبوكةِ المضلِّلَةِ لتاريخ مضى. ضَباباً يعتِّمُ على أجيالنا المباركةِ الراجعةِ إلى الله، التائبة إليه مع التائبين طريق المستقبلِ.

المستقبل إسلامٌ وشورى، إن استنكفَ بعضُهم عن الجلوس على مائدةِ الإسلامِ فلينتظر يوماً يضِجّ الناس فيه من نعيق الغربنة ويعافونه.

مثاليةٌ؟ نعم! ومَنْ لا مثالية له من ذات تاريخه وذات دينه يتعلق بأساطير يصنعها له هُيامُه أمْسِ بالثورة الاشتراكية، وهُيامُه اليوْمَ -على نضالٍ مستمرّ أو على نضالية مستأنَفَةٍ- بالديمقراطية مفتاح السعادة والتنميَّة والحرية و و.

وفي سياق آخرَ غير سياق «فإن قلت قلنا» نجلِس لنقارن أنفسنا بالصحابة رضي الله عنهم مقارنةَ الصبيِّ بأبيه وأمه، والطالبِ بأستاذه. وحينئذٍ تلد لنا عنايةُ الله الشامِلةُ عبرَةً من أخطاء الصحابة رضي الله عنهم حتى لا نيْأسَ من قَزَامتنا أمام قامَتِهم، ومن نقصنا أمام كمالهم.

مثاليةٌ هي أيضاً أخطاؤهُم. الهفوة الصغيرة تؤرقهم. التوبة إلى الله دائمةٌ في قلوبهم نَدَماً، وعلى لسانهم اعترافاً واستغفاراً لمن يغفر الذنوب جميعا. رضي الله عنهم ورضوا عنه. فيَا حسرةً على العباد! يزورون هذه الحياة زورةً بليدَةً كأنهم في إجازةِ صيْفٍ، لا يعلمون أن الدنيا قاعةُ امتحان. بعد الامتحان قرار في جنة أو نار.

كانت شورى وكان سياقٌ. السياق نظراً ومبدأً تتابُع الخصال الإيمانِيَّةِ الخلقية واقتضاءُ بعضِها بعضاً وأخذُ بعضها برِقاب بعض. والسِّيَاق مشاركةٌ. والسِّيَاق الـمَهْر في لغةِ العرب.

شورى الصحابة كانت سياقاً، كان العاملون بها حكاما ومحكومين، مستشيرين ومستشارين، داخل السياق لا خارجَه.

كانوا أعطوا الـمَهْر والبرهان على صدقهم وخلوص نياتهم بجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الجهادَ الذي رَبَّى ورَشَّدَ.

نعطي الشكل، وضرورةَ التنظيم في زمن معقّد، وضرورةَ الشفافيَّة المسؤولةِ في زمَن كثيف، كلَّ ما تستَحق من أهميّة. فإن لم نفعل كانت شورانا تقليدا أعمى لرجالٍ فكروا لزمانهم وتعاملوا مع مجتمعهم بذكاء وفقه وعِلم وتعَلُّم.

ذلك تقليد أعمى، وقدْ يقودُ الأعْمَى محُسِن يقيه المهالك.

أما تقليدُ غيرنَا، خروجا عن سياق الإيمان بالله واليوم الآخر، فهو انسياقٌ إراديٌّ إلى الهاوية.

الأحلام الفَجَّةُ التي تراودُ بعض الغُرباءِ عن العصر من المتزهدين، وتحسِبُ أن الوفاءَ لسلفنا الصالح يتمثل في الوقوف حيث وقفوا واستنساخ ما قالوا وفعلوا استنساخا حرفيا.

عطَبٌ في عقل الرأس، وعجْزٌ عن فقه مقاصد الشريعة، وكسَل وجمود. عطَبٌ يُهمّشُك عن القافلة، لا يُرْديك في الهاوية.

أما الأحلامُ الرديئةُ الـمُلاحقةُ لأساطير غيرنا، فهي ناتجة عن عطَبٍ قاتلٍ، عن عطَبٍ في القلب. قال الله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1].

نهج إسلامي للديمقراطية

المتطَبِّبُونَ ممن وضعوا على عيون رؤوسهم وعقولها غماضات الوَلاء لثقافة براقة وتاريخ هو المعيارُ ومنبَعُ الحكمة، وممن ختم الله على قلوبهم بِغِشاوَةٍ تُحِيل النور ظلاما والشورى استبدادا، يقترحون على المسلمين أن يَحقنوا في أوْرِدتِهم دِماءً مستوردة.

لو اقترح الحُقنَةَ رجال ونساء من داخل سياق الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن موكب المسارعين المستجيبين لله لكنا نتوقف لتأمل المقترح.

(1) سورة الحج، الآية: 46.

لو أتانا المقترح من رجالٍ ونساءٍ أعطَوْا مهْرَ الصدق وبرهان الإخلاص لكان لنا معهم نظر.

من خِيارِ المسلمين المثقفين من يقترح «نهجا إسلاميا للديمقراطية»، ومنهم من يظن أن الديمقراطية هي الوجه الصبيح للشورى.

مَن لا نشك في صدق نيته لنا معه حوار. وَلنا معه لقاءٌ محَقَّقٌ، إن كان في اللغة التي نعبر بها ويُعبِّر اختلاف، فهو اختلاف تعبير لا اختلاف جوهر.

لَيسَ سواءً مَن يريد حقن الدماء الديمقراطية إقحاما وإكراها أو تسْرِيباً ومطاوَلةً كمن يبحث عن «نهج إسلامي للديمقراطية».

جسم الأمة مريض، دماؤه خليط من موروث متخثِّرٍ وحديثٍ سارِبٍ. فقدت دماؤنا الإيمانية القلبية العقلية المسلمة توازناتِها الأصلِيَّةَ كما يفقد الدم في جسم اللحم والدم توازناته المعدنية والمائية والإنزيمية والهرمونية والكيميائية. فقدت دماؤنا الإيمانية القلبية العقلية كثيرا من العناصر المغذِّيَة التي كانت تزودها بها تربية الأسرة، وصف الصلاة في المسجد، ومجالس العلم والإيمان.

بقيت تجري في دماء بعضنا خيوطُ حياة بضغط منخفضٍ. واكتسحت دماءَ آخرين من بَني جلدتنا طفَيْليَّات وجراثيم مرضية لا تلقى من يصُدُّ عدوانها، وقد عقّمت التربية الفرنكفونية اللادينية خلايا المنعَة. وفي بعض المغربين جفّت تماما منابع الإسلام وتيبّستْ.

هذه النفوس المكتسحة والعقول الميَبّسة طرأت فيها قطيعة نهائية مع جذور فطرةِ مولِدها، فهي بيننا طلائع الدعوة لدَقرطة المسلمين.

تورِد دماءً من مجموعة «أ» على جسم دماؤه من فئة «ب»، فماذا يحدث؟ تحدث فوضى وثورة على الدخيل، ونبذٌ عنيف، وموت محقق.

المتطبّبُ الـمُيَبّس والمكسوحُ فاقدُ المنعة يتنبّئان للمريض بالعافية. والطبيبُ الخبيرُ بطبائع الفئات الدموية يبحث عن نهج إسلامي للحكم هو الشورى، بروح الشورى، في سياق الشورى.

العافية لا تأتينا إلا من نظام حكم إسلامي، في سياق إسلامي، تضبطه الشريعة، وتضبِط العبارَة عنه لغة الشريعة.

لا بأس من المسلم الغيور أن يبحث عن نهج إسلامي للديمقراطية. ولا بأس أن يظن مسلم -وهو يبحث عن حقيقةٍ محجوزَةٍ- أن الديمقراطية هي الشورى حقاً.

لا مُشاحَّة في الألفاظ كما يقول فقهاؤنا.

لا مشاحّة في الألفاظ لو لم يتعلق الأمر بالوضوح والتوضيح.

ذلك المطلوبُ الأصيلُ، المحجوزُ المعَبّرُ عنه بألفاظ الوقت، يَخاف منه أعداؤُنا أشدّ الخوف. يتضاعف خوفهم كلما صفَت فينا الدماء المتخثّرَة الموروثة، وتأصّلَتْ من معين الفطرة ومعين الكتاب والسنة.

يقول أحد رجال هذا الشعب الذين تجري في عروقهم دماء إسلامية حارة: «فتخَوّف الغرب يأتي من أن تحدُث تغيّرات في أنظمةٍ مثل هذه في بلدان مسلمة بِتَشكُّل نهج إسلامي للديمقراطية».

ويقول: «إن المسؤولين السياسيين في الغرب يتكلمون عن الديمقراطية ويخشونها في نفس الوقت في بقية البلدان. لأنه إذا كانت هناك ديمقراطية حقيقية في بلدان العالم الثالث، فهي تمثل خطرا على مصالح الدول الغربية».

القائل هو الدكتور المهدي المنجرة رئيس الفدرالية الدولية للدراسات المستقبلية، والرئيس المؤسِّس للمنظمة المغربية لحقوق

الإنسان، المستقيلُ منها لأسباب تكشفها خصومتُه مع الديمقراطيين العابثين بالديمقراطية كما سنقرأ في الأسطر المقبلة. إن شاء الله.

يقول الخبير الدولي، المسلـمُ المتدفقة فيه دماء حرة حارة: «إن بعض مثقفينا في العالم الثالث، وهي أيضا قضية حضارية، أصبحوا يلعبون بكلمة الديمقراطية كنوع جديد من فاشِسْتِيَة المثقف والنخبة».

هذا رجل يريدها ديمقراطية نابعة من الشعب، وآخرون يحلُمُون أن يقودوا من مواقعهم الثقافية وغرورهم النخبوي ديمقراطية يفرضونها فرضا، ويحقِنون بها الأوردةَ المجتمعية طوعا وكَرها ولَعبا بالمصطلحات والكلمات.

رجل خبيرٌ بما يجري في العالم لأنه تقلّب منذ فجر الاستقلال في مناصب دبلوماسية، منها في الأمم المتحدة. خبير بما يجري من حوله لأنه شارك وأَسَّسَ وتجرع المرائر. فهو يعرف ما يقول. ومواقفه الشجاعة مَهْرٌ وسياق وبرهان على صدقه.

قال: «إن هناك نوعا من التحالف الضمني ما بين فئة قليلةٍ من المثقفين في العالم الثالث - وجزءٌ كبير منهم يعيشون في العواصم الأوربية بحياتهم الخاصة وأحياناً كمرتزقة. هذا التحالف أيضا يكذّبُ هذه الكومديا فيما يخص دفاعهم عن الديمقراطية وحقوق الإنسان».

مسلم صادق غيور يرجع إلى لِبَانٍ كان ارتضعها من أثداء الفطرة والمنبت ليجدد عهدا بأصول، مزوّداً بتجربةٍ عالميةٍ فريدةٍ، باحثاً عن لغة تَعبير، وعن نهج إسلامي صافٍ.

قال يرفُض المرجعيةَ اليهودية الصهيونية: «هناك نوع من فرض الهيمنة على مفاهيم حقوق الإنسان بمرجعية واحدة: وهي مرجعية

مَبنيَّةٌ ومنطلقةٌ من قِيم يهودية صهيونية، وليس من قِيَم إنسانية بمفهوم شمولي يخدُم الإنسانية جمعاء».

قال يربط الصحوة الإسلامية بجذورها: «الصحوة ليستْ وليدةَ اليوم. بل كانت هي أَهَمَّ عرقلَةٍ وجدها الاستعمار الأوربي أمامه في البلدان الإسلامية. ولولا هذا الوعي لقيم روح الإسلام آنذاك لتغيرت خرائط العالم كلها آنذاك. فالصحوة موجودة طبعا، والتخوف منها أصبح كبيرا».

عدونا يخافُ أن نتدقرط لأن الديمقراطية تضع أزمة الحكم في أيدي الشعب، فلا يجد العدُوُّ دكتاتوراً يستمِدّ شرعية بقائه في الحكم من قوة سنده الخارجي.

ويخاف خوفا كبيرا من الصحوة لأن استلام المسلمين أزمة الحكم وتسيير شؤونهم بأصالة واستقلال يفرغ يَدَه من محصولاتِ النفط وفوائدِ الاستغلال وعوائدِ البترودلار والحلفاءِ الاستراتيجيّين الآلات.

لفطانَة أخينا المهدي المنجرة واطلاعه القريب على ما هنالك خلف ستار الدبلوماسيات والرسميات الإعلامية، ولمعرفته بما يكرهُه عدوّنا لنا، اجتمعت في يده أدوات التحليل مكتملة. وتطابقت في ذهنه صورتان لما يكرهه عدونا لنا، وهو ما يعطينا قوة واستقلالا. الديمقراطية والصحوة.

كيف الجمع بينهما؟ كيف نكون صاحين متمسكين بديننا ديمقراطيين في نظام حكمنا؟

نفس الفطنة ونفس الاطلاع من زاوية أخرى وتجربة أخرى، يجعلان فضلاء مسلمين آخرين يجزِمُون جَزْما أن الديمقراطية هي الشورى في أبْهى حُلَلِها.

لاَ خوْف من أنْ يستحِيلَ حوارُنا مع الفضلاء المسلمين الفطناءِ الخبراءِ الصادقين إلى رَفضٍ متبادَلٍ. نرفُض نحن مَنْ أعلن عن مطالبته بحقه أن يكون مُلحدا، ويرفضون هم من سمّاهم «فُضلاء» يحسبونها صيحةً عليهم. وما كنا نقصدها إلا أدبا من آدابنا الإسلامية.

نستوردها زنيمةً

ثم لا خوف من اغترار الإخوةِ الصادقين بحاضِر الأنظمة الغربية ومستقبل الغطرسة الغربية والصَّلف الغربي.

يقول خبيرنا المنجرة: «فالأزمة الاقتصادية التي واجهها الغربُ لها علاقة بالقيم. لا يمكن لأي دولة في العالم أن تدخُل القرن 21 بمؤسسات اجتماعية وسياسية وقانونية ترجع إلى القرن 18 و19. حتى إن المواطنين أصبحوا لا يؤمنون بالمؤسسات السياسية الموجودة ومصداقيتها».

ويكثر الدكتور المنجرة من ترديد فاضِلٍ إفريقي هو الكاتب الفيلسوف من بُركِنا فاسو اسمه كِي زِرْبُو. يقول الفطن الإفريقي: «ينبغي أن لا يكون مُستقبلُنا هو ماضي غيرِنا».

وهي حكمةٌ لو كان المقلِّدة المستَنْبَتون يسمعون أو يعقلون.

فهذه الديمقراطية/ الكلمة المفتاح نتَجتْ من مخاض تاريخي في زمن مضى وانقضى، وفي ظروف تغيرت، وموازين قُوىً في العالم تَأرجَحت، ومناخٍ اجتماعي مرت عليه في أوربا الشرقية والغربية عواصف، ومرت عليه في الولايات المتحدة الأمريكية أزمات، وتعديلات.

ديمقراطية صلَح عليها معاش الغرب زمنا. وانكشفت معايبُها اليومَ أكثر مما انكشفت في أي عهد. وأصبح الناس لا يؤمنون بمؤسساتها، ولا يزاولون طقوسها ويحترمون قانونها إلا لأنه لا بديل لها إلا الفوضَى والعنف.

ديمقراطية زهدَ فيها أهلها لما تجني من فضائح وهي منهم وإليهم، أصيلةً تغذَّت بتربةٍ ومياه أصيلة.

ونستوردها نحن زنيمةً نقحمها على أهلينا. ونريد أن نتحدى بها أزمات الحاضر وتقلبات المستقبل!

كيف نتقدم إلى المستقبل بكيان مُمَزَّقٍ ونظام حكم زنيم يزيدنا تمزيقا. إذا لا ديمقراطية إلاَّ في دولة قومية-يرفضنا المستقبل!

وتتجاوز أوربا صِبغةَ أنظمتها السياسية، وتخطو نحو وحدتها، وتطوِّر ديمقراطيتها، وتليِّنها لتوافِق عصرا قادما لا مجال فيه للتصلّبات القومية، ولأنظمَة القرون الخَوالي.

ونلتقطها نحنُ كما يلتقط اليتيم المحروم لعبةً قضى منها ابن الغنِيِّ وطَرَهُ ونبذها!

ما نحن يتامى في هذه الأرض!

أستغفر الله العظيم من الحديث عن مستقبل يرفُض وأمةٍ يتيمة. أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين.

لكنها «فاشستية النخبة المثقفة» كما قال المهدي المنجرة. قال: «أصبحنا اليوم نسمع عن الديمقراطية كشيءٍ طويلٍ يستلزم بيداغُوجيا وتربية، ولا يُسمح للشعوب التي لم تصل إلى التعبير عن إرادتها. ريثما تصل إلى هذا المستوى، يَجِبُ على المثقفين أن يقوموا بالواجب، وأن يُوجّهوا السياسة داخل بلدانهم ريثما يلتحق شعبهم بهذه المسيرة».

لَعلّ الدكتور يعني أن المثقفين المغربين المقتنعين بالديمقراطية، أو أولئك المتحالفين ضمنيا مع الاستعمار، العائشين في العواصم الأوربية جسما أو روحا، المرتزقةَ أحيانا، يريدون أن يُتِمّوا شُغْلَتَهم التخريبية ليعلموا الشعب ويلقنوه ويبرمجوه ببداغوجيا مناسبة وتربية طويلة على اعتناق العقيدة الديمقراطية بديلاً عن عقيدته.

يقول الدكتور: «وهذا أكبر خطإٍ، لأن واقعَ ثوارت التحرير في العالم الثالث ضد الاستعمار جاءت كلها من الشعوب».

فإذاً الديمقراطية التي يتخذها المثقفون القِلّة القليلون آلة حفْرٍ لقَلع الجذور الشعبية ببيداغوجيا طويلة لا تسير في وِجهة التحرير.

هذه النقول عن الدكتور المنجرة استقيناها من جريدة «الراية»، غشت 1993، التي تنقل بتصرف استجوابا في جريدة «الخبر الجزائرية».

أقلية طافية عافية

لا بد إذاً من عملية غسيل مُخ لكي ينسلخ الشعب عن أصالته، ولا بد من بيداغوجيا طويلةٍ لكي تقبل الأرضية الشعبية المسلمة فِطرَةً نبتة أجنبية.

لا بد من تدريبِ آلتُه وأدواتُه التربويةُ يَمهَرُ في استعمالها المثقفون العضويون الكرامشيّون، وغيرهم من المناضلين المنقطعين. وقد اصطلح القوم على ديمقراطية تعددية على خجل بعد ذهاب الديمقراطية المركزية في الغابرين.

ما السبيل إلى القطيعة مع المسار المغَرِّب؟ متى وكيف؟ وهل مجرد ندائنا الشعبَ أن يعتَزّ بإسلامه يكفي ليتعبّأ الشعب ويشارك بإيمان

وثقة في بناء مستقبلٍ حر كريم رابطةُ وحدته تتجاوز الهيكلةَ المؤسساتية الديمقراطية القانونيةٍ، وتتجاوز ما يفرق الأمةَ ويُقَسِّمُها قِدَداً؟

ماذا يجمعنا؟ ما يُدمجنا؟ ما يوحدنا؟

إذا فهِم المثقفون الديمقراطيون المغَرَّبون ضرورة تربية الشعب لإقناعه بالمذهب الديمقراطي تربيةً طويلة، فلإدراكهم بُعد المسافةِ الفاصلةِ بينَ سذاجةِ جماهيرَ تنقاد كما انقاد آباؤها وأمهاتها تحت ظل السيف وبين الوعي المطلوبِ الصالحِ ليكون قاعدةَ حكم ديمقراطي بمشاركة ديمقراطية.

النخبة المغربة اللاييكية، المغترّةُ بكونها نخبةً وبكونها واعيةً بين مُتَبلدين، قلةٌ مناضلةٌ، من بيداغوجيتها الطويلةِ الالتفاف في تنظيمات مدَنية تحاول أن يمتدّ إشعاعها في المدائن والقُرى.

وتفشَلُ في محاولاتها الفوز بثقة الشعب، فتبقَى بنمط فكرها ونمط عَيشها، طافية عافيَة.

تتمثل مأساةُ المغربين السياسية في فشل بيداغوجيتهم الخجولةُ المرتبكة، فلا يلقَوْن آذانا صاغية إذا استصرخوا إلا من صنفٍ من الناس ما هم في أخلاقية معلمي الشعب، ولا في سَمْت معلمي الشعب.

ولا ممن يفهم الشعب لغتهم كما كان يفهم لغة الوطنيين الأولين رحمهم الله.

إن كان الشعبُ في سواده ومكنوز فطرته قريبا من فهم لُغة الإسلام، أقرَبَ إلى فهْمِ المعلم المسلم، فإن ضرورةَ التربيةِ قائمة. وضرورةُ الصبر الطويلِ مع الناس حتى تزول عن أفكارهم ونفوسهم غِشاوات الغموض والخوف التي ركّبتها على الأعين والعقول بيداغوجيا أخْرى لا تخجل ولا ترتبك.

منذ ثلاثة أيام من كتابتي هذه الأسطر، نودِي المنتخبون إلى استفتاء لتغيير بند تِقَني في الدستور. واصطُنِع صخَبٌ عظيمٌ حوْل الحَدَث «الديمقراطي» الجليل. من جملة الصّخَب أن عَرض التلفزيون رجالا ونساء يؤكدون أنهم صوتوا بنعم لمَّا دعاهم «سيدنا» لتحسين حالة الفلاحين وإنعاش المجتمع القروي.

مسألةُ تحويل مناقشة الميزانية من دورة البرلمان الخريفية إلى الدورة الربيعية أصبحت قضية تحسين أوضاعٍ يبَشِّرُ به الخاصُّ العامَّ.

يغضب الديمقراطيون النزهاءُ على مثل هذا التهريج. ويوطِّدون العزمَ على تربية طويلة.

وَنشكُرُ نحن النزهاء على غضبِهم، لولا أن بيداغوجيتهم إن سارت بنا خطوة نحو الوعي الحُرِّ فإنها تسير بنا خطوتين بعيداً عن المطلوب الشّوريِّ.

فتربيتُنا تقف على مفترق طريقين: طريقِ موروثٍ متعفن، وطريقِ واردٍ جديدٍ لا ينفُذُ إلى آذان الشعب ولا يُخاطِب شعوره ولا يُعبئه.

على مفتَرَق طريقين نِداءٌ. والمستجيبُ لنداء الشورى لا يُطْلَبُ إليه يومٌ ما أن يعيش تحت قوانين لاييكيةٍ قاهرةٍ بقانونيتها كما كان يعيش مقهورا تحت الحكم الجبري الذي لا رأي إلا رأيه، وما قاله هو الحق، وما قالَهُ هو القانون.

الوَلاية

نداءُ الشريعة إلى اجتماعٍ عضويٍّ، إلى مجتمع عضويٍّ، إلى مجتمع أخوِيٍّ، نظامهُ في الحكمِ الشورى، ونظامه في الإدماج والربطِ والتعاضد يسمى وَلايَةً.

الشريعة قرآن قال: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

قال علماء اللغة: «الوَلاء والتَّوالِي (قلت: ومنها الوَلاية) أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما. ويُستعارُ ذلك للقُرب من حيثُ المكانُ، ومن حيثُ النسبَةُ، ومن حيث الدينُ، ومن حيث الصداقة والنّصرة والاعتقاد. والوَلاية النُّصرَة». (الراغب الأصفهاني رحمه الله).

اجعل بالَكَ حفظك الله! «حصولا ليس بينهما ما ليس منهما». اللغة تنفي الدخيلَ، والقرآنُ الكريم يعطينا سياق الولاية وتساوُقها ووظيفتها وشروطها:

1- يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

2- ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.

3- ويطيعون الله ورسوله.

4- أولئك سيرحمهم الله. إن الله عزيز حكيم.

متجانسةٌ هي الوَلايةُ مع الشورى. يرجع سياق هذه وهذه إلى بُدٍّ واحِدٍ: إلى الاستجابة لله ورسوله. والصلاة جامعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة مؤكدة.

خيطٌ يربط الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر بالغاضبين على الاستبداد والتهريج واستغفال الناس، هو الانتصار على البغي، ذلك

(1) سورة التوبة، الآية: 71.

الانتصار المشترك بين الشورى والديمقراطية. فهل يصلُح هذا الخيط جِسْراً يَعبُرُ على متنه فريق إلى فريق؟

نتسامح نحن وننسى كل السياق المتكامل بين الشورى والوَلاية لنشُدَّ على عُرْوةٍ مشتركة؟ نترك مثلاً الصلاة والزكاة وطاعة الله ورسولِه ليُفْسح لنا المناضلون ذوو الرصيد الماجد مقعدا بجانبهم؟

أم نتوبُ وإيّاهم إلى الله تعالى خالقِنا وسيّدِنا، فنطيعَه ورسوله، ونستجيبَ له استجابةَ العبادِ الصالحين؟

ينبثق عن الشورى إمام مختار. سمِّهِ رئيسَ جمهورية منتَخباً، فلا حاجةَ بنا لَخَرْق العُرْفِ الدُّوَلِيِّ قبل أن يمكن الله عز وجل لنا في الأرض فتكون لغةُ القرآن هي لغة الإنسان.

ينبثق عن الشورى ولي أمر، رئيس، إمام.

والوَلاية محبة وصداقة وقربٌ ونصرة.

رئيس الجمهورية في الديمقراطيات لا يألو جهدا قبل انتخابه وبعده أن يُجَمِّلَ له الاختصاصيون الصورة، وأن يختاروا له اللباس ورباط الرقبة، وأن يوصوه بمشية معينة واستقامة للرأس مناسبة، ونَبْرة الصوت، وبعض ألوان المكياج.

تحبّبٌ مُصطنَع، وبرتوكلات، وتَقَرُّبٌ من الجماهير فيما يسمونه الصحافيون: «حَمّامٌ جماهيري» تُصافَحُ فيه الأيدي، وتُستَلَمُ فيه باقات الأزهار، ويُقَبّل خدُّ الصبيِّ.

الوَلايَة الشورية تضم الإمامَ في عناق محبة حقيقية قلبية، تشملهُ والمؤمنين في الدعاء والابتهال إلى الله تعالى عندما يتوجه المؤمنون والمؤمنات لمناجاة ربهم.

لا انفصالَ بين رئاسةِ الأمر وبين الأخوَّة الأفقيّة. قربٌ بين الحاكم والمحكوم، وقرب الحاكم والمحكوم من الرب جل وعلا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا أخبرُكم بخيار أمرائكم وشِرارهم؟ خيارُهم الذين تحبونهم ويُحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم. وشِرار أمرائكم الذين تُبْغِضونهم ويُبْغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**». (أخرجه الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه).

بدأْنا الخروج من السياق الوَلائي في نفس الوقت الذي بدأ فيه نقض عروة الشورى. كان ذلك يوم قال معاوية قولته: «أنا أعلم أنكم لاَ تُسَرّون بولايتي ولا تحبونها. وإني لعالم بما في نفوسكم من ذلك. ولكني خالستكم بسيفي هذا مخالسةً».[1]

من أمراءَ نحبهم ويحبوننا، وندعو لهم ويدعون لنا إلى أمراء نكرهُ حكمهم ويخالسوننا بالسيف.

ما يعبأُ نظام حكم معقلن كالديمقراطية بما يجول في الخواطر. بل ربما كان نفي العاطفة من معادلة الحكم أشبهَ أن تناسب.

لكن الإسلام دين أُخُوَّةٍ، ومحبة الحاكم لا تعمي الناسَ فيختاروا حكاما عاجزين. ومما يستدعي المحبةَ كفاءةُ المحبوب.

الإسلام دين تآخٍ، يعيش المسلِمُ والمسلمة في جنبات الوُدِّ ورحابِ الوَلايَة وكنَفِ النصرة. والمؤمن والمؤمنة هما العامل الإيجابي، هما منبع المودة، وحمَلَةُ تكاليف النصرة، ومُعتصَم الوَلاية.

الوَلايةُ بين المؤمنين والمؤمنات كما بين القرآن سياقها من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصلةٌ بين الله والناس: في آخر السياق قال الله تعالى: ﴿**أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله**﴾[2].

---

(1) ابن كثير في البداية والنهاية.
(2) سورة التوبة، الآية: 71.

الوَلاية الإيمانية رحمة أفقية أيضا

تتجلّى هذه الرحمة العُلْوية في الرحمة الأفقية كما يبينها الحديث الشريف «**إذا اشتكى منه عضو تداعَى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى**». رواه الشيخان عن النعمان بن بشير.

وتُثمر الرحمةُ الوَلائية بين المؤمنين والمؤمنات تلاحُماً في موقِف العزَّةِ على مَن يُحَادُّ الله ورسوله. تبطُل دواعي محبةِ الله المؤمنين والمؤمنات وتنقطع وصلة ﴿**أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ**﴾ إن ذَلّ المؤمنون والمؤمنات لـمَن هو عدُوٌّ يُحَادُّ الله ورسولهُ. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ**﴾.[3]

ليست الـمُوَادَّة بين المؤمنين والمؤمنات، والتراحم والتعاطُف استِرخاءً عاطفيا يسبح في قُطْن السحاب. لا ولا هي بالدائرة المغلقة. فالبِرُّ بالناس ولو خالفونا في العقيدة خُلُقٌ إيماني. بل البرُّ بهم والإحسانُ إليهم لا يَنقطع خيره ولو أساءوا إلينا.

لا ينقطع خيرنا إلا عمَّن حادّ الله ورسوله، وقاتلنا في الدين. وعندئذ فالجهاد في الله، ورفض المذَلَّة واجبٌ من آكد الواجبات. يحب الله مَن تصَدَّى وتحَدَّى ولم يخفْ لومة لائم.

الذِّلّةُ على المؤمنين والمؤمناتِ سهولَةُ عِشرة، وتوْطِئةُ كنَفٍ، ومساعدة وطلاقة ومُواساة وبذل وعطاء. حِمْلٌ يتوازن في جانِبيْه عِدْلان: الذّلة على المؤمنين من جانب، والعِزة على الكافرين من جانب.

(3) سورة المائدة، الآية: 54.

مُحادَّة الله ورسوله فيْصَلٌ

كذلك أمَرَ الله تعالى أن يتميّزَ حِزْب الشيطان الذين يحادون الله ورسوله، وحزبُ الله الذين لا يُوَادّون من حادَّ الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى أن قال جل من قائل: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.[2]

الفاصل بين حزب الشيطان وحزب الله هو محَادَّة الله ورسوله. وهو هو مُقَاتلة المسلمين في الدين التي جعلها الله لنَا مِعيارا نقيس به من هو عدوّنا في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم

(1) سورة المجادلة، الآيات: 19و14.

(2) سورة المجادلة، الآيات: 20-22.

مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[3]

إن تسمَّت جماعة من المسلمين المجاهدين «حزب الله» فإنما هو اسْم تميُّزٍ في ظروف خاصة. وإن ميّز الله تعالى لنا صفات حزب الشيطان وصفات حزب الله فما ذلك مقدمةٌ لعُدْوان من جانبنا على أحَدٍ لم يعتدِ على ديننا، ولم يخرجنا من ديارنا، ولم يتعاون مع من أخرجونا من ديارنا.

بل التعليم القرآني، والتبشير القرآني، يَقرِن بين الـمَوَدة الرابطة بين المجتمع المسلم وبين البِر الرابط بين المسلمين وغيرهم ممن لا يحادُّ الله ورسولَه. فكما يحب سبحانه القوم الذين يحبونه ويتوادون بينَهم، كذلك يحب المقسطين العادلين الذين يَبَرُّون الناس المسالمين في الدين.

هذا التعليم القرآني والتوجيه كان خُلُقاً حيا ورابِطةً جامعة تجسَّدت في الصحابة رضي الله عنهم، وتتجسّد في المسلمين كلما توفّرت شروط الولاية في الله والتحزّب لله.

وصف الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه المكَرَّمين فقال: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾**.[4]

نقف عند «معه» فهي مفتاحُ التربية. كانوا معه محبةً وتلقِّيّاً وتعلّما ومُلازمةً. ونقف عند مُوازنة: أشداء/ رحماء. الشدة بشريعة منزّلَةٍ وحُكْمٍ منضبِطٍ، والرحمةُ فيضٌ من الله إلى المؤمنين والمؤمنات، ومن المؤمنين والمؤمنات إلى من لا يحادّ الله ورسوله.

(3) سورة الممتحنة، الآيات: 8-9.

(4) سورة الفتح، الآية: 29.

الفيصل الـمُحادة. قال علماء اللغة: «الـمُحادَّة الـمُمَانعة، بِحَديدٍ أو بغير حديد». معناه أن من يمانِع في الدين ويقاتل في الدين، قد يستعمل في قتاله السلاح الحديدي، وقد يستعمل السلاح اللفظي، وقد يستعمل سلاحَ الجبناء المنافقين: الدّسَّ والمكر.

قال المفسر ابن كثير رحمه الله: «الذين يحادون: هم في حد والشرع في حد. مجانِبون للحق مُشاقّون فيه، هم في ناحيةٍ والهُدَى في ناحية».

مَرِجَتْ عقولٌ، وتداخلت حدود. فلا يفصل بين المؤمن والكافر الملحد فاصل. بل تجمع الإديولوجية وتربط، ويتوالى ويتصافى المسلم بالاسم مع اليهودي الصهيوني في أحضان الحزب الشيوعي جامع الأشتات ومقبرةِ الرُّفات.

لا فاصل بين الناس في دين اللادينية، لأنه لا يملك أَحَدٌ حقيقةً مطلقةً. بل لكلٍّ حقيقته. والتسامُح التعدديُّ الديمقراطي يقتضي منك أن تصافِح بوُدٍّ وصفاءٍ مَن تحدثه عن الله فيقول: ممكن. ومن تحدثه عن الإسلام فيقول: دين من الأديان السماوية لولا التطرف. وتحدثه عن الصلاة فيقول: هل رأيتَ كيف يُصلي الهندوس؟

جريدةٌ عندنَا في المغرب -ولها لا شك مثيلات في المشرق- لا تجِد صورةً تضعها على صفحة مقالة من مقالاتها المقاتِلة في الدين إلاّ صورة صف الصلاة، أو صورة ساجدٍ لله. الصلاة تطرف، والسجود لله قمة التعصب ورمزه.

وعندنا في المغرب جرائدُ يَنِدُّ على صفحاتِها ما يتداوله المرتدون عن الدين في مجالسهم. فتنشر مقالاتٍ ملتهبةً تشتم فيها «المتطرفين» الظلاميين الذين اعتدوا في حرم الجامعة على طلبة أحرار ديمقراطيين. لا يذكرون أن «الأحرار الديمقراطيين» اتخذوا من الأحياء الجامعية

ثكنات عسكرية يعذبون فيها المؤمنين والمؤمنات. لا يذكرون أن «الأحرار الديمقراطيين» يلوثون المصحف على ملإٍ من الناس في الساحات الجامعية. ويفعلون أفاعيل لا يَسعها قِرطاس. ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون. لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لأن الكفر يغطي على ما دونه من الجرائم.

ما هي المحادّة، ومن هم المحادّون؟ ومن أين تأتي التوبةُ العائدةُ بنا من مُشَاقَّةِ الله ورسوله إلى طاعة الله ورسوله؟

حبُّ العاجلة فصل بعض الناس عن المؤمنين والمؤمنات التائقين الطامعين فيما عند الله.

تسامح!

حب العاجلة والغفلة عن الله يوشِكان أن يصرفا وجْهَ بعض المسلمين المصلين عن الجادّة: الوَلاية في الله والبراءِ ممن يحادُّ الله. نصبوا على واجهة الإسلام الرسمي لافتةً فيها بالحرف الغليظ: تسامح. فلتسقُط الحدودُ! ولْنُقِم مع أحبائنا الصهاينة حفلاتٍ وُدية حميَمَةً بمناسبة صلح المنظمة الفلسطينية مع دولة صهيون!

لو فعل هذا الرسميون لقلنا! لكن الحفلاتِ الحميمة يقيمها على شرف الرفقاءِ اليهودِ رفقاءُ اسمهم عمر وطلحة وجميل وزهراء وسُعاد. كارثةُ الأمة يفرح لها ذراري الأمة العاقون.

مَرِجَت العقول، بالمعنى المزدوج للفعل مرج: اختلط، ومَرَج: التهب. وانغمس الناس في ضَحْلٍ من العَلاقات السياسية الجنسية الإديولوجية، وفي نقيع من الرذائل الدوابية الـمُقَزِّزَة. انحط

بعضهم إلى قاعِ القاع. كلنا سواء! كلنا مناضلون! كلنا طبقة واحدة! كلمة «الجنس» كلمة من قاموس التطبيع اليهودي، تعني في لغة الإسلام: الزنَى.

لا يلام الفضلاء الأمازيغيون إن بحثوا لأنفسهم عن خصوصيةٍ يتميزون بها عن الميوعة وهم تجري في دمائهم دماء رجولة.

يصيبُك الغثيان من سماع الخبر. فكيف بمشاهدة الوَحَل. فكيف حال نفوس تنعَم وتسعد في القاذورات؟

ذلك ما أدت إليه بيداغوجية طويلة، وتربية وتطبيع. والأساتذة النخبةُ العالون مُناضلون في البلاد محترَمون.

تربية وتربية

لحزب الشيطان تربيةٌ تنطلق من الماخور والحانة، وتمر بمجالس توعية وتنضيل، وتنتهي إلى ما سمعتَ وما لم تَسمع، وما لا يُسمع ولا يُكتب ولا يسَعُه قِرطاس.

وتبدأ التربية الإيمانية، تربية حزب الله، من المسجد حيث تتنَزَّل على المؤمنين والمؤمنات السكينة. وحيث تغشاهُم الرحمة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**». الحديث رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة.

الذي تنزل عليه السكينة وتغشاه الرحمة وتحفّهُ الملائكة ويذكره الله فيمن عنده وعاءٌ بشري، قلوب جمعتها عقيدة، وربطها إيمان، وضمها مجلس في المسجد. وعلّمها قرآن يتدارسونه.

وهذه هي الوضعية التربوية، والهيْئة الجماعية الضرورية لاستمطار رحمة الله، واستنزال سكينة الله، ومجالسة ملائكة الله، والحُظْوة بذكر الله من أحبه الله من عباده.

جماعةٌ ومَسْجِدٌ وقرآن. صحبة ومجلس إيمان وذكر لله.

تربية قرآنية مسجدية جماعية. تربية وِعاؤها البشري جماعي ومصدرها رحمة الله، يخُص بها المؤمنين والمؤمنات الملتفين حول كتابه، جامعتهم الوَلاَيَةُ المحبة، الولاية التَّواد العضوي. الوَلاية النصرة.

تنشأُ هذه الوَلايةُ التي يؤيدها الله تعالى بلُقْيا مؤمنيْن. لله عز وجل رحمة تنزل في قلوب العباد فرداً فرْداً. وله سبحانه رحمةٌ جامعةٌ مَنْزِلُها ومُنْزَلُها قلبان مؤمنان اجتمعا في الله. قلبان فصاعدا.

لذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمس بعضُهم بعضاً ليجالسه هذه الجلسة المباركة المرحومة. كانت كلمةُ «اجلِس بِنا نؤمن ساعة» رائجة بينهم، أبْلَغنا خبرَها الثقاتُ علماء الحديث.

نلتفت إلى مجتمعنا الغثائي فنجد أن مجالِس الناس غشيتها أمور وفجورٌ. المدرسة وحِصصُها مجالسُ نصيب تدارُسِ القرآن فيها عدم أو كالعدم. معنى المسجدية فيها، بما يليق بالمسجد من حُرمةٍ وذكْر لله وسَمْتٍ وطمأنينة، غائب. بل روح السوق بها أشبه.

نلتفت إلى مجالس عامة المسلمين، وإلى جِلسة الأم لأبنائها وجِلسة الأب وذوي القربى، فتجدها سكنتها الروح الشيطانية، وسرق التلفزيون الوقت، وسرق الابن من أبيه والأب من بنيه، وسرق الأم والبنات.

ومن شباب الصحوة الإسلامية من يُحيي الله فيهم سنة «اجلس بنا نؤمن ساعة»، فيُنظرُ إليهم شزرا كأنهم أتوا ببدعة منكرة.

التربية الإيمانية أخْذُ رفيق مُحِبٍّ باليد

وصَفْنا منذ هذه الصفحاتِ الطويلةِ سِياقَ الشورى وفضائل الشريعة وخِصال الإيمان. وصفنا بناء شامخا. وإنما يبقى الوصفُ أحلاما على الوَرق بدون فَعَلَةٍ يبنُون: أي بدون تربية.

قال علماء اللغة: ربَّ ورَبَّى وربّبَ بمعنى واحد. والتربية «إنشاء الشيء حَالا فَحالاً إلى حدّ التمام».

تلاشت التربية الفِطرية الموروثة أو كادت. انهدت أركانها بفعل القصف الإعلامي والقنبلة المميّعة والبيداغوجية الإلحادية. فما كانت كلمة «إنشاءُ» أنسب منها في مثل حالنا. إنشاء تربية حالا فحالا إلى حد التمام. والتمامُ الأخذ بيد الابن والابنة فَهُما غصونٌ لم تُذْبلها سَمومُ المناخ، وبيد الرجل والمرأة، وبيد المؤثرات في الأمهات والآباء من مؤسسات التعليم ووسائل الإعلام، والسير بالجميع من هلَكَةِ الضياع وسوء الاتباع إلى روحانية القرآن وسكينة المسجد.

أخذا رفيقا باليد، وهذه دعوة، وهذا قرآن. وأخذا بالعضُدِ ووازعِ الزجر، وهذا سلطان.

أطلقت الإباحية اللادينية حبْلَ الأخلاق على غارِبِها، فالإنسان اللاديني منطلق على مساقه، لا يرتدع عن فاحشة، ولا يتورع عن صغائر الإثم وكبائره، ويُكَذّب ويكذب، يحب العاجلة ويذَر الآخرة، يتمَطّى مستكبرا على الله ورسوله والمؤمنين والناس أجمعين، لا يصلي ولا يتصدق. هو في الدنيا خُلِق سُدىً كما يرى نفسه. المرأة للرجل والرجل للمرأة مأوىً مُباحٌ مشترك.

أهداف التربية الإيمانية في عمومها الأخذ بالأيدي الرفيقة والأعضادِ من مساقِ الإباحية والكفر والغفلة والاستكبار وإيثار العاجلة على الآجلة إلى أضدادها.

وسائل التربية الإيمانية منها ما يدْرأُ الفساد ويدفعه. وتلك مردودها سَلْبٌ لا إيجابٌ. الدّرء والدفع لا يُرَقِّي حالا فحالاً من إسلام لإيمان لإحسان. الدفع والدرء لا يهدي إلى المسجد والقرآن والجماعة المرحومة في تدارُسها آيات الله. الدرءُ والدفع لا يُنْفِذُ إلى القلوب المحبّة والوُدّ، ولا يؤلفُ، ولا يبشر.

أعني أن «إعادة التربية» كما طبَّقها الشيوعيون في كولاكات السوفييت وصحاري الصين إنما هي هدمٌ للإنسان لا إنشاءٌ بناءٌ.

أعني أن التحوُّل من مجتمع الكراهية والتفكك والغثائية إلى مجتمع الوَلاية والمحبة والتوادِّ والإخاء لا سبيل إليه إن لم تتماثَل وسائل التربية وأهداف التربية. لا سبيلَ إن لَمْ يكن القرآن، وحب الله، والثقة بالله، هي السِّلكُ الناظم، والصبر الدائم، والمنهاج اللازم. القرآن والحب وطلب ما عند الله، لا العنف والزجر والقسوة مكشرةً أنْيابَ الإفزاع والإرهاب.

كفَى قسوةً لهيبُ العدوان الخارجي علينا. كفى قسوةً ما في عالم الرأسمالية من قساوةٍ غابَوِيّة تنافُسيةٍ تدوس تحت الأقدام الضعيف المستضعف.

مطلبنا إنشاء تربية يحدوها إلى تلبية نداءِ الطمع فيما عند الله، والطمع في القرب من الله. ولا ينال خيرَ الآخرة وقربَ المولى إلا الرحَماءُ بينهم، الأشداءُ على من حادّ الله ورسوله.

كنا نظن!

كنا نظن أن يفهم الفضلاء الديمقراطيون حين دعوناهم للجلوس معا على أرضية إسلامية أننا دعونا إلى كهف السلام في ظل الإسلام. فهموها عنفا، ويريدونَهَا مُلاطفةً ومُوادّةً حواريّةً مع من ينجسون المساجد. ما سمعنَا، أيّامَ كان لإخوانِ اليهودِ صولةٌ في الجامعة، من استنكر أو استعبَر. ما رأينا ولا سمعنا.

فلما غضب شباب الإسلام، من جماعات إسلامية متعددة، ودافعوا عن دين الله صَدّاً لِعدوان حفدة البرغواطيين، اهتزت المطابع تندد بـ«الإرهابيين» في الجامعة، واحترقت شاشة التلفزيون لهيباً ملتهبا بما تعرضُ من ترسانات «الإرهابيين». صناعةٌ يتقنها أولياء الشيطان ينصر بعضهم بعضا.

قالت اليهود: عُزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله. ولعن الله اليهود والنصارَى لقولتهم. فلعنتُهم نتلوها قرآنا في صلواتنا إلى يوم الدين.

وفعل إخوان اليهود الأفاعيلَ مما لا يُطاوِعُني القَلم على تسطيره، فما تحركَتْ نأْمَةٌ في صفوف الديمقراطيين. ولا كان للمقالات الغاضبةِ في جرائد الإسلاميين المراقَبَةَ المعاتَبَةَ المعاقَبَةَ أثَرٌ.

قال الله تعالى: **﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾**.[1]

(1) سورة مريم، الآية: 90-91.

ذلك غضبُ الله الـمُحيطُ بالكافرين. أما نحنُ والديمقراطيون، المسلمون منهم المصلون، فلم تنشَقَّ مَرائرنا غيرة على ما فعل المجرمون، ويناصر السفهاءُ الغادرون.

استعْدَوْا علينا اليساريون من كل صنف السلطةَ فاعتدتْ، وشهدوا فينا أننا نحنُ أعداءُ الحرية فسمعت شهادتهم. ثُم يغضَبون إن شهدنا بما يشهد به المسلمون في هذا البلد أنّهم والسلطة الغاشمةَ يدٌ واحدةٌ علينا.

يقول الديمقراطيون التعدديون المنفتحون على جميع الأفكار والأوكار: لماذا تتسلقون على السياسة من أبراج الأخلاق؟ معناه: الأخلاق والسياسة ضدان لا يجتمعان. معناه: الدين والسياسة ضرتان لا تلتقيان.

في مثل هذا الموقف يتعين الاختيار بين طرفين لا ثالث لهما. إما أن نكون ديمقراطيين ويكون الطعن في أصحاب الأفاعيل إقصاء سياسيا لا يجوز في دولة قانون التعددية، وفي تعددية قانون الحوار الديمقراطي. وإما أن نكون مسلمين فيكون تلويثُ المصحف على ملإٍ من الناس منكرا تَتفطر السماوات منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً. ما منكر من يستهين بكلام الله بأقل من منكر من ينسُب إلى الله وَلَداً.

لا نصير ديمقراطيين إن لم نقبل التعايش والتسامح مع الرأي الحر. ولا نبقى مسلمين إن قبلنا الحضور راضين عن انتهاك حرمات الله.

وننتظر من يقنعنا أن الديمقراطية أنسب نظام للمسلمين. نعم، يمكن الجمع بين المذهبين والعقيدتين بمسخ الديمقراطية وإخراجها باستثناءاتٍ عن مسارها، أو بتزوير الإسلام وخرق

الشريعة خروقا فاحشة. تلفيق لا يرضى عنه مسلمون مؤمنون، ولا ديمقراطيون مقتنعون.

أما البيداغوجية المأليكة الـمُدقْرِطة الإلحادية النخبوية فهي سائرة تخالِسنا عن ديننا بالمكر كما خالس معاوية بالسيف، سائرة في تقريب الشُّقةِ بالتزوير والخرق. ونرفض نحن أن نَسُومَ الديمقراطية خَسفاً، وأن نخرج عن دائرة الملة بالرضى عن مُنْهكات الدين الـمُفَطِّراتِ للأكباد.

ومطلبنا تربية لأبناء المسلمين وبناتهم على أصالة أصيلة لا تلفق ولا تنافق. على وَلايَةٍ تجمع وبراءٍ يَميزُ المسلمين من المنافقين.

من المعادن ما يأتلف بعضه ببعض ويتقوّى، ويصير هجينه أصبر على الصدمات، وأقدر على الخدمة، من كلٍّ من أبويه الصريحين.

لكن الإسلام والزندقة لا ينتُج عن مزجهما واختلاطهما في قلوب الناس وعقولهم إلا معدنٌ خسيسٌ هو النفاق. وإن المنافقين لفي الدرك الأسفَل من النار في الآخرة. وإنهم في الدنيا لَعُثُّ المجتمعات، وسوسُ الأخلاق، وطاعونٌ في جسم الأمة.

خاتمة



بسم الله والحمد لله ولا إله إلا الله. ختم الله لنا ولكم بما ختم به لأوليائه.

إنه لا بد أن يتكلم الفضلاء الديمقراطيون مع الإسلاميين. إن لم يكن بدافع حب الحقيقة والانصياع للكلمة السواء فلا أقل من مد جسور التواصل والتفاهم لإحباط سياسة «فرق تسد» التي تُحَيِّدُ قوة سياسية بقوة لتبقى الأمة المسلمة ممزقة الجهود حائرة متفرجة على ما يتجاذب ويتقارب، وما يتباعد ويتحارب، في اصطراعٍ فوقيٍّ غامض.

إنكم، معشر الفضلاء الديمقراطيين، مقتنعون كما نحن مقتنعون بأن خلاص هذه الأمة من القبضة السيطرية التي تؤبِّد في أعناقنا أغلال التخلف وذِلة التزلُّف إنما يقوينا عليه -بعد عناية الله كما نحن نستيقن- إعْمالُنَا لقدرة العقل في زمن العقول فيه هي ثروة الشعوب.

ثم تحذيقُ ثمرات العقل بحكمة الخبرة. خبرةٍ بما يجري في العالم وما يدِب، ولِمَ يجري من يجري وكيف يدِبُّ من يدب. خِبْرَةٍ بالواقِع أنتم الفضلاءَ واسعو الاطلاع عليه. خبرةٍ تقنية موضوعية بالواقع نقيّمها نحن قيمتَها حين ندعوكم لتوظيفها في خدمة المشروع المجتمعي الكبير، مشروع المستقبل الإسلامي.

ثم بعثُ الحياة ونفخُ الروح فيما يُثمره الفكر وتُرشِدهُ الخبرة. الحياة والروح ساعد ينجز، طاقة تتفجر، شعب يتعبأ ويشارك ويبني.

العقل، والخبرة والساعد. وقد تعلَّمكم وإيانا التجربةُ وملاحظةُ ما تتحول إليه قِبْلة آمال الأمة أن الإسلام اليومَ وغداً، رأيَ العين فيما تلاحظون، وعينَ يَقينٍ فيما نعتقد ونجاهد، هو العقل، وهو معيار استصلاح الخبرة، وهو محرك الساعد ونافخ الروح ومفجر الطاقات ومُعَبِّئُ الأمة.

الإسلام وشريعته وأرضيته وسماويته هو ما ندعوكم للجلوس إلى مائدته، لنتكلم، وليسمع بعضنا من بعض، لكيلا يستمر بعضنا لبعض قوةَ مَنْع وقمع، وليكون بعضنا لبعض عضُداً وساعدا في فعل الصالح النافع من شؤون البِر والتقوى اللذين أُمِرْنا وإياكم في كتاب الله العزيز بالتعاون عليهما.

أمِر بذلك المسلمون والمسلمات، ويَمْرُقُ الملحدون والملحدات ويعصون.

إنَّ مخطط أعداء هذه الأمة من غيرها ومن بني جِلدتها يعتمد على مبدإٍ مركزيٍّ مِحوريٍّ، حولهُ تدور عجلات الاستتباع والاستدمار والاستحمار. مبدإٍ يعقم الجهود، ويُفسد المجهود، ويثبِّط، ويُفْشل كل سعي، ويسقط إلى الأرض كل محاولة للنهوض.

هذا المبدأ هو تشكيكُ الأمة في الحقِّ، وصدُّها عن الحقِّ، وتعليم ناشِئَتِها في مدارس الاستحمار، وإعلام الاستدمار، وجامعاتِ الضِّرار، أن لاَ حقيقة هناك مطلقةً، وأن العقلانية «العلمية» المادية سَبَرَتْ خفايا السوسيولوجيا، وخبايا التاريخ والأنثربولوجيا، وأبحاث الفلسفة ومقالات الإديولوجيا، فإذا بالحقيقة المزعومة حقائق، وإذا الفكر البشري المتطور في الزمان والمكان هو منتج الحقائق النسبية المتعددة. من الأفكار البشرية من يؤمن بإله، ومنها ما يشك، ومنها ما هو عدمي عبثي. وقمة العقلانية والذكاء والحضارة والتقدم والرُّقِيِّ أن يستوعب المثقف كل المقولات والمقالات والنسبيات في معيارِ ديمقراطية تعددية انتخابية تناوبية في جوفها الحق كله، كما هو الصيدُ كله في جوفِ الفَرَى. ديمقراطية تعددية خارج إطار الدين.

والتخلف كله والتطرف والغباء أن يزعم الزاعم أن الله خالق الإنسان وبارِئُه، وأنه محييه ومميته، وأنه باعثُه ومحاسبُه وجازيه ومعاقبهُ.

عُقدَة رِواية الاستحمار، ومبدَأُ مأْساة الاستدمار، تعليم كُفْرِيٌّ عشش في الأدمغة بفعل فاعل، ولا يزال تستفحلُ مأْساتُه، وتتعقَّد أحداث روايته، وتَقِلُّ أُسَاة مرضاه.

تعليم رسَّخ في الأدمغة مُسَلَّمَة الجحود. رسَّخ «المسلمة الدوابية»: الإنسان حيوان قِردي، حيوان للمتعة، حيوان للاستهلاك، حيوان أرضي وإلى التراب مآله.

ويقترح فاضل ديمقراطي أن لا نتحدث -إن تحدثنا- عن لاييكية لادينية، وإنما نتحدثُ عن عقْلانية وديمقراطية وكُتلة تاريخية.

الأنكى في ذات المريض أنه لا يرى جرثومةَ المرض، وعقدة الرواية المأْساةِ، وثَمرةَ عملية الاستحمار إلا عَافية وغبطةً.

المأساة الإلحاد في دين الله، والكفر بالآخرة ولقاء الله.

فكل حِوار بين من وِجهةُ عقله وقبلةُ نظره وأشواق قلبه رضى الله وبين من وجهته ونظره وشوقه خلافُ ذلك إنما يكون نفاقا سياسيا ولعبا من فوق رؤوس النّاس لُعبة الاحتراف السياسي، وتداولاً بلغة المثقفين والطبقة السياسية في شؤون الأمة الحيوية بنياتٍ تُحاربُ مصلحة وحدة الأمة، وعزة الأمة، وقوة الأمة، وتحرر الأمة. تحارب من حيث تدري ولا تدري.

ويصرخُ المثقف المغربُ، ونصفُ المثقف وعشره، محتجا بعقيدة التعددية الديمقراطية، مدافعا عن حقه في حرية الرأي : أي عن حقه في أن يجهَر بإلحاده.

من التمويهات النفاقية، أو ربما من مظاهر غباء العقول المستحمرة، أن يستَل أحدهم نفسه وأطروحته واقتراحه من خانة التُّهَم فيملأ الفضاء صراخا على عملية «الإقصاء» التي يمارسها الإسلاميون أعداء الديمقراطية التعددية الكذا وكذا.

ما يغَطِّي اللعب بالألفاظ ذات الرواج الصاخب -مثْلِ إقصاء، مجتمع مدني، تعددية، ديمقراطية- جدب العقول، والخواء من الخبرة، وفشلَ السّاعد.

ابك على ورَيقاتك الحزبية دموع الحبر الأسود تعزية لنفسك وذويك عن هزائمك. وإن كنا نرجو لك أن تبكي معنا دموع التوبة إلى الله، والعودة إلى شرع الله، والصلح الصادق مع الله.

تدخل العقلانية المادية الإلحادية حياة أمة مسلمة فتنخَر فيها بنفاقها وغبائها وعَماها عن الحقائق المجتمعية السياسية. فيتساند النفاق والغباء والعَمَى العَقَدي مع الـمَكر والتسلط والتزوير والرشوة المادية والمعنوية و«الأوامر العليا» لينتِج هذا الخليط المذهبي الواقعي ديمقراطيةً انتخابيةً واجهةً هزلية أفرغت من كل معنى.

لو كان «للعقلانية الديمقراطية الكتلية التاريخية» تمييز لأدركت أن ترتيبات ديمقراطية فوقية -وهَبْهَا نزيهةً شفافة- لن تكون في أحسن الأحوال إلا لُعبة من فوق الرؤوس يتداول السلطةَ بمقتضاها هامش من المتعلمين معزولين عن سواد الشعب.

عقلٌ ما، وخبرة ما، ولا ساعد. لا ساعد حيث لا ذكاء، لا ساعد حيث لا صدق، لا ساعد حيث لا إخلاص لدين الله. واذهب أنتَ في مخاتلة أرباب السلطة ومناجاة أحلامك في حنادسِ فشلك!

إننا إذ نقترحها شورى بين المسلمين، وإذ نفكرها روحا جامعة لشتات المسلمين، وإذ نريدها الحكمَ بما أنزل الله بين جماعة المسلمين، يحملها ويحكم بها وعليها صالحو المسلمين، لا نستبدل اصطلاحا باصطلاح، ولا نعطي الديمقراطية نكهة إسلامية، وصبغةً سطحيةً قرآنية كما يفعل قوم أشادوا يوما بـ«الاشتراكية الإسلامية» ويوما بـ«الاقتصاد الإسلامي»، ويوما بـ«الحقوق الإسلامية».

وكأنَّ إلصاق كلمة «إسلام» على واجهة واقع غالب يُعطي المضمون طبيعَةَ الكلمة الملصقة، ويغير بكيمياء تغيير الألفاظ ما تحت الألفاظ.

تحت «الديمقراطية» الصادقة مع نفسها يَربض دين اللاييكية.

وتحت عنوان «الشورى» الإسلام حكما بما أنزل الله، وإيمانا يَسكن قلوب الحاكمين بكتاب الله وسنة رسول الله، ويقيناً بالآخرة وبلقاء الله يُنير الطريق للعقل الفاهم عن الله، ويوظف الخبرةَ الذكية بالعالم السائر وَفق سنةِ الله، ويعبئ الساعد المسلم الخاشع لجلال الله، المجاهدَ في سبيل الله.

***

متى نخرجُ وإياكم معاشر الفضلاء الديمقراطيين من الدورة الصماء المغلقة التي تلعب بنا وبكم في مهرجانها الأبدي؟ دورةِ التوازن العقيم الذي تقاس فيه فائدة القُوى السياسية بما يُرجى من تصادمها وتحييد بعضِها بعضا من خدمة مصلحة زيد وعمرو من الحكام، لا بصلاحية المقترَح، وذكاء البرنامج، وقوة الاقتناع، والصدق الـمُوجبِ للإقناع، والثقة الناتجة عن التصديق والاقتناع.

تقاس صلاحية التوازن السياسي بيننا وبينكم، والاصطراع والتصادم، بمعيار غير معيار صدق الالتزام، وصدقية الأخلاق،

وقابلية الفكرة أن يتبناها الشعب، ويحتضنها، ويشمر عن الساعد لتنفيذها، ويتعبأ بها ولها، ويلتف حولها، لا حول مؤسسات الرشوة والفساد.

متى نتحرر وإياكم من دورات المساومة على الوَلاء غير المشروط للسلطة. يندفع بعضنا يعرض خدماته بِمقايضةٍ مؤقّتة ومنصبٍ ووَهْمِ «اختراق ديمقراطي»، فيريقُ ماء وجهه، ويضيع شرف حزبه؟

متى نتحرر وإياكم من الوَلاء للمصالح الخاصة لنعْطي ولاءنا لله، ولمصلحة أمة رسول الله، ولعزة دين الله، ولانتصار شريعة الله. تُسَوَّقُ إلينا المصالح الخاصة في حوانيت الرشوة ومتاجر الزبونية تحت ثيابِ وَلاءٍ وطني ديمقراطي لا يكاد يخجل من سوء خيانته؟

متى نتحرر وإياكم من ظلام المؤامرات وغبَش المساومات في الظل لنقترح وتقترحوا على الأمة برامج تحصِّل فائدة الأمة؟

متى نعْلنها صريحة صادقة مع الله ومع المسلمين الخاشعين لله ميثاقا إسلاميا يُحَوِّلنا من عهد لعهد، من كذب لصدق، من نفاق لإسلام؟ متى تقتنعون معنا أن ضوء الشمس هو وحده الكاشف لغياهِب الظلام؟ متى تقبض ديمقراطيتكم على قلبها لتُباري شورانا في وضَح النهار، على وجه النهار، وعلى ملإ من الناس: تقولون ونقول، ويُدلي الوطنيون منكم، وورثة الوطنية وأدعياء الوطنية، بما عندهم؟

ونقترح وتقترحون في ساحة يخزَى في حلبتها الكاذبُ والمنافق والدعي والمحترف والمرتشي والخائن، والملحد أولَ شيءٍ.

***

لا بد من يوم ينادي منادي الصدق أين عقل العاقلين، وخبرة الحاذقين، وساعد العاملين.

ولا بد من وقت، وفُسحة حرية، ويُمَكَّنُ فيه كل ذي اقتراحٍ لَه صدقية من وسائل الإعلام -لا سيما التلفزيون- لصناعة رأي عام، لإعادة صناعة رأي عام، لاستنقاذ الرأي العام من أوهامه التقليدية.

إن أمامنا يومئذ من مخلفات الفساد والإفساد والرشوة والتزوير والظلم مشاكلَ موضوعية تطلب العقل والخبرة والساعد. ويَطلب البدءُ الصحيح في حلها إسنادَ المهماتِ الصعبة للرجال الأكفاء والنساء، ممن لا يساوَمون على ولائهم، ممن لا يبيعون ضمائرهم، ممن لا يرهَنون آخرتهم بدنيا غيرهم.

لا بد من كتابة ميثاق إسلامي بعد مناقشة عميقة طويلة على ملَإٍ من الأمة، وبعد نقْد صريح صادق لحاضر الناس وماضيهم وكفاءتهم، وعرض الأفكار والاقتراحات والبرامج بين يدي الناس في الصحف والتلفزيون ليحكم الناس على صلاحية من يصلح للناس، وليرفض الناس ما لا يليق بالناس ومن لا يمثل الناس.

مقدمة ضرورية قبل طرح أنفسِنا وأنفسكم في ميزان الانتخابات الحرة النزيهة.

فإن تخطينا هذه الدرجة من توعية الشعب وتنوير الرأي العام، وإطلاق سراح الرأي العام من الأسْر التقليدي، فإنما نستمر في لعبة الخداع.

***

ميثاق إسلامي يساهم فيه الشعب والكتَل السياسية وضعا ونقاشا ونقدا. يُقصي نفسَهُ من شاء من ساحة المكاشفة والوضوح. ما نحن نحكم ونحاكم ونشنق المخالف. بل دعْه يشنُقْ نفسه بحبل إلحاده ونفاقه، ويزعمْ للأمة أن شيئاً آخر غير طاعة الله ورسوله يَجمعنا.

طاعة الله ورسوله تجمعنا على عمل صالح مشترك نخدم به دنيا أمتنا، وندخره لآخرتنا يوم لقاء الله.

ذلك، أو الانحناء السرمدي أمام قوَى البطش العالمية والأهلية!

هل باستطاعتنا أن نفكر بخلفية إيمانية بدل الخلفية السياسوية التي تنصبُ الضدّ أمام الضد في سباق إلى السلطة؟

لو تعلمون كم هي بعيدة حساباتنا عن الـمُضمرات السياسية الآنية الدنيَوية.

مرمَى نظرنا مستقبل الأمة، وعزة الأمة، وتربية أجيال الأمة. مرمى نظرنا آخِرتنا. وما ندخل معكم في الحلبة السياسية إلاّ لعلمنا أن الطريق إلى كل تغيير لا بد أن يَهُشَّ عنه المؤمنون والمؤمنات بسلطة الحكم ما يتلجلج في أرجائه ويتجعجع من موبقات وصناع موبقات. لا يغير الله عز وجل ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. أظهرُ ما بأنفسنا فساد المفسدين منذ أن نُقضت عُروة الحكم، وفُصِلت عَن سياقها القرآني.

منذ أن فصلت الشورى عن معناها في السياق القرآني.

أظهر ما بأنفسنا وأوضحُه منشأً وعنوانا وتاريخا ذاك.

وأخفى ما بأنفسنا أمراض النفاق والشقاق، وأوبئة الكفر والإلحاد التي تغرس بذورَها في الناشئة بيداغوجيا التلحيد والاستحمار.

***

ما لأمراض النفاق والشقاق والإلحاد والتلحيد المقتعدِ كراسيَّ الحكم وكراسيَّ المدارس والجامعات غيرُ العلاج القرآني، غيرُ تعليم العقل المسلم الاستقاء من منبع الوحي والنبوءة والرسالة.

يُلقي إلينا غيرُنا مصطلحات الحداثة والتقدمية والحرية والديمقراطية، ويتلقَّى مناضلو البيداغوجيا التلحيدية المفاهيم والمضامين واللغة وما تعبر عنه اللغة، فتُقتَنَصُ من أبنائنا وبناتنا العقولُ، ويُغْتالُ الإيمانُ، ويتحزَّب بعضنا ضد بعض ساهين عن مكمن الداء وأصل البلاء الذي جهَّلَنا بالقرآن، وأبعدَنا عن منبع الوحي، وشكَّكنا في النبوءة، وغرسَ في النفوس روح التمرُّد على الرسالة.

نحوم حول الجوهر ونتغذّى بالقشور إن تحدثنا عن الشورى وعن الديمقراطية وكأنهما نظامان اجتماعيان سياسيان لا شأن لهما بمصير الإنسان، ومعناه، ومَوْئِلِه بعد الموت، ومخلوقيته لله تعالى.

نحوم ونتقشّرُ إن أُعْجبْنا بالآلياتِ الديمقراطية، وحريةِ الديمقراطية، ووسَاطَةِ الديمقراطية في حل العلاقات والصراعات الاجتماعية السياسية، ولم نقل كلمة العمق، كلمة علاقة العبد بربه، كلمةَ مصير العباد إلى ربهم، كلمةَ ارتباط الشورى في الحكم بالصلاة في المسجد، كلمةَ ارتباط الزكاة والصدقة بالشورى.

الديمقراطية أخت اللادينية كما هي الشورى أخت الصلاة والزكاة.

إن لم نقل كلمةَ ما يصدُّنا عن سبيل الله في طريقنا، وما يُلْهينا بالفن الراقص عن الركوع والسجود، و«بثقافة الجسد» عن العفة والنظافة، وبالزنى المسَمّى جنساً باسمه الحداثوي العصري المحايد «العلمي» التحرري عن قيمة الأسرة وقُدسية النسب.

متطرف في ملةِ البيداغوجيا التلحيدية من لا يحتضن بامتنان التلميذ وخنوع العبد وانحناءة الخادم ما جادت به وتجود قريحةُ سادة العقلانية والحرية والديمقراطية. أوربا، وفلاسفة أوربا، وفيضُ الأنوار من عواصم أوربا هي المركز. أخلاقهم هي النموذج. فكرهم هو الشمس

وفي غياب الشمس الظلام. نظام حكمهم الديمقراطي هو الحكمة معصومة ساطعة متألقة كاملة. والشورَى حسب بيداغوجيا المرتدين وغيرهم من الجاهلين دينهم والمجَهلين والمتجاهلين ما هي إلا نظام استبداد عتيق، إن صَلُح يوما فلحضارة الجمل ورُعاة الجمل.

أنت إن لم تحتضن حكمة الغرب بامتنان، وتتلمذْ باعتراف لجميل العقلانية المنقذة، طرفٌ وهامِش بِمَزْجرِ الكلب من الحضارة المركز، من الحضارة النور، من الحضارة الشمس.

أنت إرهابي، يشهد عليك بذلك سادة الفكر ومعلمو الحضارة الذين أبادوا شعوبا واستعبدوا قارَّاتٍ. أنت كبش الفداء ومَرْمَى سِهام التعويذة الطِّلَّسْمِية التي تزور التاريخ الماضيَ والحاضر، وتقْلبُ الضحية عادياً، والعاديَ بريئا مُبَرّءاً. تعويذة وطلسم ينسي الذاكرة الأوربية المعذّبة أن أوربا، وحضارة أروبا، وفكر أوربا، ولدت الهتلرية والستالينية وحشيتين مُفلسَفتين.

حجَّاجُنا الطاغية في تاريخنا ما هو إلا ضَفدع حقير لا قيمةَ له في معرض جزّاري التاريخ البشري. صاحبُ دُكان صغير في حي حقير من أحياء جهنم التي يُحشر إليها الظالمون. أُمِّيٌّ في ملة الظلم المتعلمة المثقفة الفيلسوفة التي نظّرت للظلم، ونظمت، ونبذت كلّ القيم الأخلاقية كما نبذت كل العواطف الإنسانية.

نحوم ونتقشر إن لم نَعِ ما يفعله فينا التغريب والمغرَّبون. عقول غضة في طور التكوُّن ندفعها أمانة مضيَّعة لتعليم فرنكوفوني يبثّ فيها جراثيم اللاييكية مُبَزَّرَةً بِبَهارات العقلانية والديمقراطية والحرية، مُزيّنَةً بوُعودٍ تصور لمناضل الديمقراطية وما في موكبها ومن تحت شعارها مستقبل الكرامة، كرامة المنسجم مع العصر، اللاحقِ بشعبه الركبَ الحضاريَّ.

نفوس غضة ندفعها لبيداغوجيا المناضِل الوطني التلحيدي من بني جلدتنا يصَنِّعها بسلطان النظام التربوي هُوَيّة تائهةً، أفواجا رضعت من أثداءِ ظِئْرٍ عَدُوَّةٍ، وكرَعت من حوض ثقافة هي الكدَر أخلاقيا، وهي الكفر والشك في الله مبدئيا.

***

ذاك هو العمق، وهو الكلمة، وهو المسألة. وهو المأساة.

حتّى إذا اتخذ كل فريق منا ومن الفضلاء الديمقراطيين، ومنهم مسلمون صادقون غيورون على دينهم، موقفا من المسألة المأساة، وحتى إذا علم كل أُناسٍ مشربَهم، جلسنا لنتكلم مع من يريدُ أن يسمَعَ ويُسمع عن دساتير الحكم، ومشكلات الاقتصاد، ومتاعب الشباب، ومآزق البطالة، وضرورة الانفتاح على العالم، ووحشية السوق العالمية التنافسية التي نحن في شطرنجها بيادق على الهامش ومنْسِيّات على الرف. وجلسنا نتكلم وإياكم عن الانفتاح الاقتصادي وخطره على قيمنا المادية والأخلاقية والدينية.

اقتنع الفضلاء الديمقراطيون بأن المسألة المأساة والتعليم الكارثَة والبيداغوجيا التلحيدية هي أصل البلاء أم لم يقتنعوا، فواجبنا أن نبسُطَ يوما، أن نستطيعَ ذلك يوما، الأهداف الكبرى للشريعة الإسلامية، والغاية السامية لرسالة الإسلام. نبسط ذلك يوما إن شاء الله على ملَإٍ من الناس في التلفزيون، يوم يتُوب التلفزيون ويُتَوَّب من وظيفته المهينة حين يُستخدم أنبوباً تافها للسخافات الثقافية الفنية، وللتفاهات السخيفة السياسية التمجيدية.

وهاتِ ما عندك يا مناضلَ التّليك الـمُدَقْرط، ويا داعية الإلحاد المبطن والمكشوف. شَرِّفْ وأَشْرِفْ بوجهك أمام الملإ، وحاول أن

تقنع الشعب بأنك حامي الملة والدين، عسى أن تتذكر كلمةَ إيمان وخير سمعتها من جدة تقية، عسى تَرَسُّباتٌ في فطرتك من عهد الصبا لم يطمسها فيك فعل السافيات من رياح التلحيد والتلييك.

عسى تتذكر! عسى تتوب ونتوب معك إلى الله ربنا. عسى، عسى. نتمنى، بل نرجو ذلك لكل مخلوق، فكيف لا يكون رجاؤُنا لأبناء المسلمين خالصا صادقا.

كُفَّ عن الثورة والغضب والهيجان والانفعال دفاعا عن قضايا أعدائنا من حيث تدري أو لا تدري، من حيث تظن أنك تناضل لنفع أمتك!

كفّ، وتعقل، وتأمل ساعة، لحظة، يوما، فتْرةً من عمرك.

تأمل كيف يستسيغ الحياة، ولا تتنغّص عليه الأوقاتُ، ولا يَشْرَق بالماء ويعاف الطعامَ والحياة والليل والنهار من يهيم في الدنيا غير عابئ بمصيرٍ بعدَ موتٍ هُو أثبت اليقينيات عند كل حي عاقل.

كيف يُوطِّدُ نفسه حي عاقل إنسان على أنه دابةٌ وأنبوب هضم وآلة لذة، ثم اللُّحود والدود. عبث في عبث.

تأمل، وتعقل! فكلا والله! فهو بعد رقدة الجسد بعث وحساب، ثم إحدى الدارين لا ثالث لهما: جنة خالدة النعيم، أو نار دار الأشقياء الملحدين.

فأين تذهبون يا غافلين عن الله؟

ماذا تقول غدا أمامَ الملَإِ من الناس، وماذا تقترح هذه النخبة المثقفة، وهذه الطبقة السياسية إن كانت لا تطرح على نفسها السؤال الشجاع الـمُثير الـمُسْهر. إن كانت لم تطرحْه لحظة وساعة ومرة في عمرها؟

الناس مسلمون، ومنهم مسجديون يتعظون ويتوبون ويصلون. وأنت يا أيها المثقف من الطراز العالي، يا أيها الجامعي ذو الشهرة طبَّقَت الآفاق، يا رجل الأعمال الحاذق المتمول المنهمك في أسفارك بين العواصم وصفقاتك، يا أيها الخبير بما يجري في العالم وما يحرك دنيا الأموال والسياسة والاقتصاد وما يقعدها، يا رجل الإعلام وامرأة الإعلام في يدكما أدوات التأثير على الرأي العام من وسائل الاتصال.

أنتم يا أهل العقل والخبرة أين سَاعدكم الفاعل إن كنتم لا تجلسون في المسجد للصلاة الـمُخلصة لله باسطين أكف الضراعة والعبودية للرب الكريم مع المسلمين. أنتم مفصولون، أنتم رَغوة، أنتم هامش!

وأنتُم لو صدقتم مع أنفسكم ومع الله، لو أخلصتم لله ربكم خوفا وطمعا واستعدادا للقائه، أنتم ذخر الأمة وكنزها وعمادها. وأنتم النخبة والصفوة حقا.

***

من أين اكتسبت هذه الطبقة السياسية مشروعيتها؟

مما تعلمون ولا تعلمون. مما تتوهمون وتقدرون.

وأيضاً من استغفالها الشعب، وكذبها على الشعب.

أبرزت الحركة الوطنية «ورثة» يمينا ويسارا. فهم أهل الدار القيّمون عليها.

وتظن الطبقة السياسية أن ديمقراطية نزيهة تكون فيها كلمة الشعب هي الكلمة، وهي رصيد الثقة، وهي مانحة المشروعية، ستخلّدهم في قيادة ورِثوها!؟

ناضَلَ عنك سلفُك الوطنيون المسلمون علماء القرويين، وناضلْتَ أنت من موقعك في يمين الطيف السياسي ويساره ووسطه، أو عمَّتْك

سحائبُ السلطة وبركاتها وصنعتك. فإذا أنتم هؤلاء تتقدمون بثقة في أنفسكم عجيبة ترغبون إلى الشعب أن يصطَفِيكم قادة، وأن يُطوقَكم أكاليل الزهور شكرا على خدماتكم النفيسة!

لو كنا صيَّادي مشروعية شعبية، وهُوّاةَ حكم، وعشَّاقَ سلطة، لصفقنا لديمقراطية دلت الوقائع أن ثمرتها يجنيها الإسلاميون اليوم أو غدا. مساراً في مُتناول المحلل السياسي والمراقب المختص والخاص والعام أن يتنبأ به.

لو كنا كذلك لما كلفنا أنفسنا بسطَ الحقائق وتفصيل الفروق بين الديمقراطية والشورى.

وإذا لكنا سطحيين انتهازيين. وإذا لسبحنَا في الماء العَكِرِ مع سلاحفِ الـمَرْجات.

يزعم السياسيون، الوطنيون منهم والمناضلون أيتام الإديولوجيا الغابرة والمحترفون، أنهم وحدَهم خِرِّيتو الطريق إلى المستقبل، الخبراء بشروط التنمية والتقدم والحداثة. شرطهم المشروط، وعقدهم المربوط، التخلي عن الأفكار «الماضوية» الرجعية الظلامية.

خبراء خرِّيتون في مسالك العصرنة اللاييكية التسامحية التعددية الكفيلة بنيل رضى باريس وواشنطون بعد أن كان مطمح الخبراء المناضلين أن يَرضى عنهم شبح لينين وظل ماركس.

خرِّيتون في زعمهم بمسالك المستقبل. هم الأساتذة وعلينا الاستماع والإذعان. الحوار على أرضيتهم اللاييكية، إن تكلمت بكلمة «إسلام» رموك بمفاهيمهم السيدةِ الـمَرْضيّةِ في لغة الثقافة العالمية الحداثوية. هم الأساتذة أيضا المجتهدون في الإسلام. الإسلام

ما يُقررونه ويُعلِّمونه. فإذا تكلم بعضنا صرخوا: لا يملك أحد الحق المطلق. ولا حق لأحدٍ، ولا نقبل، أن يلقي علينا درسا في الإسلام!

خبراء حاذقون في فن السياسة، استغلوا شعار القومية والوطنية والتقدمية، وهم الآن يرفعون شعار الإسلام مع الرافعين. يا ليتهم صدقوا مع الله وتابوا إليه مع التائبين.

إننا يا قوم نتعامل مع الله عز وجل، نرقُبُه في تفاعلنا مع التاريخ وأحداثه ومحدثيه والمحدِثين فيه والحادثين فيه. المستقبل رسمه قدَر إلهي لا نعرف أسراره. لكن معنا مفتاح الفلاح الدنيوي لأمتنا والأخروي للرجل منا والمرأة.

معنا شرع الله نعرف أوامره ونواهيه، وبواعثه وزواجِره، وحدود القُدرة والوُسع والاستطاعة والضرورة وخُدْعَة الحرب لمن يلج بإيمانه واعتماده على ربه موالج السياسة والمجالات الدولية الصاخبة، والمحلية الجالبة الناخبة.

معنا شريعة العدل والإحسان. بالعدل والإحسان تتقدس الأمة، وبرذائل الظلم والنفاق والشعارات الدعِية ترتذل.

في حديث نبوي رواه ابن ماجة بسند صحيح يقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: «**لا قُدِّست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غيرَ مُتَعْتَع**».

* * *

وقد وصلنا وإياكم معاشر الفضلاء الديمقراطيين إلى نقطة المغزى وبيت القصيد: العدل.

ديمقراطية مباشرة كما يحلُم بها في زماننا طغاة الرمال النفطية تكفل لنا العدل؟ أم ديمقراطية تمثيلية يمثل الشعبَ المسلم ببركتها، ويترأس

المجالس العالية دكاترة لا يحسنون قراءة الفاتحة. يفتضح أحدهم إن قام يقرأ الفاتحة على روح موتاهُ!؟

أم يكفل العدلَ ديمقراطية اجتماعية تعِد ولا تفي!

أم يكفُل العدلَ شورى منسجمة مع سياقها القرآني يستجيب لها الشعب بالمشاركة كما يستجيب للمؤذن بالمشي إلى مسجد الصلاة؟

لا نتركْ الانجراف المصطلحي، بل الجرفَ، يوهمنا ويضللنا. ولا نتركْ جهلنا بالدين، كجهل «الممثل» بقراءة الفاتحة، يفضحنا حين يقول القائل الإسلامي: الشورى عبادة.

أسيفٌ غيرُ حصيف من لا يقرِنُ في طاعة الله الشورى بالصلاة كما هما مقرونتان في السياق القرآني. آسف وأبعد من الحصافة من يتعجب من القول، ومن لا يعجبه القول.

الجرف المصطلحي، بل البيداغوجيا الاستحمارية المتجددة، تعلم التلاميذ أن المسلم المصلي أصولي. وبالتالي فالشورى استبداد، والدعاة إليها إرهابيون.

صناعة التغريب عن الدين تَسهر على «التكوين المستمر». فهي تلقفت في غَرارة الصبا وعنفوان الشباب عقولا ونفوسا حَرَصتْ على أن لا يطرُقَ سمعها إلا تمجيد حضارة الأسياد، ولغة الأسياد. نُفِثَ في أسماع العقول والنفوس كل ما يُزري بتاريخ الإسلام وعقيدة التوحيد، فتنْجَذب العقول والنفوس إلى محبة الغرب والثقة بما يقول ويعلم. ويأتي «التكوين المستمر» ليبْنِيَ على أساس، ولتنطِق الألسُن المعَلـمَّة المترجِمة السامعة صوتَ سيدها بما يرضي سيدها، وما يثبت أن الإسلام والصلاة شيآن لا يجتمعان إلا في حياة أصولي متطرف إرهابي.

ولتنطق الألسن المعلّمة المكونة على أساس بما يكون مقبولا مسْتحسنا مستمْلحا عند السيد من أن الشورى، كالصلاة، تطرف واستبداد وظلام.

رجعنا إلى حوض البلاء فوجدنا فيضه يصب قَدْحا وجرحاً في نظام الحكم الإسلامي. ووجدنا الألسن المعلَّمة تترجم والسيد راض.

تكتمل صناعة الشخصية المسْخِ، ويعتلي أبناءُ الفرنسيس الروحيون وبناته مناصب الحكم، وسُدة الإدارة، ومقاليد السلطة، وكراسي التعليم ليُلقوا رجيع الدنَس الذي أُشربوهُ صغارا، وتكونوا عليه استمرارا، على أرض المجتمع، وفي الفِطَرِ الغضة، وعلى صفحات الوُريقات الحزْبية.

وغاب العلماء بالدين في غياهب الغفلة. غاب حراس الشريعة -كانوا يكونون لو لم تَنَمْ منهم الأجفان كسلا، والعقول عللا- غابوا. بعضهم خُنِقَت في حناجرهم كلمات الغيرة على الدين. وآخرون قَنعوا بالمنصب والقوت، ناكصين عن واجب الذب عن الحوزة، فرحين كالأطفال بجَوْزة المكافآت السلطويةِ والموزة.

أين الفضيلة والمروءة والدين يا من استسلموا واستقالوا، ويا من دُهْدِهَ بهم فناموا، ويا من خُنِقتْ كلمتهم فاستناموا؟

من يفتح الأجفان الناعسة لتلمح بصيصَ نور إن لم نعلن بقوة أننا مسلمون، وأن الشورى دينُنا، وإن لم يكن لنا من الشجاعة في الحق نظيرُ ما لبعضهم من الوقاحة في الباطل؟

***

تكلمنا بلغة السياسة التي يفهمها الفضلاء الديمقراطيون عن الساعد الشعبي وما يحركه، وعن الطاقة الجماهيرية وما يعبئها، وعن الخبرة وجدواها ووظيفتها في بناء اقتصاد وتوجيه سياسة.

ذلك حظ المشترَك بيننا وبينَهم حسَب المنطق الآدمي، وحسب حُكم «الديمقراطي» أبِ المنطقِ الحديث ديكارت الفرنسي الذي حكم أن «الحِسَّ القويم (بون صانص) هو الشيء الـمُوَزَّع بالعدل على كل الناس». الحِس العقل المعاشي.

وحظ ما ينبغي أن نشترك في توظيفه مع الفضلاء الديمقراطيين لمصلحة أمتنا في الدنيا ولخلاص أرواحنا في الآخرة فُرادى يوم نُبعث ونحاسب بين يدي الرب سبحانه استدعيناه عندما خاطبْنا علماء الأمة، بلغة الأخلاق التي يفهمها الجميع، في شأن الفضيلة والمروءة والدين.

الديمقراطيات الحديثة مُملقةٌ صفْر اليدين من الفضيلة. ما على الفضيلة طُنّبتْ خيامها. لا تعرف المروءةَ وأخلاقها وإنما هي ضرب من سياسة الممكن بخداع مكيافيلي أو عنف ثوري. إملاقها من الأخلاق -كقوتها الماسكة القانونية- يشهد عليه ما نسمعه من فضائح الساسة الديمقراطيين في الغرب من دنَسِ «الجنس» الزنى، ومن اختلاس وتزوير. قوة الديمقراطيات في بلادها أنها تحاكم اللص وتطرد الفاسد. مهانة استبداداتنا التقليدية أن اللص فينا شريف، والفاسِد مبجَّل.

الديمقراطية لاييكية لادينية تعريفا.

ولا تكون الشورى -كما كنا نسأل في صفحات هذا الكتاب- هي الشورى القرآنية النبوية الراشدية إلا بدين ومروءة وأخلاق هي الروح. تبرز الروح الفاضلة المروئية الدينية في ثياب التقْنية الحديثة في

الحكم، لا يضير الجميلة أن تستعير من صانع الحرير ثيابا، ثيابا تلبسها العاهرة فتكون عليها شارة فضيحة، وراية شهرة بالرذيلة. وتلبسها الحَصانُ الرزان في خِدر زواجها الشرعي فتكون عليها زينة من زينة الله التي أخرج لعباده.

وبعد، فهل يمكن أن نقتحم بإسلامنا -وهو في الحكم شورى وفي المسجد صلاة وفي المعاملات أخلاق- آفاق مستقبل حافلٍ بِنُذُرٍ تتهدد البشرية؟ هل بشورانا الإسلامية وروحها القرآنية النبوية يمكن أن نساهم في إقامة العدل بين البشر، وفي تجنيب الإنسانية معاطب الانحلال «الديمقراطي» ومعاطِن مفسدات البيئة، وموبقات التسلط الفرعوني المستكبر في الأرض؟

هل بالشورى في سياقها القرآني يمكن أن ندبر الاقتصاد بكفاءة، وندبر الحكم بنزاهة وخدمة، ونحفَظ التوازن الاجتماعي والسلم الاجتماعية والرخاء الاجتماعي على قواعد غير قواعد الرأسمالية الليبرالية الديمقراطية التي تَلد الفوارق الاجتماعية وتُفحشها ليصير الأغنياء أفحش ثراء والفقراءُ أشدَّ بلاءً؟

هل بالشورى في سياقها يمكن أن ندخل عالم الحداثة التكنولوجية التنافسية دون أن نفقد الروح؟

هل في أفقنا ما يبشر بذلك ويُتيحه ويفتح إليه الطريق؟

هل يمكن ذلك نظريا، وإيمانيا، وعمليا؟

الحداثة أو الموت! يعني الفاضل الديمقراطي بالحداثة ترك الدين أولا بوصفه الرثاثة مجسمة. يعني أن نسحب من قاموس حياتنا كلمات الله والوحي والنبوءة والآخرة والملائكة والجن والبعث والنشور والجنة والنار.

ونرى نحن الحداثة -ولُبُّها في ميدان تقنيات الحكم الديمقراطية- مظهر حياة لا مذهب حياة. نراها تغيير ذهنية وتغييرَ نمَط سلوكٍ. نراها حركةً فاعلة في الدنيا بدل التجمّد التقليدي. نراها جدوى اقتصادية، وعقلنة العقل المعاشي بالتعقل الإيماني. نراها تأهيلا ضروريا لطاقات العقل والساعد والخبرة كي نكسب في السوق العالمية التنافسية.

ونرى الحداثة الأوربية وهي تقطع مرحلةً متقدمة في مسارها نحو الوحدة وتجاوز الدولة القومية فنأْسى على قومنا وأبناء ديننا من عرب وعجم لا يبرحون الأقفاص القومية القطرية التجزيئية التي حشرهم فيها الاستدمار الأوربي صانع الأغلال راسمُ الخرائطِ.

***

في نظر أنصار الديمقراطية ومستوردي مفاهيم «المجتمع المدني» والتعددية وما إليها، أنه لا يضمن الحداثة إلا الديمقراطية عارية عن كل وصف تكميلي. أي الديمقراطية الصرفةَ في مساقها اللاديني وحريتها الدوابية ومُسَلـَماتها القردية.

مبادئ التحديث تضمنها الديمقراطية. التحديث انسجام مع العصر بما يعُج في العصر ويضِج. بما يتحرك ويتغير.

نقول نحن: إن مبادئ القوة والتمكن في الأرض يَضمنها وعد الله ورسوله إيمانا، ويبشر بها نجاح بعض المسلمين -بداية نجاح- في ميادين الاقتصاد، ويفتح لها البابَ قابلية الإسلام لاستعارة الحكمة أنَّى وُجدتْ، وإثرائها، وإعادة ترتيبها وتوظيفها لخدمة الأهداف العليا والمقاصد الشرعية والمطالب. والحكم في الإسلام شورى في سياقها.

قوميونَ متجمدون على ذكريات عهود مجيدة يتعزّون «بفضائِلِ» الدولة العباسية ومآثر بني أمية ناقضِي عروة الحكم ومؤسسي حكم العصبيات في الإسلام.

وحداثويون هي عندهم الديمقراطية أو الموت.

أولئك وهؤلاء ينظر بعضهم لبعض شزرا، ويرمي بعضهم بعضا بعظائم التهم، أو قذائف الروكت.

دعونا نتراشق بالكلمات، تقولون ونقول. ونعذِرُ إن سلَقَنا بعضكم بألسنة حِدادٍ حزبية نضالية.

دعونا نسأل هل تستوعب الشورى ويستوعب الإسلام الحداثة دون أن يمس جوهر الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر؟ وهل يجد مقيلا في ظل الحكم الشوري كل مجتهد في الدين له مؤهلات الاجتهاد في الدين؟

الحرية، والعقلنة، والتغيير. هذه مُجمَلات الحداثة. وفصُّها الديمقراطية.

هل يمكن، وهل يُتاح، وهل يتعين أن نُسَلِّمَ الحداثة بدل أن نثق «بمجتهدين» يدعون لتحديث الإسلام؟

هل يمكن أن نثْنِي زِمام الحداثة ونُلفتها عن حنينها الانسجامي إلى مولِدها وموطنها في تاريخ أوربا وتطور فكر أوربا؟

الحداثة الأوربية فردية تجعل الفرد و«سعادته» ورخاءَه ومطعمه وشرابه، ونشوته، وشهوته، ونزوته، مِحْور الحياة. «الحياة» ومباهجها. «الدنيا» بلغة القرآن وزينتها من نساء وأموال وترف ورفاهية.

الفضيلة والمروءة والدين تجعل للفردية الدنيوية التنعمية حدودا وضوابط تُحل الطيبات وتحرم الخبائث. ما أحل الله لعباده نعمة في الدنيا وسماح في الآخرة. وما حرم سبحانه فكدح في الدنيا وعقاب في الآخرة. وفي هذه النقطة الفاصلةِ تأخذ الشورى مَعْزِلها عن الديمقراطية، ويتميز اقتصاد الحلال والعدل والرخاء والأمن

والعافية عن اقتصاد الحرام، والظلم، والترف، ونهب خيرات الأمم، وأكل أموال الناس بالباطل.

الفردية الحداثوية الشهوانية سَرْح في حقول النَّعم بلا حدود. وللمسلم والمسلمة الكفاية من الحلال، والإنفاق في سبيل الله مما رزقهما الله. من مال الله الذي آتاهما.

الحداثة الفردانية، وكلمتُها في شؤون الحكم «ديمقراطية لاييكية»، تجعل الحرية بالمفهوم السارح بلا حدود غاية الغايات الفردية.

الحداثة الحرياتية تعني عقلنة كلِّ أسباب الحياة، تلك العقلنة المعاشية المسلحة بالعلوم والاختراعات والوسائل. لكن العقلنة لا تمسُّ الحيَّ الإنسانيَّ، بَل تنكر البدَاهةَ العقلية وتقبَل خرافة أن الإنسان قرد متطور.

الحداثة تنصل من الدين، لأن الدين يخبر عن آدم أبينا عليه السلام. ولأن دين الكنيسة النصرانية وكهنته ارتكبوا جرائم في حق النصارى قروناً خَلت. الحداثوي من تلامذة النصارى المتنصلين من الدين يعادي كل دين، وينبذ الإسلام.

التغيير والتطوير في مُحدَثات الاختراع، وفي نمط المعاش يُعَدّان قيمتين في حد ذاتهما في دين الحداثة. فإذا تكلم الفضلاء الديمقراطيون والمناضلون الثوريون يوما، المتدقرطون اليوم، عن التغيير وتحدثنا فما تطويرَهم السارح بلا حدود ولا غاية من غايات الدين والفضيلة والمروءة نقصد.

الحداثة ثورة مستمرة قائدتها العقلانية التكنولوجية الجامِحة بالعباد، الطائرة بهم عَبْر الفضاء، وعَبْرَ الثورة المعلوماتية إلى فضاء النجوم وسماء الخيال. الآئِلةِ بالعباد إلى حياةٍ مخدَّرَةٍ بالتلفزيون الدقيق الصور،

والحاسوب الموصول بشبكات «الطريق السيارة» للمعلومات، وعالم المتخيلات والمحتَملات.

ثورة طائشةٌ تشرف بالهندسة الوراثية على تخوم الجنون.

كيف تُلجم الفضيلة وتلجم المروءة ويلجم الدين الطاقات الثورية العلومية المعلوماتيّة؟ لا يرفض الإسلام شيئاً من الأسباب الكونية التي وضعها الله عز وجل نواميس في خلقه. والتحدي الكبير أن يتعلم المسلمون ويتبنوا النافع على حذر من منطق الأشياء الذي يغلب فيهدد مستقبل الإنسان. التحدي إقامة الشورى في سياقها.

الحداثة رفض لكل ما لا يقْتعد أساس التفسير العلومي. فهي رَفض صريح للوحي والله والغيب والرسل والآخرة. وقد انفصلنا عن الحداثة في محطتها هذه انفصالا كليا.

الخير في دين الحداثة ما ينفع الفرد في متعه ورخائه، والمجتمع في استقراره ورحابَة وسائله وبطش قوته. والشر ما يضر الجدوَى والرخاء والشغل والسيطرة على الطبيعة والعباد. ولنا معايير غير هذه للخير والشر، نلتقي مع حداثتهم في الاهتمام بالجدْوَى، وإلى تثمين العمل المنتج، وإلى مكافأة العمل، وإلى تثبيط الكسل والطرق الملتوية للكسب الطفيلي. ونفترق حين يريدونها ديمقراطية لاييكية، ونريدها شورى في سياق الشورى.

في دين الحداثة العدو الأكبر للإنسان الموت. وهي منطقية مع مبادئها. ما دام الإنسان دابة لا آخرة أمامها فالكارثة العظمى هي الموت الذي ينبغي أن لا يُذكر في مجلس، وأن لا يشار إليه بكلمة، لأن الحديث عن الكارثةِ العظمى سوء أدب، وسبب تَنغيص، ومذكرة ألم، ومَغَص نَفس، وإثم حضاري لا يغتفر.

أما حداثتنا فذكر هاذم اللذات راحة إلى رحمة الله ورجاء متجدد. والعدو الأكبر ما يفسد على المسلم والمسلمة مآبهما بعد الموت. العدو الأكبر الشيطان والهوى والدنيا. يختبط الثلاثة بعضهم في بعض ويتآمرون على سعادة المسلم والمسلمة، ويعلمون معصية الله، والشك في المرجع إلى الله. وقَد يُزلون المخذول فيزينان له الإلحاد في دين الله، والكفر بالله ورسله والآخرة. وذلك زيغ عن دين الشورى وسياق الشورى.

***

في الختام. هل تلتقي قابليات الإسلام لاستيعاب الحداثة وتسليمها مع موعود الله ورسوله؟ الله وعد المؤمنين بالنصر من عنده متى نصروهُ، ووعدهم بالتمكين في الأرض. وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تكون خلافةً على منهاج النبوة بعد عهود العض والجبر. منهاج النبوة الشوري.

هل ينشَأ المولود الإسلامي -الشوريِّ نظامَ حكم- في قصر فرعون الحداثة كما نشأ موسى -عليه وعلى نبينا وعلى رسل الله أفضل الصلاة وأزكى السلام- في قصر فرعون التاريخ الذي كان يمارس سياسة الاستئصال في حق المسلمين من بني إسرائيلَ السعداءِ التابعين للرسل يومئذ؟ ينشأ إن شاء الله مولودنا ويشب وينتصر.

هل يقتحم فتى الإسلام نارَ الحداثة فتكون عليه بردا وسلاما كما كانت نار نمروذ على فتى الرسل إبراهيم أبينا عليه السلام؟ نعم، يقتحم ويسلَم.

هل يسلَم نوحنا من الطوفان ومن ومعه؟ نعم يسلَم.

هل ينجي الله من الغرق يونسنا ومن ظلمات الحداثة كما نجى يونس النبي عليه السلام؟ نعم ينجي.

هل تآمرت قريش على رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ووقفوا له بالباب بسيوفهم فأنجاه الله ونصره؟ نعم، وكذلك ينجي الله من اتبع سنة رُسل الله، وسنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الصبر على الجهاد. وفي طاعة الله والتوكل عليه. وفي إقامة الشورى في سياق الشورى.

****

انتهى المقصود من هذا الكتاب. فاللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

سلا، صبيحة الأربعاء 27 ذي القعدة 1416هـ

عبد السلام ياسين

الفهرس

الفصل الأول

سياق الشورى

الفصل الثاني

المساق الديمقراطي

الفصل الثالث

النداء والاستجابة

الفصل الرابع

الأرصدة التاريخية

الفصل الخامس

للإنسان مساق

yassine.net